http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى
الموضوع : فقهى و تحليلى
القرن : الخامس عشر
الناشر : دار الفكر المعاصر
مكان الطبع : بيروت دمشق
سنة الطبع : ١٤١٨ ق
تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

مثل المؤمن المهتدي والكافر الضال [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (١٢٣)

الإعراب :

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فيه مضاف محذوف تقديره : أو مثل من كان ميتا ، بدليل : كَمَنْ

ج ٨ ، ص : ٢٧

مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ

. ومَنْ اسم موصول مبتدأ ، والكاف في كَمَنْ خبره ، واسم كان ضمير يعود إلى مَنْ ومَيْتاً خبرها ، والجملة من الفعل واسمه وخبره صلة مَنْ.

لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في قوله : فِي الظُّلُماتِ.

مُجْرِمِيها مفعول أول لجعلنا ، وأَكابِرَ مفعول ثان مقدم. لِيَمْكُرُوا اللام : لام كي.

البلاغة :

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ نُوراً ... فِي الظُّلُماتِ الموت والحياة ، والنور والظلمات :

استعارة ، فقد استعار الموت للكفر ، والحياة للإيمان ، والنور للهدى ، والظلمات للضلال.

المفردات اللغوية :

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً بالكفر. فَأَحْيَيْناهُ بالهدى. وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ يتبصر به الحق من غيره وهو

الإيمان. كَمَنْ مَثَلُهُ مثل : زائدة أي كمن هو ، والمثل :
الصفة والنعت. فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها وهو الكافر. كَذلِكَ زين للمؤمنين الإيمان كما زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي.
وَكَذلِكَ كما جعلنا فساق مكة أكابرها. جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها الأكابر :

الرؤساء ، جمع كبير أو أكبر ، والمجرمون : مرتكبو الاجرام ، والاجرام : هو الإفساد والإضرار من الأفعال والأقوال ، والقرية : البلد الذي يجمع فيه الناس ، وقد تطلق على الشعب أو الأمة.
لِيَمْكُرُوا فِيها بالصدّ عن الإيمان. وَما يَمْكُرُونَ المكر : التدبير الخفي لصرف الغير عما يريده بحيلة أو خديعة أو تدليس قولي. إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ لأن وباله عليهم.
سبب النزول : نزول الآية (١٢(٢) :
أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً : أخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس في قوله : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ قال : نزلت في عمر وأبي جهل. وأخرج ابن جرير الطبري عن الضحاك مثله ، وذكر أبو بكر
ج ٨ ، ص : ٢٨
لحارثي عن زيد بن أسلم مثله : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً قال : عمر بن الخطاب كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ قال : أبو جهل بن هشام.
وذكر الواحدي النيسابوري عن ابن عباس قال : قوله تعالى : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بفرث ، وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول : يا أبا يعلى ، أما ترى ما جاء به ، سفّه عقولنا ، وسبّ آلهتنا ، وخالف آباءنا ؟ قال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون اللّه ، أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية « ١ » .
اتفقت الروايات على أن الكافر الضال هو أبو جهل ، وأما المؤمن المهتدي فقيل : حمزة ، وقيل : عمر رضي اللّه عنهما ، والصحيح كما قال ابن كثير والقرطبي : أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر « ٢ » .
المناسبة :

ذكر اللّه تعالى في الآية السابقة أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظنون الزائفة والتخمينات ، وأن المشركين يجادلون المؤمنين في دين اللّه ، ثم ذكر هنا مثلا يوضح حال المؤمن المهتدي وحال الكافر الضال ، فأبان أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا ، فجعل حيا بعد ذلك ، وأعطي نورا يهتدي به في مصالحه ، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ، لا خلاص له منها ، فيكون متحيرا على الدوام.

---

(١) أسباب النزول : ١٢٨

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ١٧٢ ، تفسير القرطبي : ٧/ ٧٨

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه اللّه تعالى للمؤمن الذي كان ميتا ، أي في الضلالة ، هالكا حائرا ، فأحياه اللّه ، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ومثل ضربه اللّه للكافر المنغمس في الظلمات أي الجهالات والأهواء والضلالات.

هذه مقارنة أو موازنة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، أفمن كان ميتا بالكفر والجهل ، فأحييناه بالإيمان ، وجعلنا له نورا يضيء له طريقه بين الناس ، وهو نور القرآن المؤيد بالحجة والبرهان ؟ وهو أيضا نور الهدى والإيمان ؟

كمن مثله مثل السائر في الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، وهو ليس بخارج منها ، أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه.

وفي المقارنة بين المؤمن والكافر وردت آيات كثيرة ، منها : أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى ، أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الملك ٦٧/ ٢٢].

و منها : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ [هود ١١/ ٢٤] ومنها : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ [فاطر ٣٥/ ١٩- ٢٣].

وإذا كان الاهتداء إلى الإيمان والانغماس في ظلمات الكفر والضلال بسبب من الإنسان واختيار منه ، فإن اللّه تعالى يزيد المؤمنين توفيقا إلى الخير ، ويترك الكافرين سائرين في متاهات الكفر ، لذا ختم

اللّه الآية بقوله : كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي كما زين الإيمان للمؤمنين ، زين للكافرين الكفر والمعاصي ، أي حسّن لكل فريق عمله ، فحسّن الإيمان في أنظار المؤمنين ، وحسّن الكفر والجهالة والضلالة في أعين الكافرين ، كعداوة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذبح القرابين

ج ٨ ، ص : ٣٠

لغير اللّه ، وتحريم ما لم يحرمه اللّه ، وتحليل ما حرمه.

وقال ابن كثير : حسّن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة ، قدرا من اللّه وحكمة بالغة ، لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. وأورد حديثا في المقارنة المتقدمة بين المؤمن والكافر ،

رواه الإمام أحمد في مسنده عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « إن اللّه خلق خلقه في ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور ، اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ » « ١ » .

(٢٦/٨)

ثم أورد اللّه تعالى ما يدلّ على سنته الثابتة في البشر ، فقال : وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ .. أي وكما أن أعمال أهل مكة مزينة لهم ، وجعلهم اللّه أكابرها مع أنهم فسّاقها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها رؤساءها ودعاتها إلى الكفر والصدّ عن سبيل اللّه ، ليمكروا فيها بالصدّ عن سبيل اللّه لأنهم أقدر على المكر والخداع وترويج الباطل بين الناس بحكم نفوذهم وسيادتهم وسيطرتهم.

وهكذا سنة اللّه في المجتمعات البشرية ، يثور النزاع بين الحق والباطل ، ويشتد الصراع بين الإيمان والكفر ، ولكل اتجاه أعوانه وأنصاره ، وسادته وكبراؤه ، والأنبياء وأتباعهم من المصلحين يوجدون في هذا الوسط المتصارع ، فيتبعهم الضعفاء ، ويكفر بهم الأشراف ، وينصرهم الأوساط ، ويقاوم دعوتهم الأكابر المجرمون الذي يعادون حركة الإصلاح والتقدم ، والبناء والتحضر ، في كل بيئة ومجتمع.

ولكن العاقبة والنصر للمتقين المصلحين ، والهزيمة أو الانقراض والخذلان للكافرين المفسدين ، وما يمكر هؤلاء الأكابر المجرمون المعادون للرسل إلا بأنفسهم لأن وبال مكرهم عليهم ، وعاقبة إفسادهم تلحق بهم ، لكنهم عديمو النظر للمستقبل والواقع ، والاعتبار بالماضي ، وعديمو الشعور والإحساس ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ١٧٢

ج ٨ ، ص : ٣١

و ما يشعرون شعورا صادقا صحيحا بمدى أعمالهم.

وهذا مؤيد للقاعدة الاجتماعية الشهيرة وهي تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، كما قال تعالى : فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ [الرعد ١٣/ ١٧].
وقد ساد هذا وصار سنة متبعة أيضا في الماضين الأولين ، فقال تعالى :

وَ مَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [النمل ٢٧/ ٥٠- ٥١] أي أن الذين مكروا حفاظا على نفوذهم ومراكزهم ، لم يشعروا بأن عاقبة مكرهم تحقيق بهم ، لجهلهم بسنن اللّه في خلقه : وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر ٣٥/ ٤٣].
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيتان على ما يأتي :
١- المؤمن المهتدي كمن كان ميتا فأحياه اللّه ، فهو الذي ينعم بحق بالحياة الصحيحة السوية المتكاملة المطمئنة لأنه على بصيرة تامة بواقعة وعمله وسيرته ، وعلى معرفة دقيقة بدينه وما ينتظره من مستقبل حافل بالآمال العذبة ، والخيرات المغدقة ، والنعيم الخالد.
والكافر الضال يعيش في الواقع في ظلمات بعضها فوق بعض ، ظلمة الكفر ، وظلمة المنهج والطريق ، وظلمة المستقبل الغامض ، المحفّل بشتى ألوان العذاب والضيق والحيرة والقلق والاضطراب.
٢- سنة اللّه في الاجتماع البشري أن يكون النفوذ والسيطرة لأكابر المجرمين ، وقادة الفسق والعصيان ، وأهل الانحراف الذين يعادون الرسل ، ويقاومون حركة الإصلاح في كل زمان.
ج ٨ ، ص : ٣٢
و لكن العاقبة والفوز والفلاح في النهاية لأهل الحق والإيمان والاستقامة ، والخسارة والدمار ووبال المكر لأهل الكفر والضلال. وهذا من اللّه عز وجل وهو الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم ، والحال أنهم لا يشعرون الآن ، لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم.

و قد أثار المفسرون بمناسبة قوله تعالى : كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ مسألة الجبر والقدر ، فقال أهل السنة : ذلك المزين هو اللّه تعالى لأن كل فعل يتوقف على باعث له كائن بخلق اللّه تعالى ، والباعث أو الداعي له : عبارة عن علم أو اعتقاد أو ظن بأن الفعل مشتمل على نفع وصلاح ، وهذا الباعث هو التزيين ، فإذا كان موجد هذا الباعث أو الداعي هو اللّه تعالى ، كان المزين لا محالة هو

اللّه تعالى كما قال : زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ [النمل ٢٧/ ٤].
وقالت المعتزلة : ذلك المزين هو الشيطان ، الذي أقسم : لأغوينهم أجمعين. وهذا الرأي غريب وضعيف لأن اللّه تعالى صرح بأنه هو المزين ، ولا مزين آخر سواه « ١ » .
تعنت المشركين ومطالبتهم بالنبوة [سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٤]
وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

---

(١) تفسير الرازي : ١٣/ ١٧١
ج ٨ ، ص : ٣٣
الإعراب :
اللَّهُ أَعْلَمُ جملة من مبتدأ وخبر ، وهو كلام مستأنف للإنكار عليهم ، والإخبار بألا يصطفي للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم.
صَغارٌ فاعل مرفوع لفعل : يصيب.
المفردات اللغوية :
وَإِذا جاءَتْهُمْ أي أهل مكة. آيَةٌ أمارة وحجة ودليل قاطع على صدق النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم.
حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ من الرسالة والوحي إلينا ، لأننا أكثر مالا وأكبر سنا.

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ مفعول به لفعل دلّ عليه أعلم ، أي يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه ، فيضعها ، وهؤلاء ليسوا أهلا لها. أَجْرَمُوا ارتكبوا جرما بقولهم ذلك. صَغارٌ ذل وهوان ، بسبب الكفر والطغيان.
وَعَذابٌ شَدِيدٌ في الدارين من الأسر والقتل ، وعذاب النار.
سبب النزول :
نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة قال : لو كانت النبوة حقا ، لكنت أولى بها من محمد لأني أكبر منه سنا ، وأكثر منه مالا وولدا « ١ » .
المناسبة :
بعد أن أبان اللّه تعالى سنته في البشر بأن يكون في كل بلد أو جماعة زعماء مجرمون يقاومون دعوة الرسل والإصلاح ، أوضح أن هذه السنة موجودة في زعماء مكة الذين دفعهم المكر والحسد إلى أنه متى ظهرت لهم معجزة قاهرة تدل على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم قالوا : لن نؤمن حتى يحصل

لنا مثل هذا المنصب من عند اللّه.

التفسير والبيان :

إذا جاءتهم ، أي المشركين ، آية وبرهان وحجة قاطعة من القرآن تتضمن

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ٨٠

ج ٨ ، ص : ٣٤

صدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في تبليغه وحي ربه ، قالوا حسدا منهم وتعنتا وغرورا وظنا منهم أن النبوة منصب دنيوي : لن نؤمن حتى يكون لنا مثل محمد منصب عند اللّه ، وتظهر على أيدينا آية كونية أو معجزة مثلما أوتي رسل اللّه كفلق البحر لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى لأنهم أكثر مالا وأولادا وأعز جانبا ورفعة بين الناس.

وقال ابن كثير : حتى تأتينا الملائكة من اللّه بالرسالة ، كما تأتي إلى الرسل ، كقوله جلّ وعلا : وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا [الفرقان ٢٥/ ٢١].

و هكذا يظهر أن مشركي مكة أكابر قريش طمحوا أن تكون النبوة في بعضهم ، كما حكى تعالى عنهم : وَقالُوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ [الزخرف ٤٣/ ٣٢] والقريتان : مكة والطائف. وفي آية أخرى : بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً [المدثر ٧٤/ ٥٢].

فردّ اللّه عليهم بقوله : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه. فالرسالة منصب ديني له مقومات خاصة ، وفضل من اللّه يمنحه من يشاء من عباده ، لا ينالها أحد بكسب أو جهد ، أو بسبب أو نسب ، أو بخصائص دنيوية عادية كالمال والولد والزعامة والنفوذ ، وإنما تؤتى من هو أهل لها لسلامة فطرته ، وطهارة قلبه وقوة روحه ، وحسن سيرته ، وحبه الخير والحق.

ثم أوعد اللّه المتخلفين عن الإيمان بدعوة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ ... أي سيلحق المجرمين يوم القيامة ذل وهوان دائمان ، ويدركهم العذاب المؤلم الشديد ، جزاء بما كانوا يمكرون ، وعقوبة لتكبرهم عن

ج ٨ ، ص : ٣٥

اتباع الرسل ، والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، كقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي ، سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ داخِرِينَ [غافر ٤٠/ ٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين.
ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا وهو التلطف في التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من اللّه يوم القيامة جزاء وفاقا : وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف ١٨/ ٤٩].

و معنى كون العذاب من عند اللّه : أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره ، كما قال تعالى : كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ [الزمر ٣٩/ ٢٥- ٢٦].
فقه الحياة أو الأحكام :
النبوة أو الرسالة تمنح لمن هو مأمون عليها وموضع لها ، وأقدر على تحمل أعبائها ، وليست هي مثل مناصب الدنيا التي تعتمد على النفوذ والسلطة أو المال والجاه ، أو النسب ، أو كثرة الأعوان والأولاد.
وما على الناس إلا الإيمان بما جاء به الأنبياء لأن نبوتهم تثبت بدليل قاطع ، وبمعجزة خارقة للعادة.
فإن لم يؤمنوا أصابهم أمران : صغار وذل وهوان ، وعذاب اللّه الشديد في الآخرة ، بسبب إجرامهم ومكرهم ، وحسدهم وحقدهم ، وهذا حق وعدل ، تمييزا بين الطائعين وبين العصاة ، وإنما قدم الصغار على ذكر الضرر ، لأن القوم إنما تمردوا على طاعة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم طلبا للعز والكرامة ، فقابلهم اللّه بضد مطلوبهم.
والمشهور في تفسير الآية أن زعماء مكة أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة ،
ج ٨ ، ص : ٣٦
كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.
ولكن اللّه تعالى أبان لهم أنهم غير أهل للنبوة ، وأنهم أيضا سيتعرضون للهوان والذل ، والإلقاء في جهنم ، وهذا عقاب المعرضين عن اتباع الأنبياء ، استكبارا وعتوا وعلوا في الأرض.
سنّة اللّه في المستعدّين للإيمان وغير المستعدّين وجزاء الفريقين بعد بيان الحق ومنهجه [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٥ الى ١٢٨]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا

الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

الإعراب :

ضَيِّقاً مفعول ثان ل يَجْعَلْ. حَرَجاً من قرأ بفتح الرّاء جعله مصدرا ، ومن قرأ بكسرها جعله اسم فاعل ، وهو صفة منصوب لقوله ضَيِّقاً. كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ في موضع الحال من الضمير في حرج وضيق.

ج ٨ ، ص : ٣٧

مُسْتَقِيماً منصوب على الحال المؤكّدة من : صِراطُ ، وإنّما كانت مؤكّدة لأن صراط اللّه تعالى لا يكون مستقيما.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَوْمَ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : واذكر يوم نحشرهم.

وجَمِيعاً : منصوب على الحال من الهاء والميم في نحشرهم.

النَّارُ مَثْواكُمْ يجوز أن يكون المثوى مصدرا بمعنى الثواء وهو الإقامة ، ويجوز أن يكون مكانا أي مكانا للإقامة ، فإذا كان مصدرا كان هو العامل في الحال : خالِدِينَ فِيها ، وإذا كان مكانا كان العامل في الحال معنى الإضافة لأن معناه المضامّة والمماسّة ، مثل قوله تعالى : وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً [الحجر ١٥/ ٤٧] ، وقوله تعالى : أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ [الحجر ١٥/ ٦٦] وليس في التّنزيل حال عمل فيها الإضافة إلا هذه المواضع الثلاثة.

إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ما : في موضع النصب على الاستثناء المنقطع ، فإن جعلت ما لمن يعقل لم يكن منقطعا.

البلاغة :

قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ فيه إيجاز بالحذف أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس. ومثله اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجنّ ، وبعض الجنّ ببعض الإنس.

النَّارُ مَثْواكُمْ تعريف الكلمتين لإفادة الحصر.

المفردات اللغوية :

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ يوسّعه لقبول الإيمان والخير ، أو يقذف في قلبه نورا ، فينفسخ له ويقبله ، كما ورد في حديث ، والمراد جعل النفس مهيأة لقبول الحقّ فيها. ضَيِّقاً ضدّ الواسع.

حَرَجاً بفتح الرّاء وكسرها : شديد الضيق ، من الحرجة : وهي الشّجر الكثير الملتف بحيث يصعب الدّخول فيه. يَصَّعَّدُ أو يصّاعد أي يتصاعد في السماء ، ويسبح في الفضاء ، وكأنّما يزاول أمرا غير ممكن إذا كلف الإيمان ، لشدّته عليه. كَذلِكَ الجعل. يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ أي يسلط اللّه العذاب أو الشيطان ، وأصل الرّجس : كل ما يستقذر حسّا أو شرعا أو عقلا.

وَهذا منهج محمد ودينه. صِراطُ رَبِّكَ أي طريقه الذي ارتضاه لخلقه. مُسْتَقِيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ. قَدْ فَصَّلْنَا بيّنا. لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أي يتّعظون ، وخصّوا بالذّكر لأنهم المنتفعون.

لَهُمْ دارُ السَّلامِ أي دار السّلامة ، وهي الجنّة. وَلِيُّهُمْ متولّي أمورهم وكافيهم ما يهمّهم. يا مَعْشَرَ المعشر : القوم والرّهط وهو الجمع من الرجال فحسب. قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ

الْإِنْسِ

اسْتَكْثَرْتُمْ أخذتم الكثير بإغوائكم. وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ الذين أطاعوهم في وسوستهم.

اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أي انتفع الإنس بتزيين الجنّ لهم الشّهوات ، والجنّ بطاعة الإنس لهم.

وَبَلَغْنا أَجَلَنَا وصلنا يوم البعث والجزاء أو الموت. خالِدِينَ فِيها الخلود : المكث الطويل غير المحدد بوقت.

النَّارُ مَثْواكُمْ مأواكم. إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ من الأوقات التي يخرجون فيها لشرب الحميم ، فإنه خارجها ، كما قال تعالى : ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [الصافات ٣٧/ ٦٨] أو ينقلون من عذاب النار إلى عذاب الزّمهرير. حَكِيمٌ في صنعه. عَلِيمٌ بخلقه.

المناسبة :

هذه الآيات استمرار في مناقشة مواقف تعنّت المشركين والرّدّ عليهم وتفنيد حججهم وشبهاتهم ، وهي الآن تحسم الأمر ، فتوضح أنهم ليسوا أهلا للإيمان ، وغير مستعدّين لقبوله ، كما أوضح في الآية السابقة أنهم غير أهل للنّبوة. وعلى كلّ حال : طريق الحقّ قد بان لكلّ ذي بصيرة ، ومنهج الاستقامة الذي يرضي اللّه قد تجلّى لكلّ البشريّة ، فمن قبله فله دار السّلامة ، ومن أعرض عنه فله عذاب النار. وقبل هذا الجزاء يوجد الحشر والحساب ، وإقامة الحجّة على الكفار.

التفسير والبيان :

عرف من الآية السابقة أن المشركين سيلقون جزاء عنادهم وغرورهم ، وهنا كلمة الفصل : وهي أن الأمر كله للّه ، فلا يهتمن أحد ، ولا يحزن على إعراض المشركين عن دعوة الإسلام ، فمن يرد اللّه أن يوفقه للحقّ والخير والإسلام ، ومن كان أهلا بإرادة اللّه وتقديره لقبول دعوة القرآن ، فإنه يشرح صدره له ، وييسره وينشطه ويسهله لذلك ، كقوله تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [الزّمر ٣٩/ ٢٢] ، وقوله : وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات ٤٩/ ٧].

قال ابن عباس في آية يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ : يقول تعالى : يوسّع

ج ٨ ، ص : ٣٩

قلبه للتوحيد والإيمان به. وهو تفسير ظاهر مقبول.

وجاء في حديث رواه عبد الرزاق عن أبي جعفر : وسئل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن هذه الآية : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول اللّه ؟ قال : « نور يقذف فيه ، فينشرح له وينفسح » قالوا :

فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري عن أبي جعفر أيضا قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن هذه الآية : « إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح » قالوا : يا رسول اللّه ، هل لذلك من أمارة ؟ قال : « نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت » « ١ » .

وإلقاء هذا النور يكون في موضعه : في النفس التي حسنت فطرتها ، وطهرت ، وكان فيها استعداد للخير ، وميل إلى اتباع الحق.

و من فسدت فطرته بالشرك ، وتدنست بالآثام يجد في صدره ضيقا شديدا عازلا له عن الإيمان ، كاتما له عن نفاذ الخير إليه ، مثله كمثل من يصعد إلى السماء في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكأنما يزاول أمرا غير ممكن ، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة.

وكما يجعل اللّه صدر من أراد إضلاله لفقد استعداده للإيمان ضيقا حرجا ، كذلك يسلط اللّه الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان باللّه ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل اللّه سبيل الحقّ « ٢ » .

والرجس : كما قال مجاهد : كل

---

(١) تفسير الطبري : ٨/ ٢٠

(٢) المرجع السابق : ٨/ ٢٤

ج ٨ ، ص : ٤٠

مالا خير فيه ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : العذاب باعتبار أنه الفعل المؤدي إلى الرجس ، من الارتجاس وهو الاضطراب. وقال الزمخشري : الرجس يعني الخذلان ومنع التوفيق.

وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً أي وهذا الإسلام الذي يشرح له صدر من يريد هدايته ، هو طريق ربك الذي ارتضاه للناس واقتضته الحكمة ، وأكد ذلك بقوله : مُسْتَقِيماً أي طريقا سويا لا اعوجاج فيه لأن صراط اللّه تعالى لا يكون إلا مستقيما ، وغيره من السبل معوج منحرف ، كما

قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في حديث أحمد والترمذي عن علي في وصف القرآن : « هو صراط اللّه المستقيم ، وحبل اللّه المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين » .

قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أي قد وضحناها وبيناها وفسرناها لقوم لهم فهم ووعي يعقلون عن اللّه ورسوله.

ولهؤلاء القوم الملتزمين طريق الاستقامة دار السلامة والطمأنينة وهي الجنة لأنهم التزموا منهج الأنبياء عِنْدَ رَبِّهِمْ أي يوم القيامة. واللّه وليهم أي متولي أمورهم وكافيهم ، جزاء على صالح أعمالهم.

و اذكر يا محمد فيما نقصه عليك وتنذرهم به يوم نحشر الإنس والجن جميعا ، ونقول : يا جماعة الجن قد استكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم ، كما قال تعالى :

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ [يس ٣٦/ ٦٢]. ويقول الذين أطاعوا الجن واستمعوا إلى وسوستهم وتولوهم ، من الإنس ، في جواب اللّه تعالى : انتفع كل منا بالآخر ، انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم.

وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا أي الموت ، أو أنهم يعنون يوم البعث. وهذا

ج ٨ ، ص : ٤١

الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، والتكذيب بالبعث ، أي أن المقصود من الكلام : أننا في هذا اليوم الرهيب وهو يوم البعث والجزاء ، اعترفنا بذنوبنا ، فاحكم فينا بما تشاء

، وأنت أحكم الحاكمين ، ولقد أظهرنا الحسرة والندامة على ما كان منا من تفريط في الدنيا.
فأجابهم الحق تعالى : النار مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ، وأنتم ماكثون فيها مكثا مخلدا الأبد كله ، إلا ما شاء اللّه من الخروج خارج النار لشرب الحميم أو الانتقال من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، وكل من الحالين انتقال من عذاب إلى عذاب ، روي أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ، ويطلبون الرد إلى الجحيم. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فيما يجازي به الناس عَلِيمٌ بما يستحقه كل فريق.
وهي نظير قوله تعالى : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ [هود ١١/ ١٠٧].

و يحسن الأخذ في تفسير هذه الآية وما هنا بما رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حيان عن ابن عباس قال : « إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على اللّه في خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا نارا » « ١ » .
فقه الحياة أو الأحكام :
آية : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ... تدل على إثبات الإرادة للّه عز وجل في هداية الإنسان وتوفيقه للإيمان والحق والخير.
وتمسك أهل السنة بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من اللّه تعالى ، أي بخلقه وإيجاده ، بمعنى أن العبد قادر على الإيمان ، وقادر على الكفر ، فقدرته

---

(١) تفسير الطبري : ٨/ ٢٦ [.....]
ج ٨ ، ص : ٤٢
بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية ، لكن هذه القدرة منوطة بحصول باعث في النفس ، وداعية في القلب تدعو إما إلى الإيمان ، وإما إلى الكفر ، وذلك الباعث أو الداعية هو علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملا على مصلحة أو ضرر ، فإن تكوّن في قلبه الميل إلى المصلحة أو المنفعة ، فعل الشيء ، وإن تكوّن في قلبه الميل إلى الضرر أو المفسدة ، ترك الشيء ، وحصول هذه الميول أو الدواعي لا يكون إلا من اللّه تعالى ، ومجموع القدرة البشرية مع الداعي الإلهي يوجب الفعل.
وعلى هذا لا يصدر الإيمان عن العبد إلا إذا خلق اللّه في قلبه اعتقاد أن الإيمان راجح المنفعة زائد

المصلحة أي تكوين القناعة الذاتية ، وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد ، مال القلب ، ورغب في تحصيله ، وهذا هو انشراح الصدر للإيمان « ١ » .

وهذا متفق مع ما ذكرت في تفسير الآية من

حديث النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن شرح الصدر إذ قال : « هو نور يقذفه اللّه في قلب المؤمن ، فينشرح له وينفسح » .

و قد ضرب اللّه تعالى مثلا في هذه الآية : وهو تشبيه المتلكئ عن الإيمان ، المتثاقل عن الإسلام بمنزلة من يصّعد في السماء ، فقد شبه اللّه الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه ، كما أن صعود السماء لا يطاق ، أو أن الكافر إذا طولب بالإيمان تضايق وكان حاله كحال الصاعد في السماء ، كلما ارتفع وخف الضغط الجوي عليه ، ضاق نفسه ، وهذه نظرية علمية حديثة معروفة الآن فقط ، وقد أشار إليها القرآن.

ومثل جعل صدر الكافر شديد الضيق ، كذلك يلقي اللّه العذاب

---

(١) تفسير الرازي : ١٣/ ١٧٧- ١٧٨

ج ٨ ، ص : ٤٣

و الخذلان ، أو اللعنة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون بآيات اللّه تعالى.

والثابت المقرر المقطوع به : أن ما أنت عليه يا محمد والمؤمنون بك هو صراط اللّه المستقيم أي دين ربك لا اعوجاج فيه.

وللمتذكرين آيات اللّه ، والمتدبرين براهينه بعقولهم ، والمؤمنين المعتبرين المنتفعين بالآيات : دار السلام أي الجنة ، التي يسلم فيها المؤمن من الآفات ، كما سلم من الاعوجاج في الدنيا ، ومعنى عِنْدَ رَبِّهِمْ أنها مضمونة لهم عنده ، يوصلهم إليها بفضله ، واللّه هو وليهم أي ناصرهم ومعينهم.

وفي يوم الحساب تتبدد وتتقطع صلات الوصل والمنافع بين الإنس والجن الذين ينتفع كل منهم بالآخر ، فاستمتاع الجن من الإنس : أنهم تلذذوا بطاعة الإنس وإياهم ، واستمتاع الإنس من الجن : قبولهم وساوس الشياطين وإطاعتهم لهم حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم. ومعنى الآية هنا : تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين.

و أما خلود الكفار في النار فمرجعه إلى مشيئة اللّه ، هذا ما أرجحه ، أي أن خلودهم بمشيئة اللّه. وقد قيل في استثناء إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أقوال كثيرة ، رجح الزجاج والطبري منها : استثناء أوقات المحاسبة لأن في تلك الأحوال ليسوا بخالدين في النار ، لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة ، أي خالدين في النار إلا ما شاء اللّه من مقدار حشرهم من قبورهم ، ومقدار مدتهم في الحساب ، فالاستثناء منقطع.

والقول الثاني- المراد الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، روي أنهم يدخلون واديا فيه برد شديد ، فهم يطلبون الرد من ذلك البرد إلى حر جهنم.

ج ٨ ، ص : ٤٤

و القول الثالث لابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمان ، استثنى اللّه تعالى قوما سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعلى هذا القول يجب أن تكون ما بمعنى « من » ولا يكون الاستثناء منقطعا.

تولية الظلمة على بعضهم وتقريع الكافرين على عدم إيمانهم [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢٩ الى ١٣٢]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (١٣(١) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

الإعراب :

ُصُّونَ

ونْذِرُونَكُمْ

: كل منهما جملة فعلية في موضع رفع لأنها صفة لرسل.

ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ذلِكَ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر ذلك. وأَنْ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : لأن لم يكن ربك ، فلما حذف حرف الجر انتصب ، فاللام مقدرة ، وأن مخففة من الثقيلة أي لأنه.

البلاغة :

لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

استفهام توبيخ وتقريع.

وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ أي لكل من العاملين ، فالتنوين عوض عن محذوف لهم.

ج ٨ ، ص : ٤٥

المفردات اللغوية :

وَكَذلِكَ أي كما متعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض نُوَلِّي من الولاية والإمارة ، أو نجعل بعضهم أنصار بعض بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أي على بعض بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من المعاصي لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أي من مجموعكم ، ويصدق ذلك على بعض الإنس : لأن الرسل من الإنس ، ولم يكن من الجن رسول ، فهذا من باب التغليب ، كقوله تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ [الرحمن ٥٥/ ٢٢] وإنما يخرجان من البحر المالح لا العذب.قُصُّونَ عَلَيْكُمْ

يخبرونكم بها مع التوضيح والتبيان.

ِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

أن قد بلّغنا غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا

أي خدعتهم الدنيا بزخارفها فلم يؤمنوا.

ذلِكَ أي إرسال الرسل وَأَهْلُها غافِلُونَ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم.

وَلِكُلٍّ من العاملين دَرَجاتٌ مراتب جزاء على وفق أعمالهم مِمَّا عَمِلُوا من خير أو شر.

المناسبة :

لما حكى اللّه تعالى عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضا ، بيّن أن ذلك إنما يحصل بتقديره وقضائه ، فقال : وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أي مثل ما ذكر من استمتاع الجن والإنس ببعضهم في الدنيا ، لتماثلهم في الاتجاه والوسائل والغايات والأعمال ، نولي بعض الظالمين ولاية بعض ، فنجعلهم أمراء عليهم ، أو أنصارا لهم.

التفسير والبيان :

مثل تولي الجن والإنس بعضهم لبعض نولي الظالمين بعضهم ببعض ، بأن نجعل بعضهم أنصار بعض بمقتضى التقدير والسنة الكونية ، كما أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، كما قال تعالى : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ [التوبة ٩/ ٧١] وقال سبحانه : وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ [الأنفال ٨/ ٧٣].

ج ٨ ، ص : ٤٦

قال قتادة في تفسير الآية : إنما يولي اللّه الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان ، وحيث كان

، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. واختاره الطبري ، ويكون معنى الآية : وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض ، يستمتع بعضهم ببعض ، كذلك نجعل بعضهم أولياء بعض في كل الأمور ، بما كانوا يكسبون من معاصي اللّه ويعملون « ١ » .

وقال السيوطي في الإكليل : الآية في معنى

حديث « كما تكونوا يولّى عليكم » « ٢ »

وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم ، فقف وانظر متعجبا. وروى أبو الشيخ ابن حيان عن منصور بن أبي الأسود ، قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم ، أي أن الولاية والإمارة تكون لأشرارهم ، كما قال تعالى : وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً [الإسراء ١٧/ ١٦].

أي أن التولية بين الظالمين إما بالتعاطف والتناصر فيما بينهم ، وإما بتسلط بعضهم على بعض وتأمّرهم عليهم ، فما من ظالم إلا سيبلى بأظلم منه. والظلم عام يشمل الظالمين لأنفسهم ، والظالمين للناس من الحكام وغيرهم ، فكل فريق يتولى شبهه في الخلق والعمل ، وينصره على غيره. قال ابن عباس : « إذا رضي اللّه على قوم ولى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط على قوم ولى أمرهم شرارهم » .

وهذا تهديد عام لكل ظالم في الحكم والسلطة أو غير ذلك.

---

(١) تفسير الطبري : ٨/ ٢٦ ، تفسير ابن كثير : ٢/ ١٧٦

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي إسحاق السبيعي مرسلا ، وهو حديث ضعيف.

و تابع اللّه تقريع الظالمين وتهديد كافري الجن والإنس ، وبيان حالهم يوم القيامة ، حيث يسألهم ، وهو أعلم ، هل بلّغتهم الرسل رسالاته ، وهذا استفهام تقرير وتقريع وتوبيخ ، فقال : ا مَعْشَرَ الْجِنِّ ... أي يا جماعة الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم ؟ أي من جملتكم ، والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما قرر جمهور السلف والخلف ، وقد عبر بذلك من باب التغليب ، كما قال تعالى :

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ [الرحمن ٥٥/ ٢٢] واللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان في عرف المتقدمين من المالح ، لا من الحلو ، ثم ثبت أن بعض الأنهار الحلوة الماء قد استخرج منها اللؤلؤ.
ويمكن أن يكون المراد رسل الإنس المعروفين ، ورسل الجن : وهم الذين كانوا يستمعون إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم يذهبون لإنذار قومهم بما سمعوا : وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [الأحقاف ٤٦/ ٢٩] قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقالُوا : إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ... [الجن ٧٢/ ١].

(٨/٤٤)

و مهمة هؤلاء الرسل : أنهم يتلون على أقوامهم آيات الإيمان والأحكام والآداب ، وينذرونهم لقاء يوم الحشر وما فيه من الحساب والجزاء لمن يكفر بها ويجحدها.
فأجابوا عن السؤال ، وقالوا يوم القيامة : أقررنا بأن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ، ونظير الآية قوله تعالى : قالُوا : بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ [الملك ٦٧/ ٩].
وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطة ورفعة الجاه ، ففرطوا في حياتهم الدنيا ، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ، وإنكار المعجزات ، كبرا وعنادا.
ج ٨ ، ص : ٤٨
و شهدوا على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين في الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل عليهم السلام.
ذلك أي إرسال الرسل وإنذارهم الناس ، وإنزال الكتب ، بسبب أن من سنة اللّه ألا يؤاخذ أحد بظلمه إذا لم تبلغه الدعوة ، وألا تهلك الأمم بعذاب الاستئصال ، إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، كما قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر ٣٥/ ٢٤] وقال سبحانه : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦] وقال عزّ وجلّ :
وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء ١٧/ ١٥].

(٨/٤٥)

و قوله تعالى : بِظُلْمٍ يحتمل- كما ذكر الطبري- وجهين : الأول- بشرك ونحوه ، أي أن الظلم فعل للكفار. والثاني- لا يكون الهلاك ظلما بغير حق دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبرة ، أي أن ذلك عائد إلى فعل اللّه تعالى والوجه الأول أقوى ، كما قال الطبري « ١ » والرازي وغيرهما ، والخلاصة : إن اللّه لا يظلم أحدا من خلقه ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، فكل ما نزل وينزل

بالمسلمين إنما هو لسوء أعمالهم ، وتركهم دينهم ، والعيب فيهم لا في نظام شرعهم.
ولكل عامل في طاعة اللّه أو معصيته مراتب ومنازل من عمله ، يبلغه اللّه إياها ، ويثيبه بها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.
واللّه مطلع على كل الأعمال ، فما من عمل لهم إلا يعلمه ، وهو محصيه ومثبته لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ، ومعادهم إليه.
وهذا دليل على أن مناط السعادة والشقاء : هو عمل الإنسان ومشيئته ، أو كسبه وإرادته واختياره.

---

(١) تفسير الطبري : ٨/ ٢٨

ج ٨ ، ص : ٤٩

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل آية : وَكَذلِكَ نُوَلِّي .. على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فاللّه تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم ، فإن أرادوا التخلص من ذلك الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم.
وتدل الآية أيضا على أنه لا بد للناس من أمير وحاكم لأنه تعالى إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم ، فبأن لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح ، كان أولى.
قال علي رضي اللّه عنه : « لا يصلح للناس إلا أمير عادل ، أو جائر » فلما أنكروا قوله : « أو جائر » قال : نعم يؤمن السبيل ، ويمكن من إقامة الصلوات ، وحج البيت » .

و تذكر الآية سنة من سنن اللّه في الناس ، وهي أنه لما كان تعالى ولي المؤمنين أي حافظهم وحارسهم ومعينهم وناصرهم وأن لهم دار السلام ، أبان أن أهل النار بعضهم أولياء بعض ، أي أن نصراءهم من يشبههم في الظلم والخزي والنكال.
ومهمة الرسل عليهم السلام : تلاوة الآيات الإلهية وتأويلها وتوضيحها ، وإنذار الناس وتخويفهم عذاب يوم القيامة.
ولم يجد الكفار بدا من الاعتراف بذلك ، ولكن الحياة الدنيا خدعتهم وظنوا أنها تدوم ، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا ، واعترفوا بكفرهم.
واللّه عادل أتم العدل وأكمله ، لذا فإن عذاب الكفار عدل وحق وواجب ، فلا يعذبهم إلا بعد بيان وإنذار ، ولا يعاقبهم إلا بعد بعثة الأنبياء والرسل إليهم.
وإرسال الرسل أمر حتمي ضروري ، لأن من خصائص اللّه وصفاته أنه لا يهلك أهل القرى بشركهم قبل

إرسال الرسل إليهم ، فيقولوا : ما جاءنا من بشير ونذير.

ج ٨ ، ص : ٥٠

و لكل العاملين لمن الجن والإنس مراتب بحسب أعمالهم ، فلمن عمل بطاعة اللّه درجات في الثواب ، ولمن عمل بمعصيته دركات في العقاب ، واللّه ليس بغافل ولا لاه ولا ساه عن كل عمل ، قليل أو كثير.

ودلت آية : ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ على أنه لا تكليف ولا إيجاب قبل ورود الشرع ، وأن العقل المحض لا يدل على التكليف والإيجاب أصلا.

التهديد بعذاب الاستئصال والإنذار بعذاب القيامة [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٥]

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣(٣) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣(٤) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

الإعراب :

إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ ما اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب اسم إِنَّ.

وتُوعَدُونَ صلة ، والعائد إليه محذوف ، تقديره : إن الذي توعدونه لآت ، مثل قوله تعالى :

أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا [الفرقان ٢٥/ ٤١] أي بعثه.

مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ مَنْ إما استفهامية مبتدأ ، وما بعدها خبره ، والجملة في موضع نصب بتعلمون ، وإما أن تكون بمعنى « الذي » خبرا ، فتكون في موضع نصب تعلمون.

البلاغة :

إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ عبر بالفعل المضارع المفيد للاستقبال ، للدلالة على الاستمرار المتجدد. والجملة مؤكدة بمؤكدين : إن ، واللام ، للرد على منكري البعث.

ج ٨ ، ص : ٥١

المفردات اللغوية :

يُذْهِبْكُمْ يهلككم يا أهل مكة وَيَسْتَخْلِفْ أي ينشئ الخلف وهو الذرية والنسل كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ أذهبهم ولكنه أبقاكم رحمة لكم ، وقوله مِنْ ذُرِّيَّةِ أي من نسل قوم وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فائتين عذابنا ، فاللّه قادر غير عاجز على إدراككم.

مَكانَتِكُمْ حالتكم عاقِبَةُ الدَّارِ العاقبة المحمودة أو عاقبة الخير في الدار الآخرة ، إذ لا اعتداد بعاقبة

الشر لأن اللّه جعل الدنيا مزرعة الآخرة. إِنَّهُ لا يُفْلِحُ يسعد الظَّالِمُونَ الكافرون.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعصية ، وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة ، بيّن أنّه غير محتاج إلى طاعة المطيعين ، ولا ينتقص بمعصية المذنبين ، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ، ولكنه أيضا ذو رحمة عامة كاملة ، ثم بيّن أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق ، أو في خلق جديد بديل عنهم ، ثم فوض الأمر إلى خلقه على سبيل التهديد.

التفسير والبيان :

وربك يا محمد هو الغني عن جميع خلقه وعن عبادتهم من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك ذو الرحمة الشاملة بهم ، كما قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ [الحج ٢٢/ ٦٥] وقال في بيان غناه :

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [فاطر ٣٥/ ١٥].

وجملة وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ تفيد الحصر ، بمعنى أنه لا غني إلا هو ، ولا رحمة إلا منه ، لأنه واجب الوجود لذاته ، وغيره ممكن لذاته ، والممكن محتاج ، فثبت أنه لا غني إلا هو ، وكل ما سوى اللّه منه ، فثبت أنه لا رحمة إلا من الحق ، فكل ما عداه محتاج إليه في وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التي هي قوام وجوده وحياته.

ج ٨ ، ص : ٥٢

إن يشأ يذهبكم أيها الكافرون المعاندون كأهل مكة ، كما أهلك من عاند الرسل كعاد وثمود ، ويأت بخلق جديد غيركم أفضل منكم وأطوع ، فهو قادر على أن يستخلف من بعدكم ما يشاء من الأقوام ، كما قدر على إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، أي أنه قادر على الإهلاك والإنشاء معا ، وقد حق ذلك ، فأهلك زعماء الشرك المعاندين ، واستخلف من بعدهم قوما آخرين وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم الذين كانوا مظهر رحمة اللّه للبشر في سلمهم وحربهم ، حتى قال غوستاب لوبون : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

و بعد أن وجه لهم هذا الإنذار بالإهلاك في الدنيا ، أتبعه إنذارا آخر في الآخرة ، فقال : إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ .. أي أخبرهم يا محمد أن الذي توعدون به من الجزاء الأخروي كائن لا محالة ، وما أنتم بمعجزين ، أي لا تعجزون بهرب ولا امتناع مما يريد ، فهو القادر على إعادتكم ، وإن صرتم ترابا رفاتا وعظاما ، وهو القاهر فوق عباده.

روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون ، فعدّوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ، إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين » .

ثم أردف اللّه تعالى ذلك بتهديد آخر شديد ووعيد أكيد فقال : قُلْ : يا قَوْمِ ، اعْمَلُوا ... أي أخبرهم يا محمد بقولك : استمروا على طريقتكم وحالتكم التي أنتم عليها إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، كقوله تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، إِنَّا عامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [هود ١١/ ١٢١- ١٢٢].

قال الزمخشري في قوله : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ : يحتمل وجهين : اعملوا على تمكنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، إني عامل على مكانتي التي أنا عليها ، والمعنى : اثبتوا على كفركم

ج ٨ ، ص : ٥٣

و عداوتكم لي ، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم « ١ » .

فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة ، أنحن أم أنتم ؟ وعاقبة الدار : العاقبة الحسنى التي خلق اللّه تعالى هذه الدار لها.

و هذا- كما قال الزمخشري- طريق من الإنذار ، لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال ، وأدب حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأن المنذر محق ، والمنذر مبطل. وهو على طريقة قوله : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ [فصلت ٤١/ ٤٠] وقوله : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [سبأ ٣٤/ ٢٤].

وهو دليل على أن أحوال الأمم مرتبة بحسب أعمالها ، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

إنه لا يفلح الظالمون أي لا يسعد ولا ينجح الظالمون أنفسهم بالكفر بنعم اللّه ، واتخاذ الشركاء له في ألوهيته ، وذلك مثل قوله تعالى : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ

[إبراهيم ١٤/ ١٤].

ومما نحمد اللّه عليه أن أنجز اللّه موعده لرسوله ، فمكّنه في البلاد ، ونصره على مشركي العرب ، ودانت له الجزيرة العربية واليمن والبحرين في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم بعد وفاته في أيام خلفائه ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، وتعاقبت دول الإسلام قوية عزيزة منيعة عدة قرون من الزمان ، كما قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة ٥٨/ ٢١] وقال : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر ٤٠/ ٥١- ٥٢].

---

(١) الكشاف : ١/ ٥٢٩

ج ٨ ، ص : ٥٤

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على صفات عظيمة للّه عز وجل وهي الغنى المطلق عن خلقه وعن أعمالهم ، والرحمة الشاملة لعباده ، ولا سيما أولياؤه وأهل طاعته ، والقدرة الكاملة على الإماتة والاستئصال بالعذاب ، والإحياء والإنشاء واستخلاف خلق آخر أمثل وأطوع.

وقال المعتزلة : هذه الآية إشارة إلى الدليل الدال على كونه عادلا منزها عن فعل القبيح ، وعلى كونه رحيما محسنا بعباده.

ودلت الآيات أيضا على أن وعد اللّه محقق منجز ، وأن الإيعاد بعذاب الآخر كائن حتما لا محالة ، والجزاء أمر لازم لأهل الخير والشر.

وتضمنت الآيات إنذارين : إنذارا في الدنيا لتصحيح الأعمال بالتهديد بعذاب الاستئصال ، وإنذارا في الآخرة للرهبة من الحساب وعذاب النار.

ولا شك بأن المصير مختلف بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، فالعاقبة الحسنة المحمودة لمن آمن بالإسلام وأطاع اللّه ، والمصير المشؤوم لمن كفر باللّه وعصاه ورفض أوامره وتحدى رسله.

شريعة الجاهلية في الزروع والثمار والأنعام وقتل الأولاد [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣٦ الى ١٤٠]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

ج ٨ ، ص : ٥٥

الإعراب :

ساءَ ما يَحْكُمُونَ مِمَّا في موضع رفع لأنه فاعل ساءَ.

زَيَّنَ فعل مبني لمعلوم ، وفاعله : شُرَكاؤُهُمْ وقَتْلَ مفعول به وهو مصدر أضيف إلى المفعول. وقرئ زين بالبناء للمجهول ، وقتل بالضم نائب الفاعل ، وشُرَكاؤُهُمْ فاعل مرفوع بفعل مقدر دل عليه زَيَّنَ كأنه قيل : لما قيل : زين لهم قتل أولادهم : من زينه ؟ فقيل : زينه لهم شركاؤهم. وقرأ ابن عامر بنصب : أولادهم ، وجر :

شركائهم بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، ولا يضر كما قال السيوطي ، وهو وجه سائغ لغة ، بدليل أنها قراءة متواترة.

مَنْ نَشاءُ مَنْ فاعل مرفوع لفعل : يطعم.

ج ٨ ، ص : ٥٦

ما فِي بُطُونِ ما اسم موصول ، بمعنى الذي مبتدأ مرفوع ، وفِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ صلته. وخالِصَةٌ خبر المبتدأ ، وأنث خالصة ، حملا على معنى ما لأن المراد بما في بطون هذه الأنعام : الأجنة ، وذكّر : مُحَرَّمٌ حملا على لفظ ما ويجوز أن يكون خالِصَةٌ بدلا مرفوعا من ما بدل بعض من كل ، ولِذُكُورِنا الخبر. ومن قرأ خالصة بالنصب كان منصوبا على الحال من الضمير المرفوع في قوله فِي بُطُونِ. وخبر المبتدأ الذي هو ما : لِذُكُورِنا.

وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً اسم يَكُنْ ضمير مضمر فيها ، ومَيْتَةً خبرها. ويَكُنْ محمول على لفظ ما وتقديره : وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة. ومن رفع ميتة فلأن تأنيث الميتة ليس بحقيقي. ومن قرأ : تكن بالتاء

، وجعل كان تامة بمعنى : حدث ووقع ، ورفع ميتة لأنه فاعل ، كقوله تعالى : وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً [النساء ٤/ ٤٠] في قراءة الرفع. سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ منصوب بنزع الخافض أي بوصفهم. سَفَهاً إما منصوب على المصدر ، وإما على أنه مفعول لأجله.

البلاغة :

ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ إظهار لفظ الجلالة الثاني ، لبيان كمال عتوهم وضلالهم.

المفردات اللغوية :

وَ جَعَلُوا أي كفار مكة ذَرَأَ خلق وأبدع الْحَرْثِ الزرع ، جعلوا للّه نصيبا يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، ولشركائهم نصيبا يصرفونه إلى سدنتها فَقالُوا : هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا أي الأوثان التي يتقربون بعبادتها إلى اللّه تعالى ، فكانوا إذا سقط في نصيب اللّه شيء من نصيبها التقطوه ، أو في نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، وقالوا : إن اللّه غني عن هذا ، كما قال تعالى : فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أي لجهته وهي سدنة الآلهة وخدمها. ساءَ بئس ما يَحْكُمُونَ حكمهم هذا.

قَتْلَ أَوْلادِهِمْ بالوأد شُرَكاؤُهُمْ من الجن لِيُرْدُوهُمْ يهلكوهم بالإغواء وَلِيَلْبِسُوا يخلطوا حِجْرٌ أي حرام ممنوع ، والحجر : أصله المنع ، ومنه سمي العقل حجرا لمنعه صاحبه إِلَّا مَنْ نَشاءُ من خدمة الأوثان وغيرهم بِزَعْمِهِمْ أي لا حجة لهم فيه وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها فلا تركب ، كالسوائب والحوامي وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا عند ذبحها بل يذكرون اسم أصنامهم ، ونسبوا ذلك إلى اللّه ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ المحرمة وهي السوائب والبحائر خالِصَةٌ حلال أَزْواجِنا النساء وَصْفَهُمْ أي سيجزيهم جزاء وصفهم ذلك بالتحليل والتحريم إِنَّهُ حَكِيمٌ في صنعه عَلِيمٌ بخلقه سَفَهاً جهلا.

ج ٨ ، ص : ٥٧

المناسبة :

بعد أن ندد اللّه تعالى بفساد عقائد المشركين ، ومنها إنكار القيامة والبعث والجزاء ، ذكر هنا أنواعا وصورا من جهالاتهم وأحكامهم المفتراة في تحليل وتحريم بعض الزروع والثمار والأنعام ، ووأد البنات.

التفسير والبيان :

هذه ألوان من شرائع الجاهلية العربية قبل الإسلام التي ابتدعها المشركون ، واخترعوها بأهوائهم وآرائهم الفاسدة ، وتأثرا بوساوس الشيطان.

النوع الأول :

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ... أي وجعلوا للّه نصيبا مما خلق من الزرع والثمار والأنعام ، وخصصوا له جزءا وقسما من الغلة والثمرة والنتاج ، وجعلوا نصيبا آخر لشركاء للّه المزعومين من الأوثان والأصنام.

وقالوا في النصيب الأول : هذا لِلَّهِ ، نتقرب به إليه ، وفي النصيب الثاني : هذا لِشُرَكائِنا أي لمعبوداتنا نتقرب به إليها.

وجعل الأوثان شركاءهم لأنهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها ، وأطاعوها طاعة إذعان وخضوع في التحليل والتحريم مما هو من خصائص اللّه تعالى. وقوله : بِزَعْمِهِمْ أي بتقولهم الذي لا بينة لهم عليه ولا هدى من اللّه ، فيزعمون أنهم يحرمونه قربة للّه ، والقربة يجب أن تكون خالصة له وحده ، وبإذنه لأنه دين ، والدين للّه ومن اللّه وحده.

ونصيب اللّه كانوا يجعلونه للضيوف وإكرام الصبيان والتصدق على المساكين ، ونصيب آلهتهم لسدنتها وخدمها ومصالحها.

ج ٨ ، ص : ٥٨

و ما عينوه لشركائهم لا يصرف منه شيء إلى الوجوه التي جعلوها للّه ، بل يجعلونه للسدنة وخدمة الأصنام والأوثان وذبح القرابين.

وما جعلوه للّه فقد يصرف للتقرب به إلى الأوثان.

ساءَ ما يَحْكُمُونَ أي بئس الحكم الذي يحكمون أو يقسمون ويصنعون ، بإيثارهم المخلوق العاجز على الخالق القادر على كل شيء ، فهي قسمة جائرة لأن اللّه تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وحينما قسموا جاروا فلم يصرفوا له حقوقه ، أو جعلوا له الصنف الأضعف ، كما قال تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ ، سُبْحانَهُ ، وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ [النحل ١٦/ ٥٧] وقال تعالى : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ [الزخرف ٤٣/ ١٥] وقال عز وجل :

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى [النجم ٥٣/ ٢١- ٢٢].

إنهم بهذا الصنع القبيح اعتدوا على حق اللّه في التشريع ، وأشركوا به غيره وعبدوا معه إلها آخر ، وفضلوه ورجحوه عليه بجعل ما للّه لشركائهم ، ولم يستندوا في حكمهم على سند صحيح من عقل أو هداية من شرع إلهي.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : « إن أعداء اللّه كانوا إذا حرثوا حرثا ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا للّه منه جزءا ، وللوثن جزءا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان ، حفظوه وأحصوه

، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصّمد ، ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن ، فسقى شيئا ، جعلوه للّه ، جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه للّه ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن ، قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه للّه ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للّه ، فسقى ما سمي للوثن ، تركوه للوثن.

وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، فيجعلونه

ج ٨ ، ص : ٥٩

للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة للّه تعالى » .

النوع الثاني :

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... أي ومثل ذلك التزيين بقسمة الحرث والأنعام بين اللّه والأوثان ، زيّن لكثير من المشركين شركاؤهم (سدنة الآلهة وخدمها) أن يقتلوا أولادهم ، وقال مجاهد : شركاؤهم : شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العلية (الفقر) وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات ، إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم ، أي فيخلطوا عليهم دينهم.

وسبب هذا التزيين : أن الشياطين خوفوهم الفقر في الحال أو في المستقبل ، كما وصف تعالى ونهى عن فعله فقال : وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ [الإسراء ١٧/ ٣١].

(٥٧/٨)

و خوفوهم العار ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير كفء ، وقد سنح اللّه تعالى عليهم بقوله : وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [التكوير ٨١/ ٨].

وأوهموهم أن قتل الأولاد يقربهم إلى اللّه ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد اللّه ، و أشار إليه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : « أنا ابن الذبيحين » .

وذكر تعالى علة تزيين المنكرات فقال : لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ أي زيّن هؤلاء الشياطين لهم هذه المنكرات ، ومنها قتل أولادهم ، ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، ويفسدوا عليهم فطرتهم ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذي يدّعونه وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم.

ولو شاء اللّه ما فعلوا هذا أبدا ، وكل هذا واقع بمشيئة اللّه تعالى وإرادته

ج ٨ ، ص : ٦٠

و اختياره لذلك بمقتضى الحكمة التامة ، قال أهل السنة : إنه يدل على أن كل ما فعله المشركون ، فهو بمشيئة اللّه تعالى.

وقالت المعتزلة : إنه محمول على مشيئة الإلجاء ، أي إن مشيئة اللّه تعالى أن يتركهم واختيارهم ،

فيأخذوا بما يرونه دون جبر ولا قهر ، علما بأن اللّه قادر على أن يجعلهم مؤمنين ، بأن يخلقهم مطبوعين على الاستعداد للإيمان كالملائكة ، أو يخلق فيهم بواعث الإيمان ودواعيه ، فينقادوا لدعوة الإيمان عند ظهورها ، وبمجرد مجيء الرسول الذي يقنعهم بضرورة الإيمان ، والإقرار بوجود اللّه ووحدانيته.

فاتركهم أيها الرسول وما يدينون ، وما عليك إلا التبليغ.

النوع الثالث :

وَقالُوا : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ... أي إنهم لشركهم وجاهليتهم المشوهة قسموا أنعامهم وزروعهم ثلاثة أقسام :

١- أنعام وأقوات ممنوعة الانتفاع على أحد ، ومخصصة لمعبوداتهم وأوثانهم ، ويقولون : هي حجر أي محتجرة للآلهة لا تعطى لغيرهم ، ويقولون : لا يطعمها إلا من نشاء أي لا يأكل منها إلا خدم الأوثان ، والرجال دون النساء. وذلك قول صادر عن زعمهم الخالي من الحجة والبرهان.

٢- أنعام حرّمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهي البحائر والسوائب والحوامي ، التي تقدم ذكرها وتفسيرها في سورة المائدة : ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ .. [١٠٣].

٣- أنعام لا يذكرون اسم اللّه عليها عند الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ، ولا ينتفعون بها حتى في الحج.

ج ٨ ، ص : ٦١

و قد قسموا تلك القسمة مفترين على اللّه ، كاذبين عليه ، فهو لم يشرعه لهم ، وما كان لهم أن يحللوا أو يحرموا شيئا لم يأذن اللّه به ، كما قال تعالى : قُلْ : أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا ، قُلْ : آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [يونس ١٠/ ٥٩].

واللّه سيجزيهم الجزاء الذي يستحقونه بما كانوا يفترون. وهذا وعيد وتهديد لهم.

ثم ذكر اللّه تعالى نوعا آخر من التحليل والتحريم بزعمهم وسخفهم فقال :

وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ .. أي إن أجنة وألبان هذه البحائر (أي المشقوقة الآذان) والسوائب المسيّبة للآلهة فلا يتعرض لها أحد : هو حلال خاص برجالنا ، ومحرم على إناثنا ، فلبنها للذكور ومحرم على الإناث ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا تأكل منه الإناث ، وإذا ولدت أنثى تركت للنتاج فلم تذبح ، وإذا كان المولود ميتا اشترك فيه الذكور والإناث.

سيجزيهم جزاء وصفهم أي قولهم الكذب في ذلك ، كما قال تعالى :

وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [النحل ١٦/ ١١٦].

ثم ندد اللّه بوأد البنات وتحريم ما أحل اللّه فقال : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ ... أي خسر الذين قتلوا أولادهم ، فوأدوا البنات خسرانا مبينا ، وحرموا ما رزقهم اللّه من الطيبات.

إنهم قتلوا أولادهم سفها أي خفة مذمومة ، وحماقة مفضوحة ، خوفا من ضرر موهوم وهو الفقر ، وجهلا بما ينفع ويضر ويحسن ويقبح ، ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح ، وحرموا الطيبات افتراء وكذبا على اللّه ، ولقد ضلوا ضلالا مبينا لعدم توصلهم إلى مصالح الدنيا والدين ، ولم يكونوا مهتدين إلى شيء

ج ٨ ، ص : ٦٢

من الحق والصواب ، وفائدة قوله : وَما كانُوا مُهْتَدِينَ لبيان أنه لم يحصل منهم اهتداء قط.

أخرج البخاري عن ابن عباس قال : « إذا سرّك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً إلى قوله : وَما كانُوا مُهْتَدِينَ.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السّباء والفاقة ، ويغذو كلبه.

فقه الحياة أو الأحكام :

تلك شرائع العرب في جاهليتهم الجهلاء ، مصدرها وهم وسخف ، وقصور عقل ، وهوى فاسد ، روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ، ووفور أحلامكم ، عبدتم الحجر! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها.

هذا الذي أخبر اللّه سبحانه من سخافة العرب وجهلهم أمر أذهبه الإسلام ، وأبطله اللّه ببعثة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فبئس الحكم حكمهم.

قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما اللّه ، ذكروا عليه اسم الأوثان ، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم اللّه.

إنهم لم يعدلوا في قسمتهم الزروع والثمار والأنعام ، فما جعلوه للّه بزعمهم صرفوه لأوثانهم ، وما جعلوه لأوثانهم قدموه لها.

وقد ارتكبوا ظلما عظيما بوأد البنات : وهو دفن البنت حية مخافة السّباء والحاجة ، ولعدم ما حرمن من النصرة ، أي أنهم لا يستطيعون الغزو والقتال.

وشركاؤهم وهم الذين كانوا يخدمون الأوثان ، أو الغواة من الناس أو

ج ٨ ، ص : ٦٣

الشياطين هم الذين زينوا لهم قتل أولادهم ليهلكوهم ، وليخلطوا عليهم دينهم الذي ارتضى لهم ، أي يأمرونهم بالباطل ويشككونهم في دينهم. وكانوا على دين إسماعيل.

وقد صنفوا أموالهم وأقواتهم ثلاثة أصناف ، صنف لمعبوداتهم وأوثانهم ، وصنف حرّمت ظهورها ، وصنف لا يذكرون اسم اللّه عليها عند الذبح ، افتراء وكذبا على اللّه بما لم يشرعه ، وسيلقون جزاء افترائهم.

وخصصوا ألبان الأنعام وذكورها لذكورهم الرجال ، وحرموها على الإناث ، وجعلوا الميتة شركة بين الذكور والإناث ، وتركوا الأنثى للنتاج ، سيجزيهم اللّه وصفهم ، أي كذبهم وافتراءهم ، أي يعذبهم على ذلك.

وكان أشد أنواع عاداتهم وأحكامهم ظلما وجرما قتلهم الأولاد أي البنات وتحريم ما أحل اللّه ، بدليل أنه كرر اللّه توبيخهم عليه في هذه الآيات ، وحكم عليهم بسبعة أمور « ١ » :

١- الخسران : لأن الولد نعمة عظيمة من اللّه على العبد.

٢- السفاهة : وهي الخفة المذمومة لأن قتل الولد لخوف الفقر ، والفقر وإن كان ضررا ، إلا أن القتل أعظم منه ضررا ، والفقر موهوم والقتل ضرر حتمي.

٣- الجهل وعدم العلم : لأن هذه السفاهة تولدت من عدم العلم ، ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

٤- تحريم ما أحل اللّه لهم ، وهو من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات.

---

(١) تفسير الرازي : ١٣/ ٢٠٩

ج ٨ ، ص : ٦٤

٥- الافتراء على اللّه : ومن المعلوم أن الجرأة على اللّه والافتراء عليه أعظم الذنوب والكبائر.

٦- الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

٧- إنهم ما كانوا مهتدين ، وهو وصف لازم دائم لهم.

روي أن رجلا من أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان لا يزال مغتما بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال له : « مالك تكون محزونا ؟ » فقال : يا رسول اللّه ، إني أذنبت ذنبا في الجاهلية ، فأخاف ألا يغفره اللّه لي ، وإن أسلمت! فقال له : « أخبرني عن ذنبك » فقال : يا رسول اللّه ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت ، فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وأدركت ، وصارت من أجمل النساء ، فخطبوها فدخلتني الحميّة ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي ، فسرّت بذلك وزينتها بالثياب والحلّي ، وأخذت على المواثيق بألا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت في البئر ، ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول : أيش تريد أن تفعل بي! فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحميّة ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت لا تضيع أمانة أمّي فجعلت مرة أنظر في البئر ، ومرة أنظر إليها فأرحمها ، حتى غلبني الشيطان ، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا أبت ، قتلتني.

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت ، فبكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك « ١ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ٩٧

ج ٨ ، ص : ٦٥

الأدلة الواضحة على قدرة اللّه تعالى [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤١ الى ١٤٤]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

الإعراب :

وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ معطوف بالنصب على جَنَّاتٍ ، وجَنَّاتٍ : منصوب بأنشأ مُخْتَلِفاً حال مقدرة ، أي سيكون كذلك ، لأنها في أول ما تخرج لا أكل فيها ، وإنما توصف باختلاف الأكل وقت إطعامها.
حَمُولَةً وَفَرْشاً منصوب بالعطف على جَنَّاتٍ ، وتقديره : وأنشأ من من الأنعام حمولة وفرشا.
ج ٨ ، ص : ٦٦

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ منصوب من خمسة أوجه : إما بفعل مقدر ، أي وأنشأ ثمانية أزواج ، وإما بفعل تقديره : كلوا لحم ثمانية ، أو بدل من قوله : حَمُولَةً وَفَرْشاً أو بدل من مِمَّا في قوله : كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، أو بدل من ما في قوله : وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ أي حرموا ثمانية أزواج.
ومِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ بدل من ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ أي اثنتين من الضأن ، واثنتين من المعز ، واثنتين من الإبل ، واثنتين من البقر.
آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ منصوب بحرم ، والْأُنْثَيَيْنِ معطوف على آلذَّكَرَيْنِ. وأَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ : معطوف على الْأُنْثَيَيْنِ.
البلاغة :
حَمُولَةً وَفَرْشاً بينهما طباق ، لأن الأولى كبار ، والثانية صغار خُطُواتِ الشَّيْطانِ استعارة للتحذير من طاعة الشيطان.
المفردات اللغوية :
أَنْشَأَ خلق وأوجد بالتدريج جَنَّاتٍ بساتين مزدانة بالأشجار وسميت جنات لأنها تجن الأرض ، أي تسترها مَعْرُوشاتٍ مرفوعات على العرائش والدعائم لتمتد عليها الأغصان كالكروم ، يقال : سقف البيت : عرشه وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ متروكات على وجه الأرض لم تعرش أو مستغنية بسوقها وأغصانها عن التعريش مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أي يختلف ثمره وحبه في الهيئة والطعم مُتَشابِهاً في النظر وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ في الطعم وَآتُوا حَقَّهُ زكاته يوم حصاده أي قطافه من العشر أو نصفه وَلا تُسْرِفُوا بإعطاء كله ، فلا يبقى لعيالكم شيء الْمُسْرِفِينَ المتجاوزين ما حد لهم.
حَمُولَةً هي الكبار التي تطيق الحمل والعمل ، وتصلح لهما ، كالإبل والبقر الكبار وغيرها وَفَرْشاً هي الصغار التي لا تصلح للحمل والعمل ، كصغار الإبل وغيرها وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ أي طرائقه من التحريم والتحليل ، ومعنى الخطوة : المسافة بين القدمين عَدُوٌّ مُبِينٌ أي بيّن العداوة.

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ أصناف مِنَ الضَّأْنِ الضَّأْنِ الغنم ذوات الصوف ، والْمَعْزِ ذوات الأشعار اثْنَيْنِ زوجين اثنين : ذكر وأنثى آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ قل يا محمد لمن حرم ذكور

ج ٨ ، ص : ٦٧

الأنعام تارة وإناثها أخرى ، ونسب ذلك إلى اللّه : آلذكرين حرم اللّه عليكم أم حرم الأنثيين منهما والاستفهام للإنكار. أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ هي الأجنة. نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أخبروني عن كيفية تحريم ذلك ، إن كنتم صادقين فيه ، فمن أين جاء التحريم ؟ فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام ، وإن كان من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام ، وإن كان مما اشتملت عليه الأرحام فهي تشتمل على الصنفين : الذكر والأنثى ، فمن أين جاء التخصيص ؟

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ حضورا إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا التحريم ، فاعتمدتم ذلك ، لا ، بل أنتم كاذبون فيه فَمَنْ أَظْلَمُ أي لا أحد.

سبب النزول : نزول الآية (١٤٤(١) :

وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ : أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ، ثم تسارفوا ، فنزلت هذه الآية :

وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وروي عنه أنه قال : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئا سوى الزكاة ، ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فقال اللّه : وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

وأخرج الطبري أيضا عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس : جذ نخلا فقال : لا يأتين اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى ، وليست له ثمرة ، فقال اللّه : وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ « ١ » .

المناسبة :

عرف مما سبق أن مدار القرآن الكريم على إثبات أصول الدين وهي التوحيد والنبوة ، والبعث (المعاد) والقضاء والقدر. وقد أثبتها تعالى ، وندد بمن أنكر شيئا منها ، ولما أتم المطلوب منها ، عاد إلى المقصود الأصلي وهو إقامة الدلائل على تقرير توحيد اللّه ، بإثبات الألوهية والربوبية له ، وإفراده بالعبادة وحق

---

(١) تفسير الطبري : ٨/ ٤٥

ج ٨ ، ص : ٦٨

التشريع ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا خالق عداه ، ولا مشرّع في عبادة وتحليل وتحريم غيره ، فقال : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ.

وفي ثنايا إبراز مظاهر القدرة الإلهية امتن اللّه على المشركين وغيرهم بما يسره لهم من الرزق ، وندد بما افتروه على اللّه من الكذب من الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر.

التفسير والبيان :

يبين اللّه تعالى أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار ، والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها ، فجعلوا منها حراما وحلالا ، فقال :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ....

أي إن اللّه هو الذي أوجد البساتين والكروم المشجرة ، سواء منها المعروش أي الذي يحمل على العرش : وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم عليها ، وغير المعروش : وهو الملقى على وجه الأرض ، أو المستغني باستوائه على سوقه عن التعريش كبقية أشجار الفاكهة ، حتى بعض كروم العنب نفسها ، منها المعروش وغير المعروش. وخلق أيضا النخل والزرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل. وأفرد النخل بالذكر لكثرته عند العرب ، ولجماله ، ولما له من منافع كثيرة بكل أجزائه ، ولبقاء ورقه دون سقوط في مختلف الفصول ، حتى شبّه المؤمن في الحديث النبوي به.

(٦٦/٨)

و أنشأ سبحانه الزرع المختلف الأنواع والأكل : وهو الثمر المأكول ، والذي به حياة بني آدم ، وهو يشمل كل ما يزرع صيفا وشتاء ، وأفرده اللّه بالذكر كالنخل ، كما فيهما من الفضيلة.

وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقي من الأدنى في التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم ، فإن الحبوب هي الغذاء الأساسي.

ج ٨ ، ص : ٦٩

و أنشأ الزيتون والرمان متشابها في المنظر وغير متشابه في الطعم والأكل.

وكل هذه الأنواع يسقي بماء واحد وفي تربة واحدة ، ولكن كل نوع يختلف عن الآخر طعما ولونا ورائحة ووقت نضج يتناسب مع حاجة الإنسان في زمن البرد والحر والاعتدال ، مما يدل على قدرة الخالق عليها ، وإبداع المنشئ المكون لأصنافها ، وذلك هو اللّه الواحد الأحد المتفرد بإمداد الرزق وبالتشريع المناسب.

وقد أباحها اللّه الإنسان وامتن بإنعامه بها عليه ، فقال : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ أي كلوا من ثمرات ما أنبت اللّه إذا أثمر ولو لم ينضج ، وفائدة التقييد بقوله : إِذا أَثْمَرَ الترخيص للمالك في الأكل منه قبل

أداء حق اللّه تعالى وهو الزكاة.
ثم جاء التكليف الواجب فيها وهو الزكاة المفروضة ، فقال تعالى : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ أي وأخرجوا الزكاة المفروضة فيه يوم الحصاد : وهو وقت قطعه بعد تمام نضجه ، ويتبعه زمن الدوس ، لفصل الحب عن التبن ، ويدخل في الحصاد : جني العنب وصرم النخل وقطف الفاكهة. والحق المفروض : هو العشر فيما سقي بالمطر ، ونصف العشر فيما سقي بالنهر والبئر ونحوهما من الينابيع. ويعطى الحق المقرر شرعا للمستحقين وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.
وللعلماء رأيان في الحق الواجب في الثمر ، فقال ابن عباس : إنه الزكاة المفروضة ، وهي العشر أو نصفه.

و روي عن ابن عباس أيضا وهو قول سعيد بن جبير : إنه ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد. وكان ذلك واجبا من غير تعيين المقدار لأن هذه
ج ٨ ، ص : ٧٠
الآية مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فنسخ هذا الواجب بافتراض العشر ونصف العشر ، وهو الزكاة.
وقيل : إن الآية مدنية ، والحق أن المراد بها هو الزكاة المفروضة ، والمعنى :
واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.
ثم نبّه القرآن إلى منهجه المعروف وهو الوسطية والتوسط في الأمور والاعتدال في كل شيء ، فقال تعالى : وَلا تُسْرِفُوا ... أي كلوا مما رزقكم اللّه من غير إسراف في الأكل ، كما قال تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأعراف ٧/ ٣١] ولا تسرفوا أيضا في الصدقة ، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ، ففرق ثمرها كله ، ولم يدخل شيئا إلى منزله ، كما قال تعالى : وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً [الإسراء ١٧/ ٢٩].
وقال الزّهري : المعنى : لا تنفقوا في معصية اللّه ، وروي نحوه عن مجاهد فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم أنه قال : لو كان أبو قبيس- جبل بمكة- ذهبا ، فأنفقه رجل في طاعة اللّه تعالى ، لم يكن مسرفا ، ولو أنفق درهما في معصية اللّه تعالى كان مسرفا. ومن هذا الاتجاه قول بعض الحكماء : لا سرف في الخير ، ولا خير في السّرف.

و الحق : أن الإسراف في كل شيء خيرا كان أو غيره خطأ ، سواء في الأكل أو التّصدق لأن على الإنسان واجب الإنفاق على نفسه وعلى أهله وذويه وأولاده ، حتى إنه إن لم يكن له أولاد ، فادّخار شيء من دخله أمر محمود ، لإنفاقه في حوائج المستقبل ، وحتى لا يصبح عالة على الآخرين ، ولذا يحجر على السّفيه المبذر شرعا ، ولو كان الإنفاق في سبل الخير. جاء في صحيح البخاري تعليقا : « كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة » .

ج ٨ ، ص : ٧١

و من تمام فضل اللّه ونعمته ورحمته أنه أنشأ لكم أيها الناس من الأنعام (و هي الإبل والبقر والغنم) كبارا صالحة للحمل ، وصغارا كالفصلان ، والغنم والمعز ، هي كالفرش المفروش عليها ، تفرش على الأرض للذّبح ، ويتّخذ من شعرها ووبرها الفرش واللباس. وهذا مثل قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ. وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ [يس ٣٦/ ٧١- ٧٢] ، وقوله : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ [النحل ١٦/ ٦٦].

ثم كرر اللّه تعالى إباحة الأكل من الأنعام كإباحته من الزّرع ، فقال : كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي كلوا من هذه الأنعام ، كما تأكلون من الثمار والزّروع ، فكلها خلقها اللّه ، وجعلها رزقا لكم ، وانتفعوا بها بسائر أنواع الانتفاع المباحة شرعا.

و لا تتبعوا خطوات الشّيطان ، أي طريقه وأوامره ، كما اتّبعها المشركون الذين حرّموا ما رزقهم اللّه من الثّمار والزّروع والأنعام ، افتراء على اللّه ، وإيّاكم أن تحرّموا ما لم يحرّمه اللّه عليكم ، فذلك إغواء من الشّيطان ، واللّه قد أباحها لكم ، واللّه مصدر التّشريع والتّحريم والتّحليل لأنه هو الخالق المبدع لجميع الكائنات ، وهو المتصرّف فيها ، فليس لغيره أن يحرّم أو يحلّل برأيه.

إن الشّيطان لكم أيها الناس عدوّ مبين ، أي بيّن ظاهر العداوة ، لا يأمر إلا بالسّوء والفحشاء والمنكر ، كما قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ ، لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ [فاطر ٣٥/ ٦] ، وقال :

إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ [البقرة ٢/ ١٦٩].

والأنعام التي هي حمولة وفرش ثمانية أصناف ، فإنّ الحمولة : إما إبل وإما بقر ، والفرش : إما ضأن وإما معز ، وكلّ قسم من هذه الأربعة : إما ذكر وإما

ج ٨ ، ص : ٧٢

أنثى ، وقد أنشأ اللّه من الضّأن زوجين اثنين : الكبش والنّعجة ، ومن المعز زوجين اثنين : التّيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين : الجمل والنّاقة ، ومن البقر اثنين : الثّور والبقرة.

قال لمشركي العرب أيّها الرّسول إنكارا لصنعهم بتقسيم الأنعام إلى بحيرة وسائبة ووصيلة وحام وغير ذلك مما ابتدعوا فيها : أحرم اللّه الذّكرين من الكبش والتّيس ؟ أم حرّم الأنثيين من النّعجة والعنز ؟ أم حرّم ما حملت إناث النّوعين ؟

يعني هل يشتمل الرّحم إلا على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضا وتحلّون بعضا ؟

(٧٠/٨)

أخبروني عن يقين ، كيف حرّم اللّه عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ؟ أخبروني ببيّنة تدلّ على هذا التّحريم من كتاب اللّه ، أو خبر نبي من الأنبياء إن كنتم صادقين في ادّعاء التّحريم.

والحقيقة أنه لا منطق في تقسيم العرب في الجاهلية قبل الإسلام لأنواع الأنعام ، فمنها الحرام ومنها الحلال ، فإن كان المحرّم منها الذّكر ، وجب أن يكون كلّ ذكورها حراما ، وإن كان المحرّم منها الأنثى ، وجب أن يكون كلّ إناثها حراما ، وإن كان المحرّم منها ما حملته الأجنّة في بطون الإناث ، وهي تشتمل على الذّكر والأنثى ، وجب تحريم الأولاد كلّها.

واللّه تعالى ما حرّم عليهم شيئا من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون في دعوى التّحريم ، ولا أحد في الدّنيا أظلم ممن يفتري الكذب على اللّه ، فيدّعي أنه حرّم شيئا ولم يحرّمه ، ونسب إليه تحريم ما لم يحرم ، من أجل إضلال النّاس ، وهو عمرو بن لحيّ بن قمعة الذي بحر البحائر ، وسيّب السّوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، وغيّر دين الأنبياء ، إن اللّه لا يهدي إلى الحقّ والخير القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، فشرعوا ما لم يشرع اللّه تعالى.

ثمّ شدّد اللّه تعالى الإنكار عليهم والتّهكم بهم فقال : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ ..

ج ٨ ، ص : ٧٣

أي هل كنتم حضورا شاهدتم ربّكم ، فوصّاكم بهذا التّحريم ؟ وأمركم فيما ابتدعتموه وافتريتموه من تحريم ما لم يحرّمه اللّه ، وإنما هو محض الافتراء والكذب على اللّه ، ولا أحد أظلم ممن افترى على اللّه الكذب ، بقصد الإضلال عن جهل تام ، واللّه تعالى ، جزاء لهذا الظلم ، لا يوفق للرّشاد من افترى عليه الكذب ، ولا يهديه إلى الحقّ والعدل ، بل يحجبه عن إدراك الصواب وما فيه المصلحة.

فقه الحياة أو الأحكام :

اللّه تعالى خالق الكائنات هو مصدر شيئين أساسيين في هذه الحياة : فهو مصدر بقاء الناس بإمدادهم بالنّعم الكثيرة الوفيرة ، ومصدر التّشريع الصالح لكل زمان ومكان ، إبقاء على النظام الأصلح ، وحفاظا على مصالح البشر ، أفرادا وجماعات.

والمقصود من ذلك تقرير التّوحيد ، وإثبات الألوهيّة والرّبوبيّة للّه عزّ وجلّ ، فإن في آية : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ .. ثلاثة أدلّة :

أحدها- أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر.

الثاني- المنّة من اللّه سبحانه علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذ خلقه ألا يكون جميل المنظر طيّب الطّعم ، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك في ابتداء الخلق لأنه لا يجب عليه شي ء.

الثالث- إظهار القدرة الإلهيّة في أشياء كثيرة ، منها صعود الماء (النسغ) في الشّجر من الأدنى إلى الأعلى ، مع أن من شأن الماء الانحدار والهبوط ، ومنها تعدّد أنواع الثّمار والأشجار والزّروع ، وتنوّع أصنافها وألوانها وطعومها وأشكالها.

ودلّت آية وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ على وجوب الزّكاة المفروضة في الزّروع والثّمار : العشر ونصف العشر.

وقال جماعة : هو حقّ في المال سوى الزّكاة ، أمر اللّه به ندبا.

ج ٨ ، ص : ٧٤

و قد تمسّك أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم

الحديث النّبوي الذي رواه البخاري وأبو داود عن ابن عمر : « فيما سقت السّماء العشر ، وفيما سقي بنضح « ١ » أو دالية « ٢ » نصف العشر »

في إيجاب الزّكاة في كلّ ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره ، إلا الحطب والحشيش والقضب (البرسيم) والتين ، والسّعف « ٣ » وقصب الذريرة « ٤ » ، وقصب السّكر.

ورأى الجمهور أن الحديث لا يدلّ على ذلك ، وإنّما المقصود منه بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر.

قال ابن عبد البر : لا اختلاف بين العلماء فيما علمت أنّ الزّكاة واجبة في الحنطة والشعير والتّمر والزّبيب.

فيكون للعلماء رأيان في زكاة ما تخرجه الأرض :

الرّأي الأول لأبي حنيفة : تجب الزّكاة في قليل ما أخرجته الأرض إلا ما استثني سابقا ، ودليله ظاهر الآية والحديث المتقدّم.

الرّأي الثاني للجمهور ومنهم صاحبا أبي حنيفة : لا تجب زكاة الزّروع والثّمار إلا فيما يقبل الاقتيات والادّخار ، وعند الحنابلة : فيما ييبس ويبقى ويكال ، ولم يوجب الشّافعي الزّكاة في الثّمار غير العنب والتّمر

لأن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم أخذ الزّكاة منهما

، و

لا زكاة في الخضروات والفواكه لأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم عفا عنها وقال فيما رواه التّرمذي عن معاذ في الخضروات : « ليس فيها شي ء »

، ولا بدّ من بلوغ

---

(١) النّضح : سقي الزّرع وغيره بالسّانية : وهي النّاقة التي يستقى عليها.

(٢) الدّالية : النّاعورة يديرها الماء ، والأرض التي تسقى بدلو أو بناعورة.

(٣) السّعف : جريد النّخل ، واحدها سعفة.

(٤) الذريرة : قصب يجاء به من الهند.

ج ٨ ، ص : ٧٥

النّاتج خمسة أوسق (٦٥٣ كغ)

لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه مسلم عن جابر : « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة » .

وإنما لا يشترط مضي الحول (العام الزّكوي) في زكاة النّاتج من الأرض لأنه يكمل نماؤه باستحصاده ، لا ببقائه ، واشترط الحول في غيره من الزّكوات لأنه مظنّة لكمال النّماء في سائر الأموال.

والصّحيح وهو رأي أبي حنيفة وجوب الزّكاة وقت الجذاذ ، لقوله تعالى :

يَوْمَ حَصادِهِ والمشهور من مذهب المالكية يوم الطّيب لأن ما قبل الطّيب يكون علفا لا قوتا ولا طعاما ، فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم اللّه به ، وجب الحق الذي أمر اللّه به.

و المعتمد عند الشافعية والحنابلة : وجوب الزّكاة في الثّمار : ببدو صلاح الثّمر لأنه حينئذ ثمرة كاملة ، وهو قبل ذلك حصرم وبلح ، وفي الحبوب : ببدو اشتداد الحبّ لأنه كما قال المالكية حينئذ طعام ، وهو قبل ذلك بقل.

لكن خرص الثّمار أي تخمينها وتقديرها يكون بعد الطيب

لحديث عائشة فيما أخرجه الدّار قطني قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يبعث ابن رواحة إلى اليهود ، فيخرص عليهم النّخل حين تطيب أوّل الثمرة ، قبل أن يؤكل منها ، ثم يخيّر يهودا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه.

وإنما كان أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالخرص لكي تحصى الزّكاة ، قبل أن تؤكل الثّمار وتفرّق.

ودلّت آية وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً على مقدار نعمة اللّه بتسخير الأنعام للإنسان للرّكوب والحمل والعمل ، وللاستفادة من لحومها وأوبارها وأصوافها وأشعارها. والأنعام كما قال أحمد بن يحيى وهو الأصحّ : كلّ ما أحلّه اللّه عزّ وجلّ

ج ٨ ، ص : ٧٦

من الحيوان لقوله تعالى : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ [المائدة ٥/ ١].

ومن أجل بقاء نوع الحيوان جعل فيه كالإنسان صنفي الذّكر والأنثى ، للتّوالد والتّكاثر والتّكامل ، لذا كان تحريم الذّكور دون الإناث أو بالعكس معارضا لحكمة الشّرع.

وآية ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ .. احتجاج على المشركين فيما حرّموه اعتباطا من البحائر والسّوائب والوصائل والحام وغيرها ، كما قالوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا [الأنعام ٦/ ١٣٩].

وذلك دليل على إثبات المناظرة في العلم لأن اللّه تعالى أمر نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بأن يناظرهم ، ويبيّن لهم فساد قولهم.

وفي هذه الآية أيضا إثبات القول بالنظر والقياس.

و فيها دليل على أنّ القياس إذا ورد به النّص بطل القول به ، ويروى : « إذا ورد عليه النّقض » لأن اللّه تعالى أمرهم بالمقايسة الصّحيحة ، وأمرهم بأن تكون علّة القياس مطّردة في جميع الأشباه والنّظائر.

وهذا مستفاد من معنى الآية : قل لهم : إن كان اللّه حرّم الذّكور فكلّ ذكر حرام ، وإن كان حرّم الإناث فكلّ أنثى حرام ، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعني من الضّأن والمعز ، فكلّ مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى ، لأن كلها مولود ، فكلّها إذن حرام ، لوجود العلّة فيها ، فبيّن تعالى بهذه

المناظرة أو المناقشة ورود الانتقاض عليهم وفساد قولهم ، لأن ما فعلوه من ذلك افتراء على اللّه ، فمن أين هذا التحريم المزعوم ؟ ولا علم عندهم لأنهم لا يقرءون الكتب ، وهل شاهدتم اللّه قد حرّم هذا. ولما لزمتهم الحجّة أخذوا في الافتراء ، فقالوا : كذا أمر اللّه ، فردّ اللّه

ج ٨ ، ص : ٧٧

عليهم : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وهو دليل على أنهم كذبوا ، إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل.

المطعوم المحرّم على المسلمين والمحرّم على اليهود [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٥ الى ١٤٧]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

الإعراب :

طاعِمٍ اسم فاعل من طعم يطعم ، وأكثر ما يجيء اسم الفاعل من فعل يفعل إذا كان لازما على فعل ، ويجيء على فاعل إذا كان متعدّيا كعلم يعلم فهو عالم. ويَطْعَمُهُ مضارع طعم. مَيْتَةً خبر يَكُونَ ، واسمها ضمير مستتر ، وتقديره : إلا أن يكون المأكول ميتة ، ومن قرأ بالرّفع جعل يَكُونَ تامّة ، ومَيْتَةً فاعل مرفوع بها ، ولا تفتقر إلى خبر.

أَوِ الْحَوايا إما مرفوع عطفا على قوله : ظُهُورُهُما ، وإما منصوب عطفا على شُحُومَهُما في قوله : إِلَّا ما حَمَلَتْ. وشُحُومَهُما في موضع نصب على الاستثناء من الشحوم ، وهو استثناء من موجب ، أو منصوب عطفا على قوله : شُحُومَهُما وتقديره : حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما.

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ ذلِكَ : في موضع نصب ، لأنه مفعول ثان لجزيناهم ، وتقديره : جزيناهم ذلك ببغيهم.

ج ٨ ، ص : ٧٨

البلاغة :

غَفُورٌ رَحِيمٌ من صيغ المبالغة ، أي كثير المغفرة والرّحمة.

رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ فرّق بين الجملتين ، فجعل الأولى جملة اسميّة لأنها أبلغ من الفعليّة ، ليناسب وصف الرّحمة ، وجعل الثانية فعليّة : وَلا يُرَدُّ لتكون أقل في الإخبار عن وصف العقاب.

المفردات اللغوية :

مُحَرَّماً شيئا محظورا أو ممنوعا. طاعِمٍ يَطْعَمُهُ أكل يأكله. مَيْتَةً بهيمة ماتت حتف أنفها. أَوْ دَماً مَسْفُوحاً سائلا يجري ويتدفّق من المذبوح ، بخلاف غيره كالكبد والطّحال. رِجْسٌ قذر قبيح حرام نجس. أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ذبح على غير اسم اللّه ، للأصنام ، والإهلال : رفع الصّوت. فَمَنِ اضْطُرَّ أي دعته ضرورة إلى تناول شيء منه كجوع شديد أو عطش شديد أو غصص. غَيْرَ باغٍ أي غير قاصد له. وَلا عادٍ أي متجاوز قدر الضرورة.

الَّذِينَ هادُوا اليهود ، لقولهم : إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ [الأعراف ٧/ ١٥٦] أي رجعنا وتبنا. كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وهو ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنّعام ، والظفر للإنسان وغيره مما لا يصيد ، والمخلب : لما يصيد.

شُحُومَهُما الشّحم : ما يكون على الأمعاء والكرش والكلى من الدّهن. إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أي علقت بها. أَوِ الْحَوايا أي حملته الأمعاء ، جمع حاوية وحاوياء.

أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ منه أي من الشّحم ، وهو شحم الألية ، فإنه أحل لهم. ذلِكَ التحريم. جَزَيْناهُمْ به. بِبَغْيِهِمْ أي بسبب ظلمهم. وَإِنَّا لَصادِقُونَ في أخبارنا ومواعيدنا. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فيما جئت به فَقُلْ لهم : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، وفيه تلطّف بدعوتهم إلى الإيمان. وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ أي عذابه إذا جاء.

سبب النزول : نزول الآية (١٤٥) :

قُلْ : لا أَجِدُ .. : أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ، ويستحلّون أشياء ، فنزلت : قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية.

ج ٨ ، ص : ٧٩

المناسبة :

ردّ اللّه تعالى في الآيات السابقة على المشركين الذين كانوا يحرّمون ويحلّلون من الأنعام بحسب أهوائهم ، وأبان أن التّحريم والتّحليل لا يثبت إلا بالوحي ، ثم أوضح هنا أنّ المطعومات المحرّمات

على الآكلين هي أربعة فقط : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير فإنه رجس ، والفسق : وهو الذي أهل به لغير اللّه.

التفسير والبيان :

بيّن اللّه تعالى في هذه السّورة المكيّة أنه لا محرّم إلا هذه الأربعة ، وأتى بها بصيغة الحصر ، مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة ، وأكّد ذلك في سورة النّحل فقال : إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النّحل ١٦/ ١١٥].

وكلمة إِنَّما تفيد الحصر ، فدلّت آيتان مكيّتان على حصر المحرّمات في هذه الأربعة ، وكذلك دلّت آية مدنيّة في سورة البقرة أنه لا محرّم إلا هذه الأربعة ، فقال : إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ [البقرة ٢/ ١٧٣] ، وكلمة إِنَّما التي تفيد الحصر مطابقة لقوله : قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً.

(٧٨/٨)

ثم ذكر اللّه تعالى في سورة المائدة قوله : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ [المائدة ٥/ ١] ، وأجمع المفسّرون على أن المراد بقوله إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ هو ما ذكره بعد هذه الآية بقليل ، وهو قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَما أَكَلَ السَّبُعُ ، إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وكل هذه الأشياء من أنواع الميتة ، وأنه تعالى إنما أعادها بالذّكر لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتّحليل ، فثبت أن الشريعة من أولها إلى آخرها كانت مستقرة على هذا الحكم وعلى هذا الحصر.

ج ٨ ، ص : ٨٠

و القصد هو الرّد على مشركي العرب لأنه لما ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرّمات والمحللات إلا بالوحي ، وثبت أنه لا وحي من اللّه تعالى إلا إلى محمد عليه الصّلاة والسّلام ، ولم ينزل في الموضوع غير هذه الآية ونظائرها ، كان هذا مبالغة في بيان انحصار التّحريم في هذه الأربعة فقط.

المعنى : يقول اللّه تعالى آمرا رسوله : قل يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم اللّه ، افتراء على اللّه : لا أجد محرّما على آكل يأكله سوى هذه الأمور الأربعة وهي ما يلي :

الميتة :

وهي التي ماتت حتف أنفها بغير ذبح شرعي ، وذلك يشمل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ونحوها. وتحريمها لمضرّتها ، وانحباس الدم فيها ، مما يؤدي إلى تسممها ، وتفسّخ لحمها

، وإيذاء من تناول شيئا منها.

والدّم المسفوح :

أي الدّم المهراق السائل الذي يجري ويتدفق من عروق المذبوح. وهذا يدلّ على أنّ المحرّم من الدّم ما كان سائلا ، قال ابن عباس : يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء ، وما يخرج من الأوداج عند الذّبح ، فلا يدخل فيه الدّم الجامد كالكبد والطّحال لجمودهما ، ولا الدّم المختلط باللحم في المذبح ، ولا ما يبقى في العروق من أجزاء الدّم ، فإن ذلك كله ليس بسائل. وقال عكرمة في قوله : أَوْ دَماً مَسْفُوحاً : لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود. و

جاء في الحديث الذي يرويه البيهقي في سننه والحاكم عن ابن عمر : « أحلّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد– أو السمك والجراد– وأما الدّمان : فالكبد والطحال » .

وسبب تحريم الدّم المسفوح : اشتماله على أنواع الجراثيم والميكروبات لأن الدّم بيئة صالحة لتفريخ الميكروبات ومباءة للجراثيم.

ولحم الخنزير :

ومثله شحمه وسائر أجزاء جسده ، ومثله أيضا الكلب ،

ج ٨ ، ص : ٨١

فكلّ ذلك كالميتة والدّم رجس وقذر ، تعافه النفوس الطيبة والطباع السليمة ، وهو ضار بالبدن.

واستدلّ الشافعية بقوله تعالى : فَإِنَّهُ رِجْسٌ على نجاسة الخنزير ، بناء على عود الضمير إليه لأنه أقرب مذكور.

والفسق :

وهو ما أهل لغير اللّه أي ما ذبح لغير اللّه ولم يذكر عليه اسم اللّه ، أي ما يتقرب به إلى غير اللّه تعبّدا ، ويذكر اسمه عليه عند ذبحه ، وهو المذبوح على النّصب وعند الأوثان ، أو بعد المقاسمة عليه بالأزلام أي القمار.

ثم استثنى اللّه تعالى حال الضرورة ، فقال : فَمَنِ اضْطُرَّ .. أي فمن كان في حال ضرورة الجوع الملجئة بسبب فقدان الحلال ، مما دعاه إلى أكل شيء من هذه المحرّمات ، حال كونه غير قاصد له ، ولا متجاوز حدّ الضرورة ، فإن اللّه يغفر له ويرحمه حفاظا على حقّ الحياة ، فلا يؤاخذه بأكل ما يسدّ به الرّمق ، ويدفع عنه ضرر الهلاك.

و الخلاصة : إنّ الغرض من هذه الآية الكريمة الرّد على المشركين الذين ابتدعوا تحريم المحرّمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر اللّه رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه اللّه إليه أن ذلك محرّم ، وإنّما حرّم أربعة أشياء هي : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير اللّه به ، لما فيها من الضّرر المادي أو المعنوي الذي يمسّ العقيدة وعبادة اللّه ، ولأن لحومها خبيثة ، ومن مهام هذا النّبي إباحة الطّيبات وتحريم الخبائث : وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف ٧/ ١٥٧].

لكن الحصر المستفاد من هذه الآية وأمثالها أمر نسبي لا مطلق ، وهذه الآية مخصوصة بالآيات والأخبار الدّالّة على تحريم ما حرّم من غير الأربعة ، مثل قوله

تعالى : وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ فهو يقتضي تحريم كلّ الخبائث المستقذرة كالنّجاسات وهو أم الأرض ، ومثل

ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن جابر رضي اللّه عنه قال : « نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية »

، و

ما روياه عن أبي ثعلبة الخشني : « أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم نهى عن أكل كل ذي ناب من السّباع »

، وفي رواية ابن عباس : « و أكل كل ذي مخلب من الطّير » ، و

ما روياه عن عائشة وحفصة وابن عمر من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « خمس فواسق من الدّواب كلّهن فاسق ، يقتلن في الحلّ والحرام : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأر ، والكلب العقور » ، ففي الأمر بقتلهنّ دلالة على تحريم أكلهنّ ، لأن القتل إنما يكون بغير ذبح شرعي ، فثبت أنها غير مأكولة ، ولأن ما يؤكل لا ينهى عن قتله.

وخصّص الشافعية الآية أيضا بما

روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « و استخبثته العرب ، فهو حرام »

، ومضمون رأيهم أن الحيوان الذي لم يرد فيه نص بخصوصه بالتّحليل أو التّحريم ، ولم يؤمر بقتله ،

ولم ينه عن قتله ، فإن استطابته العرب ، فهو حلال ، وإن استخبثته العرب فهو حرام. ودليلهم قوله تعالى : وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ [الأعراف ٧/ ١٥٧] ، وقوله تعالى : يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ [المائدة ٥/ ٤] ، قالوا :

وليس المراد بالطّيب هنا : الحلال إذ لا معنى له ، لأن تقديره : أحلّ لكم الحلال ، وإنما المراد بالطّيّبات : ما يستطيبه العرب. والمراد بالخبائث :

ما يستخبثونه ، ويراعى في ذلك عاداتهم العامة في الاستيطاب والاستخباث ، ولا ينظر إلى الأعراف الخاصة لأنه يؤدي إلى اختلاف الأحكام في الحلال والحرام.

واحتجّ كثير من السّلف بظاهر الآية ، فأباحوا ما عدا المذكور فيها ، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنه سئل عن أكل القنفذ ، فقرأ الآية.

ج ٨ ، ص : ٨٣

و أخرج ابن أبي حاتم وغيره بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن أكل كل ذي ناب من السّباع ومخلب من الطّير ، قالت : قُلْ : لا أَجِدُ ... إلخ.

وروي عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدّواب شيء حرام إلا ما حرّم اللّه تعالى في كتابه : قُلْ : لا أَجِدُ الآية. واستدلّ بقوله سبحانه : عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ على أنه إنما حرّم من الميتة ما يأتي فيه الأكل منها ، فلم يتناول الجلد المدبوغ والشعر ونحوه ، وقد فهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم من النّظم الكريم ذلك ، أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، و

في رواية : لميمونة ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لو أخذتم مسكها- جلدها- » ، فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنما قال اللّه تعالى : قُلْ : لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً وإنّكم لا تطعمونه ، إن تدبغوه تنتفعوا به » .

ثم أخبر اللّه سبحانه عما حرّمه على بني إسرائيل خاصة ، عقوبة لهم ، على سبيل المقارنة بما شرعه القرآن للمسلمين ، فقال : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا .. أي وحرّمنا على اليهود دون غيرهم كل ذي ظفر : وهو كلّ ما ليس منفرج الأصابع ، أو مشقوق الأصابع من البهائم والطير ، كالإبل والنّعام والإوزّ والبط ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير.

وحرّمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرهما شحومهما الزائدة التي تنتزع بسهولة ، لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم ، وهي ما على الكرش والكلى فقط ، أما شحوم الظّهر والذّيل فحلال لقوله تعالى : إِلَّا ما

حَمَلَتْ ظُهُورُهُما وإلا الْحَوايا : ما حملته الأنعام ، وإلا مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، فكل هذه الشحوم أحللناه لهم.

ج ٨ ، ص : ٨٤

ذلك التّحريم الذي حرّمناه عليهم بسبب بغيهم ، وعقوبة لهم ، لقتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وصدّهم عن سبيل اللّه ، وأخذهم الرّبا ، واستحلالهم أموال النّاس بالباطل.

وفي ذكر هذا تكذيب لليهود في قولهم : إن اللّه لم يحرّم علينا شيئا ، وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه.

(٨٣/٨)

و لما كان هذا إخبارا عمّا حكم اللّه به على اليهود في الماضي ، ولم يكن لأحد به علم ، وردّا على قولهم : لم يحرّم علينا شيء ، قال تعالى : وَإِنَّا لَصادِقُونَ قال الطبّري : أي لصادقون في إخبارنا بهذه الأخبار من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا ، من أن إسرائيل هو الذي حرّمه على نفسه ، ومن أصدق من اللّه حديثا ، وقال ابن كثير : أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به.

فإن كذّبوك يا محمد بعد هذا أي اليهود ، كما قال مجاهد والسّدي ، أو مشركو مكة ، والصواب : فإن كذّبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود وأشباههم في ادّعاء النّبوة والرّسالة ، وفي تبليغ الأحكام فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة اللّه الواسعة واتّباع رسوله ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ أي لا يردّ عذابه عن كلّ مجرم ، وهذا ترهيب لهم من مخالفتهم الرّسول خاتم النّبيين صلّى اللّه عليه وسلّم.

وكثيرا ما يقرن اللّه تعالى بين التّرغيب والتّرهيب في القرآن ، كما قال تعالى في آخر هذه السّورة إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت آية : قُلْ : لا أَجِدُ .. على تحريم أربعة أشياء ، هي : الميتة ، والدّم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والمذبوح للأصنام تعبّدا ، وبما أن الآية مكية فمعناها وما يستفاد منها مقصور على هذه الأربعة ، أي قُلْ يا محمد ،

ج ٨ ، ص : ٨٥

لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ إلا هذه الأشياء ، لا ما تحرّمونه بشهوتكم ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، كما قال القرطبي ، ثم نزلت سورة [المائدة] بالمدينة. وزيد في المحرّمات من أصناف الميتة المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة ونحوها ، كما زيد تحريم الخمر.

و حرّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة أكل كل ذي ناب من السّباع وكلّ ذي مخلب من الطّير.

وأكثر أهل العلم أن كل محرّم حرّمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو جاء في القرآن مضموما إلى هذه المحرّمات ، فهو زيادة حكم من اللّه عزّ وجلّ على لسان نبيّه عليه الصّلاة والسّلام. مثل زواج المرأة على عمّتها وعلى خالتها ، مع قوله تعالى :

وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ [النساء ٤/ ٢٤] ، وحكمه عليه الصّلاة والسّلام باليمين مع الشاهد مع قوله تعالى : فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ [البقرة ٢/ ٢٨٢]. وآية : قُلْ : لا أَجِدُ ... هي جواب لمن سأل عن شيء بعينه ، فوقع الجواب مخصوصا.

وقال مالك : لا حرام بيّن إلا ما ذكر في هذه الآية ، ولهذا قال بعض المالكية : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح.

ودلّت الآية أيضا على حكم استثنائي وهو حال الضرورة ، فعند الاضطرار يزول تحريم المحرمات ، لدفع خطر الهلاك ، وحفاظا على حقّ الحياة.

وأما آية : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا فتدلّ على أنّ اللّه تعالى حرّم على اليهود عقوبة لهم أشياء أخرى سوى هذه الأربعة المذكورة في الآية السابقة ، وهي نوعان ، ولم يحرمهما على المسلمين.

النّوع الأوّل- كل ذي ظفر غير مشقوق الأصابع ، كالإبل والنّعام والإوزّ والبط.

ج ٨ ، ص : ٨٦

و النّوع الثاني- شحوم البقر والغنم : وهي الشحوم الرقيقة التي تكون على الكرش والكلى. واستثنى اللّه تعالى من الشحوم ثلاثة أنواع لم يحرمها عليهم وهي : ما علق بالظهر ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما ، والْحَوايا : قال الواحدي : وهي المباعر والمصارين ، والمختلط بالعظم مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ :

و هو شحم الأليّة في قول جميع المفسّرين. قال ابن جريج : حرّم عليهم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم ، وأحلّ لهم شحم الجنب والأليّة لأنه على العصعص.

وقد احتجّ الشافعي بهذه الآية في أن من حلف ألّا يأكل الشحم ، حنث بأكل شحم الظّهور لاستثناء اللّه عزّ وجلّ ما على ظهورهما من جملة الشّحم.

والصحيح مذهب عامة العلماء : أن اليهود لو ذبحوا أنعامهم ، فأكلوا ما أحلّ اللّه لهم في التّوراة ،

وتركوا ما حرّم عليهم ، لم يكن عليهم بأس فإنها محلّلة لنا لأن اللّه عزّ وجلّ رفع ذلك التّحريم بالإسلام ، واعتقادهم فيه لا يؤثر لأنه اعتقاد فاسد ، ويؤيده

أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أقرّ عبد اللّه بن مغفّل على الأكل من جراب شحم أصابه يوم خيبر.

وقيل في رواية عن مالك : هي محرّمة لأنهم يدينون بتحريمها ، ولا يقصدونها عند الذّكاة (الذّبح الشّرعي) فكانت محرّمة كالدّم. وهو مذهب كبراء أصحاب مالك.

نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى اللّه تعالى وإقامة الحجة عليهم [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

ج ٨ ، ص : ٨٧

الإعراب :

هَلُمَّ اسم فعل أمر بمعنى هاتوا ، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين ، وبنو تميم تؤنث وتجمع.

البلاغة :

وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وضع الظاهر موضع المضمر بأن يقال : ولا تتبع أهواءهم ، للدلالة على أن من كذب بآيات اللّه وعدل به غيره ، فهو متبع للهوى لا غير لأنه لو اتبع الدليل ، لم يكن إلا مصدّقا بالآيات ، موحدا للّه تعالى.

المفردات اللغوية :

ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ أي أن إشراكنا وتحريمنا بمشيئة اللّه ، فهو راض به. كَذلِكَ كما كذب هؤلاء كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رسلهم. بَأْسَنا عذابنا. هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بأن اللّه راض بذلك.

فَتُخْرِجُوهُ لَنا أي لا علم عندكم. إِنْ ما.

تَتَّبِعُونَ في ذلك. تَخْرُصُونَ تكذبون ، وأصل معنى الخرص : الحزر والتخمين.

الْحُجَّةُ الدليل المبين الحق. الْبالِغَةُ التامة.

هَلُمَّ أحضروا. يَعْدِلُونَ يتخذون له عدلا مساويا ، والمراد : يشركون.

المناسبة :

لما حكى اللّه تعالى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين اللّه بغير حجة ولا دليل ، حكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من أنواع الكفر أو الشرك ،

ج ٨ ، ص : ٨٨

فيقولون : لو شاء اللّه منا ألا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر ، وحيث لم يمنعنا عنه ، ثبت أنه مريد لذلك ، فإذا أراد اللّه ذلك منا ، امتنع منا تركه ، فكنا معذورين فيه.

وهذا حكاية عن لسان حالهم أو عما سيقولونه لأن اللّه محيط علمه بكل شيء سيقولونه ، فهو من إخباره بالمغيبات قبل وقوعها.

التفسير والبيان :

هذه شبهة تشبّث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن اللّه مطلع على ما هم فيه من الشرك ، والتحريم لما حرموه ، فأخبر بما سوف يقولونه.

إنهم يقولون : إن شركهم ، وشرك آبائهم ، وتحريمهم ما أحل اللّه من الحرث والأنعام ، هو بمشيئة اللّه وإرادته ، ولو لا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كمذهب الجبرية بعينه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [النحل ١٦/ ٣٥] وقوله عز وجل : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [الزخرف ٤٣/ ٢٠].

فردّ اللّه عليهم شبهتهم بقوله : كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ ... أي مثل ذلك التكذيب الذي صدر من مشركي العرب وأهل مكة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما جاء به من إثبات الوحدانية والربوبية للّه تعالى ، وقصر التشريع والتحليل والتحريم عليه ، وإبطال الشرك ، كذب الذين من قبلهم رسلهم تكذيبا غير مبني على أساس من العلم والعقل.

وذلك لأنهم كذبوا ما جاءت به الرسل ، ولم ينظروا فيها ، وإنما أعرضوا

ج ٨ ، ص : ٨٩

عنها ، ولأن قولهم لو كان صحيحا لما عاقبهم اللّه تعالى على كفرهم لأن اللّه عادل ، فلو كانت أعمالهم المكفّرة صادرة عنهم بإجبار أو إكراه وقهر ، لما استحقوا العقاب عليها ، ولما كرر تعالى قوله في القرآن مثلا : أخذناهم بذنوبهم ، وأهلكناهم بظلمهم وكفرهم.

وهو معنى قوله : حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا أي حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ، مما يدل على أن كفرهم وتحليلهم وتحريمهم كان باختيارهم وإرادتهم ، وإن كان اللّه تعالى قادرا على تغيير موقفهم ، بأن يلهمهم الإيمان ، ويحول بينهم وبين الكفر ، وأن ذلك الموقف هو أيضا بإرادة اللّه لأنه لا يقع شيء في الكون بدون مشيئة اللّه وإرادته.

(٨٨/٨)

ثم أمر اللّه تعالى رسوله أن يطالبهم بالبرهان على ما زعموا فقال : قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ... أي هل لديكم أمر معلوم وبرهان واضح يصح الاحتجاج به فيما قلتم ، فتخرجوه لنا أي تظهرونه وتبينونه لنا لنفهمه ؟ وهذا الاستفهام تهكم وإظهار بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ، وتوبيخ لهم على ما يزعمون.

وحقيقة حالهم هي ما قال تعالى : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ... أي لا حجة ولا برهان على ما تقولون ، وما تتبعون إلا الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد ، وما أنتم إلا تكذبون على اللّه فيما ادعيتموه.

ثم أثبت اللّه تعالى لذاته الإتيان بالدليل الساطع المبين للدين الحق فقال :

قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ .. أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الجاهلين بعد إفلاسهم وعجزهم عن الإتيان بدليل مقنع : للّه تعالى الحجة التامة الكاملة على ما أراد من إثبات الحقائق وإبطال الباطل ، وتقرير أصول الاعتقاد ، وتشريع الأحكام الصائبة ، وإلغاء ما تذهبون إليه بالآيات الكثيرة والمعجزات التي أيد بها الرسل.

ج ٨ ، ص : ٩٠

و لو شاء تعالى أن يهديكم وغيركم وجميع الناس بغير التعليم والإرشاد والنظر والاستدلال ، لفعل ، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة ، فلا يكون لكم دور في الاختيار ، والإرادة ، والتمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ويكون موقف مخالفيكم أيضا بمشيئة اللّه ، فلا يصح أن تعادوهم ، وعليكم أن توافقوهم ولا تخالفوهم لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

ونظير الآية قوله تعالى : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى [الأنعام ٦/ ٣٥] وقوله عز وجل : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [يونس ١٠/ ٩٩].

(٨٩/٨)

ثم أمر اللّه رسوله بمطالبة المشركين بأن يأتوا بشهود يشهدون على صحة ما يدعونه من تحريم اللّه هذه المحرمات ، فقال : قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ ... أي أحضروا شهداءكم الذين يشهدون لكم عن عيان أن اللّه حرم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه وكذبتم وافتريتم على اللّه فيه.

فإن شهدوا على سبيل الفرض ، فلا تصدقهم ، ولا تسلم لهم ، ولا تقبل لهم شهادة إذ لو سلم لهم ، فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحدا منهم ، لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ، فهم شهود زور كاذبون. ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيات اللّه الدالة على وحدانيته وربوبيته ومنها حقه في التشريع والتحليل والتحريم ، ولا تتبع هؤلاء الجاهلين المتبعين لأهوائهم الذين لا يوقنون بمجيء الآخرة ، حتى يحملهم الإيمان على سماع الدليل إذا ذكر لهم ، وهم يشركون بربهم ، ويجعلون له عديلا يشاركه في جلب الخير ودفع الضر ، والحساب والجزاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

ج ٨ ، ص : ٩١

١- إن اعتذار الكافرين عن كفرهم بما يشبه قول الجبرية : لو شاء اللّه منا ألا نشرك لم نشرك اعتذار مرفوض لم يقبله اللّه تعالى لأنه سبحانه أعطاهم عقولا كاملة ، وأفهاما وافية ، وأقدرهم على الخير والشر ، وأزال الموانع بالكلية عنهم ، فإن شاؤوا عملوا الخيرات ، وإن شاؤوا عملوا المعاصي والمنكرات.

وقد أعانهم اللّه على حسن الاختيار بإنزاله الكتب ، وإرساله الرسل والأنبياء ، وإرشاده إلى التوحيد للّه بالنظر في المخلوقات ، وتأييده الرسل بالمعجزات ، وتلك هي الحجة البالغة على أن اللّه واحد لا شريك له.

فأما علم اللّه تعالى وإرادته وكلامه فغيب لا يطلع عليه الإنسان إلا من ارتضى من رسول.

ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه ، ولا مانع يمنعه ، فهو مستطيع الإيمان ، قادر على نبذ الكفر.

و لو كان الإنسان مجبرا على الكفر والمعصية كالريشة في مهب الرياح كما يزعم الجبرية ، لما اقتضى العدل الإلهي تكليفه بشيء ، وإثابته وعقابه في الآخرة.

وقد تبين بهذا بطلان شبهات الكافرين ، ودحض حججهم أمام الحجج الإلهية القاطعة. فإن شهد بعضهم لبعض على صحة ما يقولون ، فلا تصدق شهادتهم إلا من كتاب إلهي أو على لسان نبي ،

وليس معهم شيء من ذلك ، وما هم إلا شهود كاذبون مبطلون فيما يخبرون.
والمطلوب الإتيان بشهود الحق لا شهود الزور والباطل ، فإن قيل : كيف أمر اللّه نبيه باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن اللّه حرم ما زعموه محرما ، ثم أمره بأن لا يشهد معهم ؟ أجيب : أمره باستحضارهم ، وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ، ويظهر زيف شهادتهم ، فيحق الحق ، ويبطل الباطل.
ج ٨ ، ص : ٩٢
المحرّمات العشر أو الوصايا العشر [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)
الإعراب :
أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ما اسم موصول بمعنى الذي ، مفعول أَتْلُ ، وحَرَّمَ رَبُّكُمْ : صلته ، والعائد محذوف ، وتقديره : حرّمه ربكم ، فحذف الهاء العائدة للتخفيف. ويكون أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً بدلا منصوبا من الهاء أو من ما.
وأَلَّا زائدة ، وتقديره : حرّم أن تشركوا. ويجوز أن تكون أَلَّا تُشْرِكُوا خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو ألا تشركوا. ويجوز أن تكون « أن » بمعنى أي ، و « لا » نهي ، وتقديره :
أي لا تشركوا. ويجوز أن تكون ما استفهامية في موضع نصب بحرّم ، وتقديره : أي شيء حرم ربكم ؟ ويجوز الوقوف على قوله : رَبُّكُمْ. ثم تبتدئ وتقرأ : عليكم ألا تشركوا ، أي عليكم ترك الإشراك ، فيكون أَلَّا تُشْرِكُوا في موضع نصب على الإغراء بعليكم.

وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً أَنَّ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ول. ن هذا صراطي. ويجوز قراءة أن مخفة من الثقلية. ويحوز قراءة إن بالكسر ، على الابتداء ، ومُسْتَقِيماً حال مؤكدة من صِراطِي لأن صراط اللّه لا يكون إلا مستقيما.

فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٨ ، ص : ٩٣

البلاغة :

وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فيه استعارة السبل للبدع والضلالات.

لا نُكَلِّفُ نَفْساً

التنكير لإفادة العموم.

وَبِعَهْدِ اللَّهِ

الإضافة للتشريف والتعظيم.

ظَهَرَ وبَطَنَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

تَعالَوْا أقبلوا. أَتْلُ أقرأ وأقص. « أن » مفسرة. إِمْلاقٍ أي فقر.

الْفَواحِشَ الكبائر ، أي ما عظم جرمه وذنبه كالزنى. ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ أي علانيتها وسرها. إِلَّا بِالْحَقِّ كالقود (القصاص) وحدّ الردة ، ورجم المحصن. تَعْقِلُونَ تتدبرون.

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

أي ما فيه صلاحه. حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

بأن يحتلم أو يكبر ، وأَشُدَّهُ

: كمال رجولته ومعرفته. بِالْقِسْطِ

بالعدل وترك البخس. إِلَّا وُسْعَها

طاقتها في ذلك ، فإن أخطأ في الكيل والوزن ، واللّه يعلم نيته ، فلا مؤاخذة عليه ، كما ورد في الحديث. وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

أي إذا قلتم في حكم أو غيره فاعدلوا في القول. وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى

و لو كان المقول له أو عليه ذا قرابة. تَذَكَّرُونَ

تتعظون. السُّبُلَ الطرق المخالفة له. فَتَفَرَّقَ تميل. عَنْ سَبِيلِهِ دينه.

المناسبة :

بعد أنّ بيّن اللّه تعالى المحرّمات من المطعومات ، ردّا على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه اللّه عليهم ، أردفه ببيان أصول المحرمات المعنوية (الأدبية) والمادية قولا وفعلا.

قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم التي عليها خاتمة ، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ إلى قوله :

تَتَّقُونَ. وقال ابن عباس : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ :

قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآيات. و

روى الحاكم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أيكم يبايعني على ثلاث ؟ » ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : قُلْ : تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حتى فرغ من

الآيات ، ثم قال : « فمن وفى فأجره على اللّه ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه اللّه به في الدنيا ، كانت عقوبته ، ومن أخّر إلى الآخرة ، فأمره إلى اللّه إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه »

ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير اللّه ، وحرموا ما رزقهم اللّه ، وقتلوا أولادهم ، وحرموا وحللوا لأنفسهم بأهوائهم ووسوسة الشياطين لهم : هلموا وأقبلوا أقرأ وأقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم حقا وفعلا ، ووحيا وأمرا من عنده ، لا تخرصا وظنا ، فلله وحده حق التشريع والتحريم ، وأنا رسوله المبلغ عنه ما أنزل ، وهي الوصايا العشر : خمسة بصيغة النهي ، وخمسة بصيغة الأمر.

وخص التحريم بالذكر ، مع أن الوصايا أعم لأن بيان المحرمات يستلزم حلّ ما عداها. وقد بدأها بالشرك باللّه لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إثما.

وتلك الوصايا هي ما يأتي :

١- نبذ الشرك باللّه :

أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً : في الكلام محذوف وتقديره : وأوصاكم « ١ » ألا تشركوا به شيئا من الأشياء ، وإن عظم خلقا كالشمس والقمر والكواكب ، أو قدرا ومكانة كالملائكة والنبيين والصالحين ، فكل ذلك مخلوق للّه وعبيد له :

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً [مريم ١٩/ ٩٣].

فيجب عليكم أن تخصوه وحده بالعبادة والتعظيم ، وتتركوا ما شرعتم من العبادة بالأهواء.

(١) دلّ على هذا التقدير قوله تعالى في آخر الآية : ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

ج ٨ ، ص : ٩٥

٢- الإحسان إلى الوالدين :

وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أي أحسنوا إلى الوالدين إحسانا كاملا صادرا من القلب.

وكثيرا ما يقرن اللّه تعالى بين حظر الشرك وطاعته وبرّ الوالدين ، لأن اللّه تعالى مصدر الخلق والرزق ، والأبوان واسطة ، يقومان بعبء التربية ودفع الأذى والضرر عن الولد ، قال تعالى : وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً [الإسراء ١٧/ ٢٣] وقال عز وجل : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً [لقمان ٣١/ ١٤- ١٥] لذا كان عقوق الوالدين من الكبائر ، وبرّهما والإحسان إليهما من أفضل الأعمال ،

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : « سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أيّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل اللّه » .

و

روى الحافظ ابن مردويه عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت ، كل منهما يقول : أوصاني خليلي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » « ١ » .

والإحسان إلى الوالدين : معاملتهما معاملة كريمة نابعة من العطف والمحبة ، لا من الخوف والرهبة.

وكما يفعل الولد مع والديه يفعل أولاده معه ولو بعد حين ،

روى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم » .

٣- تحريم وأد البنات :

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ : لما أوصى تعالى ببرّ الوالدين والأجداد ،

---

(١) قال ابن كثير : ولكن في إسناديهما ضعف. [.....]

ج ٨ ، ص : ٩٦

عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فذكر : ومما أوصاكم به ربكم ألا تقتلوا أولادكم

خشية فقر يحل بكم ، فإن اللّه يرزقكم وإياهم ، أي يرزقهم تبعا لكم ، فلا تخافوا الفقر الحاضر ، ولا تخشوا الفقر المتوقع ، فإن اللّه تعالى تكفل برزق العباد ، ونظير الآية قوله تعالى : وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً [الإسراء ١٧/ ٣١]. والفرق بين التعبيرين : أن تعبير سورة الأنعام يراد به : لا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، فبدأ برزق الآباء لأنه الأهم بسبب وجود الفقر الحاصل ، وأما تعبير سورة الإسراء فيراد : لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل المستقبل ، فبدأ برزق الأولاد للاهتمام بهم ، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على اللّه.

وفي هذا إيماء إلى ضرورة الحفاظ على النوع الإنساني ، بتحريم إيذاء الأصول (الآباء) والفروع (الأنباء) ورعاية كل منهما ، ثم تحريم قتل النفس الإنسانية مطلقا المنصوص عليه في الوصية الخامسة.

٤- تحريم اقتراف الفواحش :

وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ : أي إياكم من الاقتراب من الفواحش وهي كل ما عظم جرمه وإثمه وقبحه من الأقوال والأفعال ، كالزنى وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، سواء في الظاهر المعلن أو الباطن السري ، وكان العرب في الجاهلية لا يرون بأسا في الزنى سرا ، ويعدون الزنى علانية قبيحا ، فحرم اللّه النوعين ، وذلك مثل قوله تعالى : قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ، ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ [الأعراف ٧/ ٣٣]. و

ورد في الصحيحين عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا أحد أغير من اللّه ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

و

قال سعد بن عبادة فيما رواه الشيخان : لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح « ١ » ، فبلغ ذلك

---

(١) المصفح : الممال ، جاء

في الحديث : « قلب المؤمن مصفح على الحق »

أي ممال عليه.

ج ٨ ، ص : ٩٧

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : « أ تعجبون من غيرة سعد ؟ فو اللّه لأنا أغير من سعد ، واللّه

أغير مني ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .
وقيل : الظاهر : ما تعلق بأعمال الجوارح ، والباطن : ما تعلق بأعمال القلوب كالكبر والحسد. روى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن عكرمة :
قال : ما ظهر منها : ظلم الناس ، وما بطن منها : الزنى والسرقة ، أي لأن الناس يأتونهما في الخفاء.
٥- منع قتل النفس بغير الحق :

وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ خصص النهي عن القتل تأكيدا واهتماما به ، بالرغم من أنه داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، أي حرم اللّه عليكم قتل النفس التي حرم الاعتداء عليها بالإسلام ، أو بالعهد بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين في دار الإسلام بعهد وأمان.
روى الشيخان عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمد رسول اللّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على اللّه » .
و
روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من قتل معاهدا له ذمة اللّه وذمة رسوله ، فقد أخفر بذمة اللّه ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا » .
وروى البخاري عن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم مرفوعا : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » .
وأما القتل بحق فله ثلاث حالات ورد بيانها
في حديث الصحيحين عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا

بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفي لفظ : « كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » .
وما ذلك التحريم للقتل إلا لأنه جريمة كبري في حق الإنسانية ، واعتداء على صنع الخالق ، الذي أوجد وأتقن كل شيء خلقه.

ذلكم المحرم مما ذكر وصاكم به لعلكم تعقلون عن اللّه أوامره ونواهيه ، أي ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. والوصية :

أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر.

وتذييل الآية بهذه الخاتمة يدلّ على أن ما هم عليه من الشرك وتحريم بعض الأنعام مما لا تعقل له فائدة.

٦- المحافظة علي مال اليتيم :

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

أي لا تأخذوا شيئا من مال الأيتام الذين تتولون الإشراف عليهم ، إلا بما فيه مصلحة ونفع لهم ، في حفظ المال وتنميته ، وحمايته من المخاطر ، والإنفاق منه بحسب الحاجة ، وذلك كقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ، إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً [النساء ٤/ ١٠].

والنهي عن القرب عن الشيء أبلغ من النهي عن الشيء نفسه : لأن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التي هي مظنّة التأويل ، كأن يأكل شيئا من ماله أثناء أداء عمل له فيه ربح. وقد نهى اللّه تعالى عن الأكل من مال اليتيم إلا لضرورة أو حاجة ، فقال : وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ [النساء ٤/ ٦].

ج ٨ ، ص : ٩٩

و تسلّم الأموال إلى اليتامى حين بلوغهم سن الرشد ، لذا قال تعالى : حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

أي لا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ مبلغ الرجال في الحنكة والقوة واكتمال الملكات والمدارك العقلية ، وذلك كما قال الشعبي ومالك وجماعة من السلف : حتى يحتلم ، والاحتلام يكون عادة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة :

فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ [النساء ٤/ ٦]. والمراد من الآية :

حفظ مال اليتيم وعدم تبذيره أو إضاعته حتى البلوغ.

٧ و٨- إيفاء الكيل والميزان بالقسط :

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ

أي أتموا الكيل إذا كلتم للناس ، ولا تزيدوا فيه إذا اكتلتم لأنفسكم ، وأتموا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تشترون أو لغيركم فيما تبيعون ، فلا يكون فيه زيادة ولا نقص ، وإنما تمام بالعدل ، من غير تطفيف ، كما قال تعالى : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ « ١ » الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [المطففين ٨٣/ ١- ٣] أي أن إيفاء الحق يكون في الحالتين : البيع والشراء.

وقوله : بِالْقِسْطِ

يوجب تحري العدل حال البيع والشراء بقدر المستطاع ، لذا قال :

لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

أي لا يكلف اللّه نفسا إلا ما يسعها فعله ، بأن تأتيه بلا عسر ولا حرج أي بقدر الطاقة والجهد ، فإذا أخطأ الشخص بدون قصد فلا مؤاخذة ،

روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الآية : وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

: « من أوفى على يده في الكيل والميزان ، واللّه يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ ، وذلك تأويل : وسعها »

وهو حديث مرسل غريب.

---

(١) التطفيف : البخس في الكيل والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم ، كما هو مفسر في تتمة الآية.

و عاقبة تطفيف الكيل والميزان وخيمة جدا ومنذرة بعقاب أليم ، كما حكى اللّه تعالى عن قوم شعيب عليه السلام : وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ، وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ الآيات [هود ١١/ ٨٥].

٩- العدل في القول أو الحكم :

وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى

أي فاعدلوا في القول في الشهادة أو الحكم ، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم إذ بالعدل تصلح شؤون الأمم والأفراد ، وهو أساس الملك ، وركن العمران ، وقاعدة الحكم ، كما قال تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ [النساء

٤/ ١٣٥] وهذا عدل بالقول ، كالعدل المطلوب سابقا في الفعل كالكيل والوزن.

١٠- الوفاء بالعهد :

وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا

أي وأوفوا بعهد اللّه ، وذلك بإنجازه وتنفيذه ، وإطاعة اللّه فيما أمر ونهى ، والعمل بكتاب اللّه وسنة رسوله. وهو يشمل :

ما عهده اللّه إلى الناس على ألسنة الرسل ، وما آتاهم اللّه من العقل والفطرة السليمة كما قال تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [يس ٣٦/ ٦٠] ، وما عاهده الناس عليه ، كما قال تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ [النحل ١٦/ ٩١] ، وما تعاهد عليه الناس مع بعضهم بعضا ، كما قال تعالى في صفة المؤمنين : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا [البقرة ٢/ ١٧٧].

ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

أي وصاكم اللّه بهذا رجاء أن تتعظوا وتنتهوا عما كنتم فيه قبل هذا ، وليذكر بعضكم بعضا في التعليم والتواصي الذي أمر اللّه به : وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر ١٠٣/ ٣].

ج ٨ ، ص : ١٠١

ثم ختم اللّه تعالى هذه الوصايا ببيان أن هذا هو منهج الحق وطريق الاستقامة ، فقال : وَأَنَّ هذا صِراطِي ... أي ولأن هذا هو الطريق المستقيم ، فاتبعوه ولا تتبعوا الطرق المختلفة ذات المذاهب والأهواء والبدع والضلالات ، فيؤدي بكم إلى التفرق والاختلاف ، والانحراف عن دين اللّه الحق ، ومنهجه الأمثل. قال ابن عباس في قوله : وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ : أمر اللّه المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين اللّه.

وأوضح النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم الصراط المستقيم ،

روى الإمام أحمد ، والنسائي وأبو الشيخ ابن حيان والحاكم عن عبد اللّه بن مسعود قال : خط رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خطأ بيده ، ثم قال : « هذا سبيل اللّه مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال :

« هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ.

وروى أحمد والترمذي والنسائي عن النّواس بن سمعان عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «

ضرب اللّه مثلا : صراطا مستقيما ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول :

يا أيها الناس ، هلّم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد إنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك ، لا تفتحه ، فإنك إن فتحته تلجه. فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود اللّه ، والأبواب المفتحة محارم اللّه ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب اللّه ، والداعي من فوق الصراط : واعظ اللّه في قلب كل مسلم » .

ج ٨ ، ص : ١٠٢

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات أمر من اللّه تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم اللّه ، ويجب على من بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبينوا لهم ما حرّم اللّه عليهم مما أحلّ ، قال اللّه تعالى : لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ [آل عمران ٣/ ١٨٧].

وقد تضمنت الوصايا العشر : خمسة منها بصيغة النهي ، وخمسة بصيغة الأمر ، ولما وردت الأوامر مع النواهي ، وتقدّمهن جميعا فعل التحريم ، واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها : وهي الإقرار بوجود اللّه وتوحيده ، والإساءة إلى الوالدين ، وبخس الكيل والميزان ، وترك العدل في القول ، ونكث عهد اللّه ... إلخ.

قال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة : بسم الله الرحمن الرحيم.

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآية.

وقال ابن عباس : هذه الآيات المحكمات التي ذكرها اللّه في سورة (الأنعام) أجمعت عليها شرائع الخلق ، ولم تنسخ قط في ملّة. وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزلة على موسى.

أما الشرك باللّه : فهو وكر الخرافات والأباطيل ، ومبعث الأهواء والشهوات ، وهو مصادم لمقتضيات العقل السليم والفكر الصحيح.

وأما الإحسان إلى الوالدين : فواجب تقتضيه الفطرة لأنهما كانا سبب وجود الإنسان ، وقد ربياه وأحسنا إليه صغيرا وكبيرا ، ومحبتهما جزاء ومكافأة لهما ، وعقوقهما مفسد تكوين الأولاد ، ومساعد على الغلظة والشذوذ في كل مسالك الحياة.

ج ٨ ، ص : ١٠٣

و قد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بتوحيد اللّه لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة اللّه تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو اللّه سبحانه ، وفي الظاهر هو الأبوان ، ونعم الوالدين على الإنسان عظيمة وهي نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر.

وقتل الأولاد : مسبّة وعار ، وقسوة وغلظة ، وانحدار في مستوى الإنسانية ، ولون من ألوان الهمجية ، ومصادمة لإرادة اللّه تعالى.

وقد استدل الظاهرية بآية : وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ على منع العزل لأن وأد الأولاد يرفع الموجود والنّسل والعزل بإلقاء الماء خارج المحل منع أصل النسل ، فتشابها ، إلا أن قتل النفس أعظم وزرا وأقبح فعلا. لكن جمهور العلماء أباحوه ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا عليكم ألا تفعلوا فإنما هو القدر » « ١ »

أي ليس عليكم جناح في ألا تفعلوا.

واشترط مالك والشافعي كون العزل عن الحرة بإذنها ، فلا يجوز بغير إذنها ، لأن الإنزال من تمام لذتها ، ومن حقها في الولد.

وتحريم الفواحش ذاتها وتحريم وسائلها وأسبابها : ضرورة صحية وإنسانية واجتماعية ، فما من فاحشة أو حرام أو منكر إلا وهو ضار ضررا محضا بصحة الإنسان ، ومهدد لوجوده ، ومفسد للمجتمع في جميع أحواله ونظامه وتطلعاته. والنهي عن اقتراف الفواحش في الآية نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي.

وقتل النفس مؤمنة كانت أو معاهدة بغير مسوغ شرعي أو إلا بالحق الذي يوجب قتلها : جريمة كبري ، واعتداء شنيع على صنع الخالق. والعاصم من القتل : الإسلام ، والسلام أو الأمان ، والعهد. والمسوغ الشرعي أو القتل بالحق

---

(١) الحديث صحيح (راجع سبل السلام ٣/ ١٠٣٦) ط دار الجيل- بيروت.

ج ٨ ، ص : ١٠٤

مثل منع الزكاة وترك الصلاة ، والدفاع عن النفس ، والمحاربة (قطع الطريق) ، والقصاص ، والردة ، وزنى المحصن. وأجاز بعضهم القتل بسبب اللواط عملا

بما روى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وأكل مال اليتامى : ظلم واعتداء على حقوق الضعفاء ، واستغلال لحاجتهم وصغرهم. لكن يجوز الأخذ من مال اليتيم بالتي هي أحسن ، أي بما فيه صلاحه وتنميته ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه ، بالاتجار فيه ونحوه من وسائل التنمية.

ويدفع المال إلى اليتيم ببلوغ سن الرشد وهو توافر الخبرة المالية ، وذهب أبو حنيفة إلى أن أقصى مدة لمنع المال عن اليتيم هي خمس وعشرون سنة. وقد فسّر بلوغ الأشد أي القوة وهي قوة البدن والمعرفة باية أخرى في سورة النساء وهي : وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ [٦] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح ، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد.

وإيفاء الكيل والميزان بالقسط أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء : فيه حفاظ على الحقوق المالية.

والقول بالعدل في الأحكام والشهادات ولو على النفس والأقارب : فيه إنصاف للحق ، وإظهار له ، ومن المعلوم أن الإسلام هو دين الحق والعدل.

والوفاء بعهد اللّه ، أي بجميع ما عهده اللّه إلى عباده ، ويشمل جميع ما انعقد بين إنسانين : أمر يوجبه شكر المنعم الخالق ، وتقتضيه المدنية ، وتقره الأعراف السليمة لأنه فيما يمس الوعود والعقود بين الناس يوفر الخير والعطاء للجماعة

ج ٨ ، ص : ١٠٥

كلها ، ويحقق معنى النظام واحترام الوقت. وأضيف العهد إلى اللّه من حيث أمر بحفظه والوفاء به.

(١٠٥/٨)

و السبب في جعل خاتمة الآية الأولى بقوله : لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وخاتمة الآية الثانية بقوله : لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ : هو كما أوضح الرازي أن المحرّمات الخمسة المذكورة في الآية الأولى (و هي الشرك ، وعقوق الوالدين ، وقتل الأولاد ، وقربان الزنى ، وقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق) أمور ظاهرة جلية القبح ، فنهاهم اللّه عنها ، لعلهم يعقلون قبحها ، فيتركوها. وأما التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الثانية (و هي حفظ مال اليتيم ، وإيفاء الكيل والميزان ، والعدل في القول في الأحكام والشهادات ، والوفاء بالعهد) فهي أمور خفية غامضة ، وكانوا يفعلونها ويفتخرون بالاتصاف بها ، فأمر اللّه تعالى بها لعلهم يذكرون إن نسوها ، وليجتهدوا ويفكروا فيها ليقفوا على موضع الاعتدال.

وقال أبو حيان : كرر الوصية على سبيل التوكيد ، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وقد أمر اللّه سبحانه باتباعه ، ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم الآية الثالثة بالتقوى التي هي اتقاء النار إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية ، وحصل على السعادة السرمدية « ١ » .

قال ابن عطية : ومن حيث كانت المحرّمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله ، جاءت العبارة : لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ والمحرّمات الأخر شهوات ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر ، فجاءت العبارة : لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

. وركوب الجادة تتضمن فعل الفضائل ، وتلك درجة التقوى ، فجاءت العبارة : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

وأما آية وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فأرشدت إلى أن كل ما بيّنه

---

(١) البحر المحيط : ٤/ ٢٥٤

ج ٨ ، ص : ١٠٦

الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من دين الإسلام هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم. وأرشدت أيضا إلى وجوب الاتحاد بين المؤمنين والتلاقي بينهم على ما أمر اللّه به ، والتحذير من الاختلاف والفرقة ، واتباع غير سبيل اللّه ، وأن اللّه أهلك الأمم السابقة بالمراء والخصومات ، ودلت الآية أيضا على أن كل ما كان حقا فهو واحد.

السبب في إنزال التوراة والقرآن [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٥٤ الى ١٥٧]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

الإعراب :

تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ تَماماً منصوب على المصدر أو على أنه مفعول لأجله.

وأَحْسَنَ فعل ماض صلة الَّذِي ، وفيه ضمير مقدر يعود على الَّذِي وتقديره : تماما على المحسن هو.

ومن قرأ أحسن بالرفع كان خبر مبتدأ محذوف وتقديره : على الذي هو أحسن. والجملة من المبتدأ

والخبر صلة الَّذِي.
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ جملة فعلية في موضع رفع صفة كِتابٌ ، ومُبارَكٌ وصف ثان.

(١٠٧/٨)

أَنْ تَقُولُوا متعلق بأنزلناه ، وتقديره : كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا. وَإِنْ

كُنَّا

: إن مخففة من الثقيلة عند البصريين واسمها محذوف ، وتقديره : وإنا كنا ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وذهب الكوفيون إلى أنها بمعنى « ما » واللام بمعنى : إلا ، وتقديره : وما كنا عن دراستهم إلا غافلين.

البلاغة :

يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا وضع الظاهر موضع الضمير : عنها لتبيان قباحة طغيانهم.

المفردات اللغوية :

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة ، وثُمَّ لترتيب الأخبار. تَماماً للنعمة.
عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ بالقيام به. وَتَفْصِيلًا بيانا. لِكُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه في الدين.
لَعَلَّهُمْ أي بني إسرائيل. بِلِقاءِ رَبِّهِمْ بالبعث. وَهذا القرآن. فَاتَّبِعُوهُ يا أهل مكة بالعمل بما فيه. وَاتَّقُوا الكفر. أَنْ تَقُولُوا لئلا تقولوا. طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا هم اليهود والنصارى. وَإِنْ كُنَّا إن : مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي إنا كنا ، والأصل : وإنه كنا عن دراستهم غافلين ، على أن الهاء ضمير الشأن. عَنْ دِراسَتِهِمْ قراءتهم وعلمهم أي لم نعرف مثل دراستهم. لَغافِلِينَ لعدم معرفتنا لها إذ ليست بلغتنا.
لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ لحدة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، وغزارة حفظنا لأيام العرب ، ووقائعها. وخطبها ، وأشعارها ، وأسجاعها ، على أنا أميون. بَيِّنَةٌ البيان والبيّنة : ما به يظهر الحق. وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لمن اتبعه.
فَمَنْ أي لا أحد. وَصَدَفَ عَنْها أعرض ومنع الناس عنها. سُوءَ الْعَذابِ أي أشده.
المناسبة :

(١٠٨/٨)

بعد أن ذكر اللّه الوصايا العشر ، أخبر عن الغاية من إنزال التوراة على موسى عليه السلام لاشتهارها عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها ، ثم ذكر مكانة القرآن وكونه كتاب هداية ، وأعمل بوجوب اتباعه

، ورد على عذر المشركين بعدم الانقياد له ، مما لا يصلح عذرا بعد جعل القرآن مباركا كثير الخير والفضل.

التفسير والبيان :

في الكلام شيء محذوف تقديره : لفظ « قل » أي قل يا محمد الرسول لهؤلاء

ج ٨ ، ص : ١٠٨

الناس : إنا آتينا موسى الكتاب ، وهو معطوف على بداية الكلام عن الوصايا العشر ، بكلمة ثُمَّ أي ثم قل : إن آتينا موسى الكتاب ، ويصبح مجموع الكلام المقول للمشركين : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به وهو كذا وكذا ، ثم قل لهم وأعلمهم : أننا آتينا موسى الكتاب .. إلخ أي أخبرهم بما أوحي إليك ، وبما آتينا موسى.

وقد تكرر ذكر التوراة في القرآن لأنها أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتمالها على جميع الأحكام التشريعية ، فكل منهما شريعة كاملة ، بعكس الإنجيل والزبور ، فإن الإنجيل كتاب عظات وأمثال وتاريخ ، والزبور كتاب ثناء ومناجاة وتراتيل. وكان كثير من عقلاء العرب يتمنى أن يكون لهم كتاب كالتوراة ، وأنه لو جاءهم لكانوا أهدى من اليهود وأعظم انتفاعا به ، لامتيازهم بحدة الذكاء وحصافة العقل والفهم.

ولما أخبر اللّه عن القرآن بقوله : وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ عطف عليه الكلام بمدح التوراة ورسولها ، فقال : ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ.

وكثيرا ما يقرن سبحانه بين ذكر التوراة والقرآن كما بينت ، كقوله تعالى :

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً ، وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا [الأحقاف ٤٦/ ١٢] وقوله أول هذه السورة : قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً.

والوصايا العشر التي ذكرت في الآيات الثلاث ، والتي لها نظير في سورة الإسراء ، كانت أول ما نزل بمكة قبل تشريع أحكام العبادات والمعاملات ، وكانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه ، وهي أيضا أصول الأديان على ألسنة الرسل لقوله تعالى : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

ج ٨ ، ص : ١٠٩

[الشورى ٤٢/ ١٣] والقدر المشترك من الدين الذي أوصى به جميع الرسل : هو التوحيد ، ومكارم

الأخلاق ، والبعد عن الفواحش والمنكرات.

تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ أي آتينا موسى الكتاب تماما للكرامة والنعمة على الذي أحسن في اتباعه والاهتداء به ، كما قال تعالى : وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا [الأنبياء ٢١/ ٧٣].

ويجوز أن يكون المعنى : وآتينا موسى الكتاب تماما أي تاما كاملا جامعا لكل ما يحتاجه الناس من التشريع ، وعلى أحسن ما تكون عليه الكتب ، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن. لكن يضعف هذا المعنى ما يأتي بعده وهو :

وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ أي وآتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماما كاملا جامعا لما يحتاج إليه في شريعته ، كقوله تعالى عن موسى : وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [الأعراف ٧/ ١٤٥].

وَ هُدىً وَرَحْمَةً أي وهو كتاب هداية إلى الحق ، وسبب رحمة لمن اهتدى به واتبعه ، وقال الرازي : معنى رَحْمَةً : أنه نعمة في الدين.

لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ أي آتيناه الكتاب بمشتملاته المذكورة ، لكي يؤمن قومه بلقاء ربهم ، أي لقاء ما وعدهم اللّه به من ثواب وعقاب ، وإذا آمنوا بذلك آمنوا باللّه وحده لا شريك له.

ثم انتقل إلى وصف القرآن الكريم فقال : وَهذا كِتابٌ ... أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، كثير الخير والنفع في الدين والدنيا ، ثابت لا ينسخ ، جامع لأسباب الهداية الدائمة والنجاة والفلاح ، فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا النار والكفر بما نهاكم عنه ومنعكموه ، لتظفروا برحمة اللّه الواسعة في الدنيا والآخرة.

وفي هذا دعوة صريحة إلى اتباع القرآن ، من طريق التدبر بآياته. والعمل

هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا وهو خطاب لأهل مكة : إنما اقتصر إنزال الكتاب على من قبلنا من اليهود والنصارى ، أي لينقطع عذركم ، ولئلا تقولوا :

إنا كنا عن معرفة الكتب السابقة غافلين ، لا ندري ما هي لأنها ليست بلغتنا ، ولأننا قوم أميون لا نعرف ما يعرفه ويدرسه غيرنا.

ولئلا تقولوا أيضا لو أنزل علينا ما أنزل عليهم ، لكنا أهدى منهم فيما أوتوه لأننا أكثر ذكاء وفهما ، وأعمق بصيرة ، وأمضى عزيمة ، كقوله تعالى :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ ، لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ [فاطر ٣٥/ ٤٢] أي

أهدى من إحدى الأمم المجاورة من أهل الكتاب.
فرد اللّه عليهم بما يقطع كل تعلل واعتذار بقوله : فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ..

أي فقد جاءكم على لسان رسولنا النبي العربي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما في القلوب ، ورحمة من اللّه لعباده الذين يتبعونه ، ويقتفون ما فيه ، وهو يشتمل على الحق المؤيد بالحجج والبراهين في العقيدة والآداب والأحكام.
ثم أبان اللّه سوء عاقبة من كذب بالقرآن ، فقال : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ .. أي لا أحد أظلم ممن كذب بآيات اللّه ، بعد ما عرف صحتها وصدقها ، أو تمكن من معرفة ذلك ، وأعرض عنها ، ومنع الناس عن التفكير فيها ، كما كان يفعل زعماء مكة ، كقوله تعالى : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ [الأنعام ٦/ ٢٦].
ثم أتبع اللّه ذلك بالتهديد والوعيد والعقاب لكل معرض عن القرآن ، كما هو الشأن الغالب بعد بيان أسباب الهداية ، فقال : سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ ..
أي سنجازي المعرضين عن آياتنا أشد العذاب بسبب حجب عقولهم ونفوسهم وغيرهم عن هداية اللّه ، والإعراض عنها لأنهم يتحملون وزرهم ووزر من
ج ٨ ، ص : ١١١
منعوهم عن الحق ، وحالوا بينهم وبين هداية اللّه ، كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ [النحل ١٦/ ٨٨] أي زدناهم عذابا غير عذابهم بسبب إفسادهم وصدهم عن سبيل الحق.
فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن القرآن مثل التوراة في أصولها الصحيحة الأولى التي فقدت وضاعت ، ثم كتب عنها بديل محرّف مشوّه ، مما لم يبق منهجا للبشرية وكتابا للإنسانية غير القرآن الكريم ، ففيه الهداية الكاملة ، والبيان الواضح المؤيد بالبراهين والأدلة العقلية ، والنقلية (السمعية) ، ولم يبق لأحد عذر بعد مجيء محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتأييده بالمعجزة الخالدة الباقية من غير تبديل ولا تحريف ، فإن كذب به أحد ، فلا أظلم منه ، وسيلقى جزاء إعراضه وتكذيبه. ودل قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ

بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها على تعظيم كفر من كذب بآيات اللّه ، ومنع عنها نفسه وغيره من الإيمان بها لأن الأول ضلال ، والثاني منع عن الحق وإضلال.

إنذار أخير للكفار بسوء العذاب [سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

الإعراب :

لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها ، لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ جملة : لَمْ تَكُنْ صفة النفس.

ج ٨ ، ص : ١١٢

البلاغة :

هَلْ يَنْظُرُونَ معنى الاستفهام : النفي.

قُلِ : انْتَظِرُوا أمر تهديد ووعيد.

لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها .. قال أحمد الإسكندري في حاشية الكشاف : ١/ ٥٣٧ : اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف ، وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة قبل : إيمانها بعد ، ولا نفسا لم تكسب في إيمانها خيرا قبل : ما تكسبه من الخير بعد ، إلا أنه لفّ الكلامين ، فجعلهما كلاما واحدا بلاغة واختصارا وإعجازا. ومبدأ أهل السنة : لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ، وإن نفع الإيمان المتقدم في السلامة من الخلود في النار.

المفردات اللغوية :

هَلْ يَنْظُرُونَ ينتظرون أي ما ينتظر المكذبون. إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لقبض أرواحهم. أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أي أمره ، بمعنى عذابه. أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ أي علاماته الدالة على الساعة. يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ وهي طلوع الشمس من مغربها ، كما في حديث الصحيحين. أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها أي : أو نفسا لم تكن كسبت في إيمانها طاعة ، أي لا تنفعها توبتها ، كما في الحديث.

المناسبة :

هذه الآية إنذار للكفار بعد إنذار بسوء العذاب ، فلما بيّن اللّه تعالى أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعلة ، بيّن أنهم لا يؤمنون البتة ، أي لا أمل في إيمانهم.

التفسير والبيان :

يتوعد اللّه تعالى الكافرين والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله ، فهم ما ينتظرون ولا

يؤمنون إلا إذا جاءهم أحد أمور ثلاثة : وهي مجيء الملائكة ، أو مجيء الرب ، أو مجيء الآيات القاهرة من اللّه تعالى.

ج ٨ ، ص : ١١٣

و معنى مجيء الملائكة هو مجيئهم لقبض أرواحهم. ومعنى إتيان اللّه : إتيان ما وعد به من نصر أنصاره وأوعد به من تعذيب أعدائه في الدنيا ، والمراد من مجيء بعض آيات اللّه : حدوث بعض الحوادث القاهرة الموجبة للإيمان الاضطراري.

و كان مشركو مكة قد طلبوا نزول الملائكة وإتيان اللّه أو رؤيته ، كما حكى القرآن : وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ، أَوْ نَرى رَبَّنا [الفرقان ٢٥/ ٢١]. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا [الإسراء ١٧/ ٩٢] وطلبوا أيضا إنزال بعض آيات اللّه مثل أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً [الإسراء ١٧/ ٩٢].

وقوله أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ هل يدل على جواز المجيء والغيبة على اللّه ؟

أجيب بأن هذا حكاية عن الكفار ، واعتقاد الكافر ليس بحجة ، أو أن هذا مجاز ، مثل قوله تعالى. فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ [النحل ١٦/ ٢٦] وذلك لقيام الدلائل القاطعة على أن المجيء والغيبة على اللّه تعالى محال.

وفي هذه الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات اللّه ، وعدم الاعتداد بها.

ثم وجّه الحق تعالى إنذارا أخيرا لهم بقوله : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ... أي يوم تأتي الآيات الملجئة للإيمان الاضطراري لا ينفع حينئذ الإيمان مثل إيمان فرعون حينما أحدق به الغرق ، كما لا ينفعها توبة لم تكن حدثت في وقت السعة قبل الغرغرة.

وبعض هذه الآيات قد يحدث قبل خروج الروح ، أو قبيل يوم القيامة حين ظهور أمارات الساعة وأشراطها ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية ،

فيما أخرجه هو والجماعة إلا الترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال

ج ٨ ، ص : ١١٤

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ » . وفي لفظ : « فإذا طلعت ورآها الناس ، آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ثم قرأ هذه الآية.

و أخرج أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعا : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

قُلِ : انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أي قل لهم يا محمد : انتظروا ما تتوقعون حدوثه من دحر الإسلام ، وقتل النبي ، وزوال الدين ، إنا منتظرون وعد ربنا الصادق لنا بالنصر ووعيده المتحقق لأعدائنا ، مثل قوله تعالى : فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ : فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [يونس ١٠/ ١٠٢].

وهذا تهديد شديد للكافرين ووعيد اكيد لمن أرجأ إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك ، كما قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا [غافر ٤٠/ ٨٤- ٨٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أمور ثلاثة :

الأول- إنه لا أمل في إيمان الكفار المعاندين ، لتماديهم في تكذيب آيات اللّه.

الثاني- لا ينفع الإيمان الاضطراري عند رؤية العذاب في الدنيا ، أو عند مجيء بعض علامات القيامة.

الثالث- وعيد الكفار وتهديدهم وإنذارهم بإنزال العذاب عليهم إذا لم يؤمنوا.

عاقبة الاختلاف في الدين [سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٩]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)

المفردات اللغوية :

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ باختلافهم فيه ، فأخذوا بعضه وتركوا بعضه. وفي قراءة :

فارقوا : أي تركوا دينهم الذي أمروا به ، وهم اليهود والنصارى. وَكانُوا شِيَعاً فرقا في ذلك.

لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أي فلا تتعرض لهم. إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ يتولاه. ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ يخبرهم في الآخرة عن أفعالهم ، فيجازيهم عليها.

المناسبة :

بعد أن أوعد اللّه الكفار وأنذرهم بسوء العذاب ، وبما ينتظر من الحوادث الرهيبة في آخر الزمان ، حذّر اللّه المؤمنين من التفرق في الدين ، كما يفعل أهل البدع والشبهات ، وحث على توحيد كلمة المسلمين.

التفسير والبيان :

روى أبو هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه الآية : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ : هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة.

وهذا ما قاله مجاهد. وقال أبو أمامة في قوله : وَكانُوا شِيَعاً هم الخوارج.

وقيل عن جماعة (قتادة والضحاك والسدي) : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ومذاهب شتى.

ج ٨ ، ص : ١١٦

و قيل : الآية عامّة في جميع الكفار ، قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين اللّه ، وكان مخالفا له « ١ » . وهذا ما صوبه بعض المحدثين ، مثل صاحب تفسير المنار « ٢ » ، فقال : والصواب هو الجمع بين الرأيين ، فإن اللّه تعالى ، بعد أن أقام حجج الإسلام في هذه السورة ، وأبطل شبهات الشرك ، ذكر أهل الكتاب وشرعهم وأمر المستجيبين لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق ، كما تفرق من قبلهم ، كما جاء في سورة آل عمران : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ، وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ [١٠٥].

(١١٧/٨)

و المعنى : إن الذين فرقوا دينهم ، فآمنوا ببعض وأخذوا به ، وتركوا بعضه الآخر ، وتأولوا نصوصه على وفق أهوائهم ، وصاروا فرقا ، كل فرقة تأخذ برأي وتتعصب لمذهب ، لا تتعرض لهم يا محمد ودعهم وشأنهم ولا تقاتلهم ، وإنما عليك تبليغ الرسالة ، ومناصرة شعائر الدين الحق ، أنت بريء منهم ومن أفعالهم ، وبعيد من أقوالهم ومذاهبهم ، واللّه يتولى أمرهم وحسابهم ، ثم ينبئهم في الآخرة ويجازيهم على تجزئة الدين. قال الرازي : المراد من الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وألا يتفرقوا في الدين ، ولا يبتدعوا البدع « ٣ » .

وقد استنكر اللّه تعالى في موضع آخر هذه التجزئة ، فقال عن أهل الكتاب : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [البقرة ٢/ ٨٥].

وحذر النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم من تفرق المسلمين ،

روى أبو داود عن معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه عنه قال : قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة (أي فرقة) وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ١٩٦

(٢) راجع ٨/ ٢١٤

(٣) تفسير الرازي : ١٤/ ٨

ج ٨ ، ص : ١١٧

الجماعة » « ١ »

و

روى أبو داود ، والترمذي- واللفظ له- عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين ، والنصارى مثل ذلك. وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » « ٢ »

فيكون المراد من قوله : فَرَّقُوا دِينَهُمْ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى. وقيل : فرقوا دينهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض.

(١١٨/٨)

و أسباب الاختلاف والتفرق كثيرة ، من أهمها : حب السيطرة والسلطة ، والتعصب للجنس والقوم ، أو للرأي والهوى ، والإصغاء لدسائس أعداء الدين ومكائدهم ، والجهل والتخلف ، واتباع الآخرين في العادات والتقاليد ، وتخلي بعض الدول أو أكثرها عن الدين في الفكر والاعتقاد ، والسياسة والمنهج ، والنظام والقانون.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن شرع اللّه واحد وكل لا يتجزأ ، فلا يصح أخذ بعضه ، وترك بعضه ، وتعطيل حكم أو ادعاء عدم صلاحيته للعصر ، فمن اعتقد ذلك فهو كافر.

والتفرق في الدين ، والابتداع واتباع الشبهات والشهوات خطر عظيم وجرم كبير وضلال مبين.

وما على الأمة إلا جمع كلمتها ، وتوحيد رأيها ، والحذر من الانزلاق في مهاوي الابتداع مما لم يأذن به اللّه ورسوله في العبادة والأخلاق والتشريع.

وإن هجر تشريع اللّه بدأ بالتخلي عن بعض أحكامه تدريجيا ، حتى أصبح منعزلا عن الحياة.

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير : ١٠/ ٤٠٧

(٢) المرجع السابق : ١٠/ ٤٠٨

ج ٨ ، ص : ١١٨

بل إنه مع الأسف امتد التجزؤ والتجميد إلى بعض نصوص القرآن ، فلا يقرأ بعضها في الإذاعات.

والآية عامة في كل من فارق الدين وكان مخالفا له ، سواء أكان من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أم من المسلمين (أهل البدع والشبهات).

روى بقيّة بن الوليد بسنده عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال لعائشة : « إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا : إنما هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، يا عائشة ، إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ، ليس لهم توبة ، وأنا بريء منهم ، وهم منا برآء » .

جزاء الحسنة والسيئة [سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٠]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

الإعراب :

فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها : من قرأ بالتنوين عَشْرُ كان عَشْرُ مبتدأ ، وأَمْثالِها صفة له ، وفَلَهُ خبر مبتدأ مقدم عليه.

ومن قرأ بالإضافة كان في حذف الهاء من عَشْرُ وهو مذكر ثلاثة أوجه ذكرها ابن الأنباري ١/ ٣٥٠ :

الأول- أن يكون التقدير فيه : عشر حسنات أمثالها ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه.

وهذا مذهب سيبويه. وهذا أوجه الوجوه.

والثاني- أنه حمل أَمْثالِها على المعنى لأن الأمثال في معنى حسنات ، فكأنه قال : عشر حسنات.

والثالث- أن يكون اكتسى المضاف التأنيث من المضاف إليه ، كقوله تعالى : يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [يوسف ١٢/ ١٠] في قراءة التاء ، وكقولهم : ذهبت بعض أصابعه.

ج ٨ ، ص : ١١٩

البلاغة :

بِالْحَسَنَةِ وبِالسَّيِّئَةِ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها أي جزاء عشر حسنات. إِلَّا مِثْلَها أي جزاء واحد مماثلا لها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ لا ينقصون من جزائهم شيئا.

قال بعضهم : الحسنة : قول : لا إله إلا اللّه ، والسيئة : هي الشرك. قال الرازي : وهذا بعيد ، بل يجب أن يكون محمولا على العموم « ١ » .

المناسبة :

بعد أن بين اللّه تعالى في السورة أصول الإيمان ، وألزم باتباع الوصايا العشر في الفضائل والآداب. وندد بالكفار وأهل البدع ، أوضح هنا الجزاء على العمل ، سواء أكان من الحسنات : وهي الإيمان والأعمال الصالحة ، أم من السيئات : وهي الكفر والمعاصي أو الفواحش.

التفسير والبيان :

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة من الطاعات ، فله جزاؤها عشر حسنات أمثالها ، وهذا من قبيل العدل والفضل المحدود ، ولكن قد تضاعف الحسنة بعد ذلك إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة ٢/ ٢٦١]. وقال عز وجل : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً [البقرة ٢/ ٢٤٥] إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ [التغابن ٦٤/ ١٧].

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٨

ج ٨ ، ص : ١٢٠

و هذا التفاوت مرده إلى اللّه تعالى ، وإلى اقتران العمل بما يرفعه عند اللّه ، كالإخلاص في النية ، واحتساب الأجر عند اللّه ، وإخفاء الفعل الطيب ، وإبداؤه أحيانا للاقتداء به ، وتحري منفعة الأمة. ومن ارتكب سيئة أو اقترف ذنبا ، فله عقوبة سيئة مماثلة لها.

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أي كل من المحسن والمسيء لا ينقص من عمله شيء ، فلا ينقص من ثواب المحسنين ، ولا يزاد على عقاب المسيئين.

وجاء الحديث النبوي موضحا معيار التفاضل في الحسنات ، وطريق الجزاء على السيئات ، روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إن ربكم عز وجل رحيم ، من همّ بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. ومن همّ بسيئة فلم يعملها

كتبت له حسنة ، فإن عملها ، كتبت له واحدة ، أو يمحوها اللّه عز وجل ، ولا يهلك على اللّه إلا هالك »

والكتابة تكون بواسطة الملائكة ، بأمر اللّه لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا التفاوت بين جزاء الحسنة وجزاء السيئة بفضل من اللّه ورحمة منه لأن الثواب- في رأي أهل السنة- تفضل من اللّه تعالى في الحقيقة ، فمن فعل حسنة طيبة ، كان له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له. وتجوز المضاعفة إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة ، حسبما تقتضي الإرادة والمشيئة والحكمة الإلهية ، وبقدر ما يقترن به العمل الصالح من قصد حسن وإخلاص للّه تعالى.

ومن اقترف فعلة سيئة ، لم يكن له من الجزاء إلا ما يساويها ويوازيها.

روى أبو ذر أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن اللّه تعالى قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو عفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره »

و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث المتقدم : « يقول اللّه :

ج ٨ ، ص : ١٢١

إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، وإن لم يعملها ، فإن عملها فعشر أمثالها ، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها ، وإن عملها فسيئة واحدة » .

وفصل العلماء في شأن تارك السيئة فقالوا :

تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام :

١- تارة يتركها للّه : فهذا تكتب له حسنة ، لكفّه عنها للّه تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء : أنه يكتب له حسنة ، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح :

« فإنما تركها من جرائي » أي من أجلي.

٢- وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها : فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيرا ولا فعل شرا.

٣- وتارة يتركها عجزا وكسلا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها ، كما

جاء في الحديث الصحيح عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول اللّه ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان

حريصا على قتل صاحبه » « ١ » .

اتباع ملة إبراهيم في التوحيد والعبادة والتبعة الشخصية [سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٦١ الى ١٦٤]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ١٩٦ وما بعدها.

ج ٨ ، ص : ١٢٢

الإعراب :

دِيناً منصوب بفعل مقدر دل عليه : هَدانِي ، وتقديره : هداني دينا. وقال الزمخشري : نصب على البدل من محل إِلى صِراطٍ لأن معناه : هداني صراطا ، بدليل قوله :

وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً [الفتح ٤٨/ ٢٠] ، وقِيَماً صفة دِيناً أي دينا ذا استقامة ، وقرئ : قيما بالتشديد من قام كسيّد من ساد ، وهو أبلغ من القائم.

مِلَّةَ إِبْراهِيمَ عطف بيان وحَنِيفاً حال من إبراهيم.

مَحْيايَ بفتح الياء ، عملا بالأصل وهو أن من حق الياء أن تكون متحركة مفتوحة ، أو حركت لاجتماع ساكنين. ومن قرأ بسكون الياء فلأن حرف العلة يستثقل عليه حركات البناء.

أَ غَيْرَ اللَّهِ غير : منصوب لأنه مفعول أَبْغِي ورَبًّا تمييز منصوب ، والتقدير :

أ أبغي غير اللّه من ربّ ، فحذف من ، فانتصب على التمييز.

البلاغة :

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى : استعار أثقال الحمل على الظهور لأثقال الذنوب والآثام.

المفردات اللغوية :

دِيناً قِيَماً مصدر بمعنى القيام ، أي ذا استقامة ، أي أنه قائم مستقيم لا عوج فيه ، وقرئ قِيَماً بالتشديد ، أي مستقيما ، ودين القيّمة بالتأنيث : أي دين الملة الحنيفية ، وكل ذلك يعني انه دين يقوم به أمر الناس ونظامهم في الدنيا والآخرة ، وهو منهاج مستقيم.

حَنِيفاً مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو دين الإسلام.

وَنُسُكِي عبادتي من حج وغيره مَحْيايَ وَمَماتِي أي ما آتيه في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ، كله للّه رب العالمين.

أَبْغِي رَبًّا لا أطلب غيره وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مالكه وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ذنبا

ج ٨ ، ص : ١٢٣

وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي لا تتحمل نفس بريئة حمل نفس مذنبة آثمة أخرى ، فقوله :

تَزِرُ تحمل ، والوزر : الحمل الثقيل.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى في هذه السورة دلائل التوحيد ، والرد على المشركين ونفاة القضاء والقدر ، ختم الكلام بأن الدين القيّم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم القائمة على التوحيد وعبادة اللّه ، ومسئولية كل شخص عن نفسه لا عن غيره ، وأن الهداية لا تحصل إلا باللّه ، وأن الجزاء عند اللّه على الأعمال التي يقوم بها الإنسان ، فهي دليل سعادته أو شقاوته.

التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم اللّه عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهو ملّة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام.

قل أيها الرسول للناس قاطبة ومنهم قومك : إن ربي أرشدني ووفقني إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ، وهو الدين القيّم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، القائم بالحق ، الثابت الأصول ، وهو المراد في مناجاة اللّه تعالى : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ.

و هو ملة إبراهيم الخليل ، فالتزموه ، لكونه كان مائلا عن جميع أنواع الشرك والضلالة إلى الدين الحق : دين التوحيد. كما قال تعالى : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ [البقرة ٢/ ١٣٠] وقال : إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً ، قانِتاً لِلَّهِ ، حَنِيفاً ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل ١٦/ ١٢٠- ١٢٣].

ج ٨ ، ص : ١٢٤

وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي وما كان إبراهيم من المشركين أبدا ، وإنما كان مؤمنا باللّه ، موحدا إياه ، مخلصا له عبادته.

فأما من يعتقد أن الملائكة بنات اللّه ، أو عزيز ابن اللّه ، أو عيسى المسيح ابن اللّه ، فهؤلاء هم المشركون البعيدون عن ملة إبراهيم ، كما قال تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا [النساء ٤/ ١٢٥].

هذا هو الدين الحق دين الإخلاص والعبادة للّه وحده ، وهو الذي بعث به جميع الأنبياء والرسل ، وهذا مخالف لما كان عليه مشركو العرب وزعماء قريش الذين يلقبون أنفسهم « الحنفاء » مدّعين أنهم على ملة إبراهيم ، وهو أيضا مخالف لما عليه أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين يدعون أنهم أتباع ملة إبراهيم وأتباع موسى وعيسى ، وذلك بدليل رد اللّه تعالى عليهم بقوله : ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا ، وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [آل عمران ٣/ ٦٧].

لذا فإن دعوة الإسلام هي ملتقى جميع الأنبياء ، وهو الدين المقبول عند اللّه كما قال : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ [آل عمران ٣/ ١٩] وقال : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ [آل عمران ٣/ ٨٥].

ثم يأمر اللّه نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللّه ، ويذبحون لغير اسمه : بأنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته للّه ، ونسكه على اسم اللّه وحده لا شريك له ، مثل قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ [الكوثر ١٠٨/ ٢] أي أخلص له صلاتك وذبحك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره اللّه بمخالفتهم ، وإخلاص القصد والنية والعزم والعمل للّه تعالى.

ج ٨ ، ص : ١٢٥

قُلْ : إِنَّ صَلاتِي ... أي إن كل أنواع صلاتي وعبادتي ودعائي ونسكي أي عبادتي- وقد كثر استعمال النسك في الذبح وأداء شعائر الحج والعمرة وغيرهما- وكل ما آتيه في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح هو للّه عز وجل ، أي أن كل أعمالي ومقاصدي محصورة في طاعة اللّه ورضوانه ، فهي آية جامعة لكل الأعمال الصالحة ، وعلى المسلم أن يكون قصده وعمله وكل ما يقدمه من عمل هو وجه اللّه تعالى ، سواء في أثناء حياته ، أو ما يعقبه من عمل صالح بعد مماته ، هو للّه ، وإلى اللّه ، وفي سبيل اللّه ، ولطاعة اللّه تعالى.

و خصص الصلاة بالذكر ، مع كونها داخلة في النسك ، لكونها روح العبادة التي قد تتلوث بمفاسد

الشرك.

واللّه واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ، ولا في ربوبيته ، فله العبادة وحده ، والتشريع منه وحده ، بذلك أمرني ربي ، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

(١٢٦/٨)

و هذا إثبات لتوحيد الألوهية ، أعقبه بتوحيد الربوبية ، فقال : قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ... أي أغير اللّه أطلب ربا سواه ، مع أنه هو مالك كل شيء ، خلقه ودبره ، وهو مصدر النفع ومنع الضر ، فكيف أجعل مخلوقا آخر ربّا لي ؟ ! وما من عمل يكسبه الإنسان إلا عليه جزاؤه دون غيره ، ولا تتحمل نفس بريئة أبدا ذنب نفس أخرى ، فكل إنسان مجزي بعمله : كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ [الطور ٥٢/ ٢١] لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ [البقرة ٢/ ٢٨٦].

وبما أن كل إنسان مسئول عن عمله ، صالحا كان أو سيئا ، فإنه سيجزي عنه ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا. والرجوع في نهاية المصير من الذين يلقبون أنفسهم « الحنفاء » للّه وحده دون غيره ، فهو الذي يخبركم باختلافكم في

ج ٨ ، ص : ١٢٦

الأديان ، ويجازيكم عليه بحسب علمه وإرادته ، كما قال : ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [آل عمران ٣/ ٥٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

تتقابل في أغلب نواحي الحياة واجهتان متعاكستان : التفرق والاتحاد ، ولم يسلم دين اللّه من تأثره بهاتين الواجهتين ، فلمّا بيّن تعالى أن الكفار تفرقوا ، بين أن اللّه هدى الأنبياء وخاتمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى الدين المستقيم ، وهو دين إبراهيم عليهم السلام.

والدين الحق القيم يتطلب تسخير كل الطاقات الدينية الإنسانية للّه عز وجل ، فله وحده يتوجه العبد بصلاته وعبادته ومناسكه وذبائحه وجميع قرباته وأعماله في حياته وما أوصى به بعد وفاته ، لأنه سبحانه خالق الكون ومدبره ورب جميع العوالم والكائنات. وكل إنسان عاقل يفرده تعالى بالتقرب بأعماله وطاعاته إليه ، دون غيره لأنه إله يستحق العبادة لذاته ، وهو مصدر خير الإنسان ونفعه ومنع الضرر عنه.

(١٢٧/٨)

و قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى قوله :
قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ استدل به الشافعي على افتتاح الصلاة بهذا الذكر ، فإن اللّه أمر به نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنزله في كتابه. و
في حديث علي رضي اللّه عنه : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، كان إذا افتتح الصلاة قال : وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ، وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ- إلى قوله : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ.
وروى مسلم أيضا هذا الحديث عن علي. وجاء فيه بعد قوله : وأنا من المسلمين : اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني
ج ٨ ، ص : ١٢٧
لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبّيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » .
وأخرجه الدار قطني أيضا وقال في آخره : بلغنا عن النّضر بن شميل ، وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و الشر ليس إليك »
: الشر ليس مما يتقرب به إليك.
ولم ير الإمام مالك إيجاب التوجه في الصلاة على الناس ، ولا قول :
« سبحانك اللهم وبحمدك » والواجب عليهم التكبير ثم القراءة ، بدليل
قوله صلّى اللّه عليه وسلّم للأعرابي الذي علّمه الصلاة : « إذا قمت إلى الصلاة فكبّر ثم اقرأ »
ولم يقل له :
سبّح ، كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل : وجهت وجهي ، كما يقول الشافعي. و

قال لأبيّ : « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ » قال : قلت : اللّه أكبر ، الحمد للّه رب العالمين.
فلم يذكر توجها ولا تسبيحا.
ويلاحظ أنه ليس أحد بأول المسلمين إلا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. فإن قيل : أوليس إبراهيم والنبيون قبله ؟ أجاب القرطبي بثلاثة أجوبة :
الأول- أنه أول الخلق أجمع معنى ، كما

في حديث أبي هريرة من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة »

و

في حديث حذيفة : « نحن الآخرون من أهل الدنيا ، الأوّلون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق »

.

الثاني– أنه أولهم لكونه مقدما في الخلق عليهم ، قال اللّه تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ

قال قتادة : إن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال فيما رواه ابن سعد : « كنت أول الناس في الخلق ، وآخرهم في البعث »

فلذلك وقع ذكره هنا مقدّما قبل نوح وغيره.

ج ٨ ، ص : ١٢٨

الثالث– أول المسلمين من أهل ملّته ، كما قال قتادة وابن العربي وغيرهما « ١ » .

وأما قوله تعالى : قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ فسبب نزوله أن الكفار قالوا للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفّل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك ، فنزلت الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوبيخ.

ودل قوله تعالى : وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها على أنه لا يؤاخذ بما أتت من المعصية ، وركبت من الخطيئة سواها.

واستدل الشافعي بهذه الآية على أن بيع الفضولي لا يصح.

ورد المالكية على ذلك فقالوا : المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ، بدليل قوله تعالى : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى .

و بيع الفضولي موقوف عند المالكية والحنفية على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز ، بدليل أن عروة البارقي قد باع للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم واشترى وتصرف بغير أمره ، فأجازه النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

وفي هذا الحديث دلالة على جواز الوكالة المتفق عليها بين العلماء ، وعلى أن الوكيل لو اشترى بالثمن المدفوع له كدينار أو درهم أكثر من المقدار المسمى ، كرطل لحم ، فاشترى به أربعة أرطال من تلك الصفة ، فإن الجميع يلزم الموكل إذا وافق الصفة ومن جنسها لأنه محسن ، وهو قول المالكية

والصاحبين من الحنفية. وقال أبو حنيفة : الزيادة للمشتري. وحديث عروة حجة عليه.
ودل قوله تعالى : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى على تقرير مبدأ المسؤولية الشخصية ، وهي مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى ، وللآية نظائر

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ١٥٥

ج ٨ ، ص : ١٢٩

كثيرة مثل : كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ [الطور ٥٢/ ٢١] كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ [المدثر ٧٤/ ٣٨] قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ [سبأ ٣٤/ ٢٥]. وهذا المبدأ المقرر في هذه الآيات رد على ما كان عليه العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بجريرة أبيه وابنه وحليفه.
ويؤيد ذلك
ما رواه أبو داود عن أبي رمثة قال : انطلقت مع أبي نحو النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال له : « ابنك هذا ؟ » قال : إي وربّ الكعبة ، قال : « حقا » قال : أشهد به ، قال : فتبسّم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ضاحكا من ثبت (استقرار) شبهي في أبي ، ومن حلف أبي علي ، ثم قال : « أما إنه لا يجني عليك ، ولا تجني عليه » وقرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى .

(١٣٠/٨)

أما قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ [العنكبوت ٢٩/ ١٣] فهو مبيّن في الآية الأخرى في قوله تعالى : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [النحل ١٦/ ٢٥] أي أن المضل يتحمّل أيضا إثم أتباعه في الضلالة ، فمن كان إماما في الضلالة ودعا إليها وتبعه الناس عليها ، فإنه يحمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضلّ شي ء.
الاستخلاف في الأرض [سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٥]
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)
ج ٨ ، ص : ١٣٠
الإعراب :
وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ دَرَجاتٍ مفعول رَفَعَ ، بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ورفع بعضكم فوق بعض إلى درجات ، فلما حذف حرف الجر اتصل الفعل به ، فنصبه.
المفردات اللغوية :

خَلائِفَ الْأَرْضِ أي يخلف بعضكم بعضا فيها وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ بالمال والجاه وغير ذلك. لِيَبْلُوَكُمْ ليختبركم فِي ما آتاكُمْ أعطاكم ، ليظهر المطيع منكم والعاصي. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ لمن عصاه وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ للمؤمنين رَحِيمٌ بهم.

المناسبة :

بعد أن أخبر اللّه تعالى أن مصير جميع الناس إلى اللّه للحساب والجزاء ، ختم السورة بخاتمة رائعة هي أنهم يخلف بعضهم بعضا ، لتستمر الحياة ، ويتنافس الناس في الأعمال النافعة.

التفسير والبيان :

جعل اللّه الناس خلائف في الأرض ، يخلف بعضهم بعضا فيها ، بأن أهلك من قبلهم من القرون والأمم الخالية ، واستخلفهم لعمارة الأرض بعدهم ، وجعلهم أيضا خلفاء أرضه يملكونها ويتصرفون فيها : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ [الحديد ٥٧/ ٧].

ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر ، والشرف والجاه ، والعلم والجهل ، والخلق والشكل ، والعقل والرزق. وهذا التفاوت ليس ما عجزا وجهلا وإنما لأجل الابتلاء والاختبار فيما أعطاكم ، بأن يعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك ، فيختبر الغني مثلا في غناه ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ، ويسأله عن صبره.

ج ٨ ، ص : ١٣١

ثم يكون الجزاء على العمل ، فقد يكون الإنسان مقصرا فيما كلف به ، أو قائما به ، فيأتي الجزاء تابعا للأعمال. ونظير الآية كثير في القرآن مثل :

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ [محمد ٤٧/ ٣١].

وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن اللّه مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » .

وأمام الناس بعد هذا الابتلاء إما العقاب وإما الثواب : إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وفيه ترهيب وترغيب ، فإن حساب اللّه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ، وهو أيضا شديد العذاب ، لا يهمل وإن أمهل.

ووصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت قريب ، والعقاب إما في الدنيا بإلحاق الضرر في النفس أو العقل أو العرض أو المال ، وإما في الآخرة بعذاب جهنم ، وقد يكون الأمران معا.

و هو تعالى غفور للتائبين رحيم بالمحسنين المؤمنين الذين اتبعوا الرسل فيما جاؤوا به من تكاليف إذ رحمته سبقت غضبه ، ووسعت كل شيء ، فجعل الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعفها أضعافا كثيرة لمن يشاء ، والسيئة بسيئة مثلها ، وقد يغفرها لمن تاب منها ، ويسترها في الدنيا فضلا وكرما وحلما.

قال ابن كثير : وكثيرا ما يقرن اللّه تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين :

المغفرة والعذاب ، كقوله : وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ [الرعد ١٣/ ٦] وقوله : نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ [الحجر ١٥/ ٤٩- ٥٠] إلى غير ذلك من

ج ٨ ، ص : ١٣٢

الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة ، والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ثلاثة أحكام :

الأول- الناس خلفاء الأرض ، يخلف بعضهم بعضا ، فكل جيل يخلف من قبله من الأمم الماضية والقرون السالفة.

الثاني- الناس في الدنيا درجات في الخلق والرزق ، والقوة ، والضعف ، والبسطة والفضل ، والعلم ، من أجل الابتلاء أي الاختبار ، فيظهر من الناس ما يكون غايته الثواب والعقاب ، ويختبر الموسر بالغنى ويطلب منه الشكر ، ويختبر المعسر بالفقر ويطلب منه الصبر.

الثالث- اللّه تعالى سريع العقاب ، شديد العذاب للكفار والعصاة ، غفور رحيم بالطائعين التائبين. وهذا ترهيب وتحذير من ارتكاب الخطيئة ، وترغيب في الطاعة والإنابة والتوبة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لو يعلم المؤمن ما عند اللّه من العقوبة ، ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند اللّه من الرحمة ، ما قنط أحد من الجنة ، خلق اللّه مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند اللّه تسعة وتسعون »

و

عنه أيضا قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « لما خلق اللّه الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي » .

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٠٠

(١٣٣/٨)

ج ٨ ، ص : ١٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية وهي مائتان وست آيات.

تسميتها :

سميت بسورة الأعراف لورود اسم الأعراف فيها ، وهو سور بين الجنة والنار ، قال ابن جرير الطبري : الأعراف جمع عرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه. روى ابن جرير الطبري عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هناك على السور حتى يقضي اللّه فيهم.

صفة نزولها :

هي مكية ، إلا ثمان آيات ، وهي قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ إلى قوله : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.

موضوعها :

نزلت هذه السورة لتفصيل قصص الأنبياء وبيان أصول العقيدة ، وهي كسورة الأنعام بل كالبيان لها ، لإثبات توحيد اللّه عزّ وجلّ ، وتقرير البعث والجزاء ، وإثبات الوحي والرسالة ، ولا سيما عموم بعثة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

ج ٨ ، ص : ١٣٤

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت سورة الأعراف التي هي من أطول السور المكية ما يلي من مبادئ العقيدة الإسلامية :

(١٣٤/٨)

١- القرآن كلام اللّه : افتتحت السورة بالتنويه بالقرآن العظيم معجزة الرسول الخالدة ، وأنه نعمة من اللّه ، وأنه يجب اتباع تعاليمه.

٢- أبوّة آدم عليه السلام : الناس جميعا من أب واحد ، أمر اللّه الملائكة بالسجود له سجود تعظيم وتحية ، لا سجود عبادة وتقديس ، والشيطان عدو الإنسان.

وقد أعيد التذكير بقصة آدم مع إبليس ، وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض ، بسبب وسوسة الشيطان رمز الشر والباطل وصراعه مع الإنسان الذي يدعو إلى عبادة اللّه وإلى الخير والحق ، تأكيدا لما ذكر في سورة البقرة.

٣- إثبات التوحيد : وهو الإقرار بوحدانية اللّه ، وعبادته وحده ، وإخلاص الدين له ، والاعتراف بحقه وحده في التشريع والتحليل والتحريم :

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ.

٤- الوحي والرسالة : الوحي ثابت يتضمن هنا إنزال القرآن على قلب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وجوهره التكليف بالرسالة الإلهية ، وبعثة الرسل إلى الناس :

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي.

٥- تقرير البعث والجزاء في عالم الآخرة : تضمنت السورة الكلام عن البعث والإعادة يوم القيامة : كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ والجزاء والحساب وانقسام الناس بسببه إلى فرق ثلاث : فرقة المؤمنين الناجين أهل الجنة ، وفرقة الكافرين الهالكين أهل النار ، وأصحاب الأعراف وهو سور بين الجنة والنار.

ج ٨ ، ص : ١٣٥

٦- أدلة وجود اللّه : أقام اللّه تعالى الأدلة الكثيرة على وجوده مثل خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمر اللّه ، وإخراج الثمرات من الأرض

٧- التهديد بالإهلاك : أهلك اللّه الأمم الظالمة عبرة لغيرها ، وأنذر الناس بإنزال العذاب المماثل ، ورغب بالإيمان والعمل الصالح لإفاضته الخيرات والبركات من السماء والأرض على الأمة : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ [الأعراف ٧/ ٩٦] وكذا لإرث الأرض والاستخلاف على الآخرين : قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف ٧/ ١٢٨].

٨- قصص الأنبياء : أورد اللّه تعالى مجموعة من قصص الأنبياء : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، للتذكير بأحوال المكذبين أنبياءهم ، وللعظة والعبرة ، ومن أدلّها قصة موسى مع

الطاغية فرعون ، وعقاب بني إسرائيل بالمسخ قردة وخنازير لما خالفوا أمر اللّه. وتشبيه عالم السوء بالكلب : وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ [الأعراف ٧/ ١٧٦].

٩- التنديد بعبادة الأصنام ، والتهكم بمن عبد ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وهياكل ، وذلك كله لتقرير مبدأ التوحيد الذي ختمت به لسورة كما بدئت به.

ج ٨ ، ص : ١٣٦

اتباع القرآن الكريم [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (١) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣)

الإعراب :

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ كِتابٌ إما خبر المص على قول من جعله مبتدأ ، أي أنا اللّه أفصل ، وإما خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا كتاب ، والثاني أولى.

لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ اللام متعلقة بأنزل ، وتقديره : كتاب أنزل إليك لتنذر به ، وفصل بينهما بقوله : فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ. وَذِكْرى إما مرفوع عطفا على كِتابٌ ، أو خبر مبتدأ تقديره : هذه ذكرى وإما منصوب عطفا على موضع لِتُنْذِرَ بِهِ أي إنذارا وذكرى ، أو عطفا على موضع هاء بِهِ وإما مجرور عطفا على لِتُنْذِرَ بمعنى :

للإنذار والذكرى.

قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ قَلِيلًا منصوب بفعل تَذَكَّرُونَ ، وما زائدة ، وتقدير النصب من وجهين : إما لأنه صفة لمصدر محذوف تقديره : تذكرون تذكرا قليلا ، أو لأنه صفة لظرف زمان محذوف ، تقديره : زمانا قليلا.

البلاغة :

حَرَجٌ مِنْهُ أي ضيق من تبليغه ، ففيه حذف مضاف.

مِنْ رَبِّكُمْ وصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين فيه إشعار بمزيد اللطف بهم ، وترغيب في امتثال الأوامر.

المفردات اللغوية :

المص تقرأ كما تقرأ الحروف الأبجدية ، أي ألف ، لام ، ميم ، صاد ، وقد ذكرت في أول سورة البقرة ومثلها آل عمران : أن هذه الحروف المقطعة يراد من افتتاح السور بها الإشارة إلى أن القرآن الكريم مركب من هذه الحروف العربية وأمثالها ، فهل يستطيع العرب المعروفون بالفصاحة

ج ٨ ، ص : ١٣٧

و البلاغة الإتيان بمثله ، وبما أنهم قد عجزوا ، فيدل ذلك على أنه كلام اللّه ، فحكمتها بيان إعجاز القرآن ، وتنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه من أحكام.

(١٣٧/٨)

و الغالب أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب مثل : « مريم والعنكبوت والروم وص ون » هي سور مكية لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحي. وأما السور المدنية التي بدئت بها كالبقرة وآل عمران (الزهراوين) فالدعوة فيها موجهة إلى أهل الكتاب.

حَرَجٌ ضيق مِنْهُ من تبليغه ، مخافة أن يكذبك الناس لِتُنْذِرَ متعلق بأنزل أي للإنذار به وَذِكْرى تذكرة نافعة وموعظة حسنة مؤثرة. قَلِيلًا ما ما حرف يؤكد معنى القلة تَذَكَّرُونَ أصله : تتذكرون.

التفسير والبيان :

بدأ اللّه تعالى هذه السورة المكية بالحروف الأبجدية المقطعة كغيرها من السور التي نزلت بمكة لإثبات النبوة والوحي.

هذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، أنزل إليك يا محمد من عند ربك ، بقصد الهداية والخير ، ووصفه بالإنزال للدلالة على عظيم قدره وقدر من أنزل عليه. فلا يكن في صدرك ضيق من الإنذار به وتبليغه للناس ، وتذكير أهل الإيمان به ذكرى تنفعهم وتؤثر فيهم.

ومن المعلوم أن كل نبي ومصلح يلقى عادة إيذاء ومقاومة لدعوته ، وصدودا وإعراضا عن رسالته ، وما على الداعية إلا الصبر والمثابرة ومتابعة الطريق :

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف ٤٦/ ٣٥]. لذا كان المراد من هذا النهي شد العزيمة والاجتهاد في مقاومة الصعاب ، وتحمل الشدائد ، انتظارا لما عند اللّه على ذلك من وعد بالخير والفضل.

وبما أن هذا الكتاب ذو مهام خطيرة ، فقد خاطب اللّه تعالى العالم بقوله :

اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره وراعيه ، فهو وحده صاحب الحق في التشريع وفرض العبادات والتحليل

ج ٨ ، ص : ١٣٨

و التحريم لأنه العليم بما هو مصلحة ، الخبير بما هو مضرة لكم ، فلا يشرع إلا الخير والسداد.

(١٣٨/٨)

و لا تتبعوا من دون اللّه أولياء ، كأنفسكم أو الشياطين التي توسوس لكم بما فيه الضرر والخطر ، والضلال والفساد ، والشر والسوء ، والإيهام بأن الأصنام شركاء ذات تأثير عند اللّه ، مع أنها أحجار لا تضر ولا تنفع ، أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره ، فتكونوا قد عدلتم عن الحق إلى الضلال ، وعن حكم اللّه إلى حكم الشيطان والأهواء. ولكنكم تتذكرون قليلا ، وتنسون الواجب عليكم نحو ربكم ، وهذا مثل قوله تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف ١٢/ ١٠٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- القرآن كلام اللّه المنزل على نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، والعقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي من عند اللّه تعالى لأن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أمي لا يقرأ ولا يكتب ولأنه كلام معجز لا يصدر عن بشر ولأن الأحداث ومرور الأزمنة تثبت تفوقه وصلاحه لكل الأوقات ، وهذا لا يمكن أن يتصف به تشريع وضعي.

٢- واجب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وسائر الأنبياء تبليغ الوحي المنزل ، وأما النتائج والآثار وانتصار الدعوات الإلهية فمردها إلى اللّه تعالى. وقد سرّى اللّه عن نبيه فنهاه عن أن يضيق صدره لعدم الإيمان به ، فإنما عليه البلاغ ، وليس عليه سوى الإنذار به ، من شيء من إيمانهم أو كفرهم ، كقوله تعالى : فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ [الكهف ١٨/ ٦] وقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [الشعراء ٢٦/ ٣].

ج ٨ ، ص : ١٣٩

٣- المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعصاة بسبب إعراضهم عنه ، وتذكير المؤمنين به لأنهم المنتفعون به.

٤- الأمر العام لجميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن ، وإحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه.

(١٣٩/٨)

و اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم داخل في ذلك لأن اللّه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته بقوله : وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل ١٦/ ٤٤] فدلت الآية على وجوب اتباع الكتاب والسنة.

٥- تحريم اتباع أحد من الخلق في الدين ، كما فعل أهل الكتاب في طاعة رهبانهم : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣١].

٦- ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي.

٧- المنع من عبادة أحد مع اللّه ، واتخاذ من عدل عن دين اللّه وليا ، علما بأن كل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه.

عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤ الى ٥]

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (٤) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٥)

الإعراب :

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ... كَمْ مبتدأ ، وجملة : أَهْلَكْناها صفة لقرية.

وفَجاءَها بَأْسُنا خبر المبتدأ ، ومعنى : أَهْلَكْناها : قارب إهلاكنا إياها. حتى لا يكون تكرار مع قوله : فَجاءَها بَأْسُنا. ويجوز أن تكون كَمْ في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه : فَجاءَها بَأْسُنا ، لا أهلكنا لأن أهلكنا صفة ، والصفة لا تعمل في الموصوف.

ج ٨ ، ص : ١٤٠

و بَياتاً منصوب على المصدر في موضع الحال.

أَوْ هُمْ قائِلُونَ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من أهل القرية.

البلاغة :

فَجاءَها على حذف مضاف تقديره : فجاء أهلها ، لقوله : أَوْ هُمْ قائِلُونَ ولا حاجة لتقدير المضاف الذي هو الأهل قبل قَرْيَةٍ أو قبل الضمير في أَهْلَكْناها لأن القرية تهلك كما يهلك أهلها.

بَياتاً ... وقائِلُونَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

وَ كَمْ اسم يفيد التكثير ، وهي خبرية قَرْيَةٍ مكان اجتماع الناس ، أو الناس أنفسهم أَهْلَكْناها أردنا إهلاكها أو قاربنا إهلاكها. بَأْسُنا عذابنا بَياتاً ليلا ، البينات :

الإغارة على العدو ليلا ، والإيقاع به على غرّة قائِلُونَ نائمون بالظهيرة ، من القيلولة : وهي استراحة نصف النهار ، وإن لم يكن معها نوم ، أي مرة جاءها ليلا ، ومرة جاءها نهارا.

دَعْواهُمْ قولهم ودعاؤهم.

المناسبة :

لما أمر اللّه تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ ، وأمر القوم بالقبول والاتباع ، ذكر في هذه الآية ما يترتب على المخالفة من عقاب ووعيد ، من طريق التذكير بإهلاك الأمم السابقة ، لمخالفتهم الرسل وتكذيبهم.

التفسير والبيان :

كثير من القرى وأهلها أهلكناهم بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فجاءهم العذاب أو الهلاك مرة ليلا كقوم لوط ، ومرة نهارا كقوم شعيب ، أتاهم العذاب على غرّة أو حين القيلولة : وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ، كما قال تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ.

أَوَأَمِنَ

أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ

[الأعراف ٧/ ٩٧- ٩٨] وقال :

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ، فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ [النحل ١٦/ ٤٥- ٤٧].

فما كان قولهم عند مجيء العذاب ، إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، أي لم يصدقوا بشيء عند الإهلاك إلا بالإقرار بأنهم كانوا ظالمين.

قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من قوله : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى الآتي :

١- إن عصيان أوامر الرسل وتكذيبهم موجب للخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. وعذاب الدنيا يأتي في وقت الغفلة واللهو ، إما ليلا أو حين القيلولة نهارا.

٢- كل مذنب حين توقيع العقاب الدنيوي عليه يعترف بجرمه ، ويندم على ما فرط منه.
٣- المقصود بالآية الإنذار والتخويف والعبرة بما حل بالأمم السابقة ، فيحملهم الخوف على إصلاح أمورهم ، والإقلاع عن معاصيهم : إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد ١٣/ ١١].
٤- الجزاء أو العقاب الإلهي في الدنيا حق وعدل ومطابق للواقع ، ولا يجيء العذاب إلا بعد العصيان وإعذار الناس من أنفسهم.

ج ٨ ، ص : ١٤٢

عاقبة الكفر في الآخرة والحساب الدقيق على الأعمال [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٦ الى ٩]

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنَّا غائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩)

الإعراب :

اللام في فَلَنَسْئَلَنَّ وفَلَنَقُصَّنَّ لام القسم ، المراد بها التوكيد.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ : الْوَزْنُ مبتدأ ، ويَوْمَئِذٍ خبره.

والحق : مرفوع من ثلاثة أوجه : إما لأنه صفة للوزن ، أو لأنه بدل من الضمير المرفوع في الظرف الذي هو خبر للمبتدأ ، أو لأنه خبر عن المبتدأ ، ويَوْمَئِذٍ : ظرف ملغى منصوب بالوزن.

البلاغة :

ثَقُلَتْ وخَفَّتْ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أي الأمم عن إجابتهم الرسل ، وعملهم فيما بلغهم وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ عن الإبلاغ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ لنخبرنهم عن علم بما فعلوه وَما كُنَّا غائِبِينَ عن إبلاغ الرسل ، والأمم الخالية فيما عملوا.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ للأعمال يوم القيامة الْحَقُّ العدل ، صفة الوزن فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ بالحسنات فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون. وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ بالسيئات فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتصييرها إلى النار يَظْلِمُونَ يجحدون آيات اللّه.

المناسبة :

بعد أن أنذر اللّه تعالى المخالفين رسلهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، أتبعه

ج ٨ ، ص : ١٤٣

بالتهديد بعذاب آخر يوم القيامة ، وأبان أنه يسأل جميع الناس عن أعمالهم ، سواء أهل العقاب وأهل الثواب. ولما بيّن في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة :

السؤال والحساب ، بيّن أن من جملة أحوال القيامة أيضا وزن الأعمال.

التفسير والبيان :

يسأل اللّه تعالى الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ الرسالات.

(١٤٣/٨)

فيسأل اللّه كل فرد من أفراد الأمم في الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل الرسل عن تبليغهم وعن مدى إجابة أقوامهم لهم ، وعما صدر منهم من إيمان أو كفر ، فهي مسئولية تضامنية عامة كما قال تعالى : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ [القصص ٢٨/ ٦٥] وقال : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : ما ذا أُجِبْتُمْ ؟ قالُوا : لا عِلْمَ لَنا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [المائدة ٥/ ١٠٩] وقال : ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ؟

[الأنعام ٦/ ١٣٠] ويوضح هذه المسؤولية بين الراعي والرعية

ما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن ابن عمر قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلّغوا.

ج ٨ ، ص : ١٤٤

و المراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم ، فلما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين ، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير.

(١٤٤/٨)

و التوفيق أو الجمع بين قوله : فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ وبين قوله : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ [الرحمن ٥٥/ ٣٩] وقوله : وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [القصص ٢٨/ ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة ، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض ، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة ، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.

وقال الرازي : إن القوم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها ، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها « ١ » ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.

فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم ، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير ، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية : فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ :

يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كان يعملون.

وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم في وقت أو حال ، بل كنا معهم نسمع قولهم ، ونبصر فعلهم ، ونعلم ما يسرون وما يعلنون ، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، كما قال : وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٢٣ [.....]

ج ٨ ، ص : ١٤٥

الْأَرْضِ ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ [الأنعام ٦/ ٥٩] فقوله : وَما كُنَّا غائِبِينَ يعني كنا شاهدين لأعمالهم.

و هذا دليل على أن السؤال ليس للاستعلام والاستفهام عن شيء مجهول عن اللّه تعالى ، بل للإخبار بما حدث منهم توبيخا وتقريعا على تقصيرهم وإهمالهم.

والمخبر به هو المحاسب عنه ، وهو الذي يعقبه الجزاء. ثم بيّن تعالى قانون الحساب والجزاء فقال : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ....

أي وزن الأعمال للرسل وأقوامهم والتمييز بين راجحها وخفيفها يوم القيامة يكون على أساس من الحق

والعدل التام ، فلا يظلم تعالى أحدا ، كقوله :
وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ [الأنبياء ٢١/ ٤٧] وقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً [النساء ٤/ ٤٠].
فمن ثقلت موازينه ، أي رجحت موازين أعماله بالإيمان والحسنات على السيئات ، فأولئك هم الفائزون بالجنة ، الناجون من العذاب. والموازين جمع ميزان أو موزون ، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات أو ما توزن به حسناتهم.
ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة سيئاته ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة والفوز بالنعيم الأبدي ، وصيروها إلى عذاب النار.
والفريق الأول وهم المؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم المفلحون ، وإن عذاب بعضهم بقدر ذنوبه ، والفريق الثاني وهم الكافرون على تفاوت دركاتهم هم الخاسرون حقا.
ج ٨ ، ص : ١٤٦
و هذا المعنى مكرر في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى :
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ ، فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ، وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ : نارٌ حامِيَةٌ [القارعة ١٠١/ ٦- ١١].

و الذي يوضع في الميزان يوم القيامة : هو الأعمال ، وهي وإن كانت أعراضا معنوية إلا أن اللّه تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما ، كما يروى عن ابن عباس.
جاء في حديث البراء في قصة سؤال القبر : فيأتي المؤمن شاب حسن اللون ، طيّب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح »
و
في حديث آخر أخرجه ابن ماجه والنسائي وابن خزيمة عن ابن مسعود : يتمثل المال الذي لم تؤدّ زكاته لصاحبه بصورة ثعبان شجاع أقرع له زبيبتان ، ثم يأخذ بلهزمتيه ويقول :
أنا مالك ، أنا كنزك ، ونصه : « ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله إلا مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع حتى يطوّق به عنقه ، ثم قرأ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [آل عمران ٣/ ١٨٠] الآية.
والدليل على أن الأعمال هي التي توزن :

ما أخرجه أبو داود والترمذي عن جابر مرفوعا : « توضع الموازين يوم القيامة ، فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة ، دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة ، دخل النار ، قيل : ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال :
أولئك أصحاب الأعراف » .
ونقل القرطبي عن ابن عمر أن التي توزن : صحائف أعمال العباد. وعقب عليه بقوله : وهذا هو الصحيح ، وهو الذي
ورد به الخبر وهو : « أن ميزان بعض بني آدم كاد يخف بالحسنات ، فيوضع فيه رقّ مكتوب فيه : لا إله إلا اللّه ، فيثقل »
فدل على وزن ما كتب فيه الأعمال ، لا نفس الأعمال ، وأن اللّه سبحانه يخفّف الميزان إذا أراد ، ويثقله إذا أراد بما يوضع في كفّتيه من الصحف التي فيها الأعمال.
ج ٨ ، ص : ١٤٧

و هل هناك ميزان حقيقة ؟ اختلف العلماء ، فقال مجاهد والضحاك والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكر الوزن ضرب مثل كما تقول : هذا الكتاب في وزن هذا وفي وزانه ، أي يعادله ويساويه ، وإن لم يكن هناك وزن ، أي أن المراد ظهور العدل التام في تقدير الجزاء على الأعمال.
وقال الجمهور : هناك وزن حقيقي وميزان ، لإظهار علم اللّه تعالى بأعمال عباده وجزائهم عليها. قال الزجّاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفّتان ، ويميل بالأعمال.
والأولى في الغيبيات أن نؤمن بها كما وردت في القرآن والسنة ، ونترك البحث عن صورتها وكيفيتها إلى اللّه عز وجل.
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآية الأولى : فَلَنَسْئَلَنَّ ... على أن الكفار يحاسبون ، جاء في التنزيل : ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ [الغاشية ٨٨/ ٢٦] بل إن المسؤولية أو الحساب شيء عام لجميع العباد حتى الرسل : وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح أي عن جواب القوم لهم ، وهو معنى قوله : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [الأحزاب ٣٣/ ٨] وسؤال القوم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح ، فهذه الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا رسلا أو مرسلا إليهم.
وأما قوله تعالى في سورة القصص : وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [٧٨] فهو إذا استقروا في

العذاب. والآخرة مواطن : موطن يسألون فيه للحساب ، وموطن لا يسألون فيه.
وقوله تعالى : فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ يدل على أنه تعالى عالم بالعلم ، وأن قول من يقول : إنه لا علم للّه قول باطل.
ج ٨ ، ص : ١٤٨
و قوله تعالى : وَما كُنَّا غائِبِينَ يدل على وجود المراقبة والمشاهدة الإلهية لأعمال الخلائق.

و الخلاصة : هذه الآية تثبت وجود السؤال والحساب لكل العباد يوم القيامة.
وأرشدت الآية الثانية إلى وزن أعمال العباد بالميزان ، وهو الحق لخبر جابر المتقدم ، وقيل : وزن صحائف أعمال العباد ، قال القرطبي : وهذا هو الصحيح.
والمراد من الميزان في قول مجاهد والضحاك والأعمش : العدل والقضاء ، والمراد به في رأي الجمهور : الميزان الحقيقي لإظهار علم اللّه تعالى بأعمال عباده وعدله في حسابهم وجزائهم عليها ، فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من الناجين ، ومن رجحت سيئاته على حسناته ، فهو من الهالكين المعذبين. قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفّتان فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته فذلك قوله :
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة ، فيوضع في كفّة الميزان ، فيخف وزنه حتى يقع في النار.
كثرة نعم اللّه على عباده [سورة الأعراف (٧) : آية ١٠]
وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠)
الإعراب :
مَعايِشَ مفعول جَعَلْنا وهي جمع معيشة ، وأصلها معيشة على وزن مفعلة ، إلا أنه نقلت كسرة الياء إلى العين ، ولا يجوز همزها لأن الياء فيها أصلية ، وأصلها في الواحد أن تكون متحركة. فإن كانت زائدة أصلها في الواحد السكون ، نحو كتيبة على فعلية ، همزت في الجمع ، فيقال : كتائب ، ونحو مدائن وصحائف وبصائر. وقد قرأ عبد الرحمن بن هرمز الأعرج « معائش » بالهمز على تشبيه الأصلية بالزائدة ، وهي قراءة ضعيفة قياسا.
ج ٨ ، ص : ١٤٩
المفردات اللغوية :

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ يا بني آدم ، أي جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها مَعايِشَ جمع معيشة ، وهي ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب وغيرها قَلِيلًا ما ما لتأكيد القلة تَشْكُرُونَ تلك النعم.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام وبقبول دعوتهم ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا : وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وبعذاب الآخرة من وجهين : السؤال والحساب : فَلَنَسْئَلَنَّ .. ووزن الأعمال : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ رغبهم في هذه الآية بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام عن طريق التذكير بكثرة نعم اللّه عليهم ، وكثرة النعم توجب الطاعة.

التفسير والبيان :

أقسم اللّه تعالى بقوله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ ليظهر امتنانه على عبيده بكثرة إنعامه عليهم ، بأن جعل الأرض لهم مكانا وقرارا ، وسلطهم أو أقدرهم على التصرف فيها ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب والمطر لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل فيها رواسي وأنهارا.

وجعل لهم فيها معايش من وجهين : إما بخلق اللّه تعالى ابتداء كخلق الثمار وغيرها ، أو بطريق العمل والاكتساب واتخاذ الأسباب والاتجار فيها ، وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل اللّه وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من اللّه تعالى ، وكثرة النعم لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد.

ولكن أكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك : قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي أنتم قليلو الشكر على هذه النعم التي أنعمت بها عليكم ، كما قال : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم ١٤/ ٣٤] وقال :

وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ [سبأ ٣٤/ ١٣].

و شكر النعمة : يكون بمعرفة اللّه المنعم معرفة تامة ، وحمده والثناء عليه بما هو أهله ، وأداء حقوق النعم وصرفها فيما خلقت من أجله ، بأداء حقوق اللّه تعالى ، واستعمال أعضاء الإنسان في مناحي الخير ورضوان اللّه وصرفها عن وجوه الشر والمعاصي ، وبالشكر بهذا المعنى تدوم النعم ويسعد الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام :

التذكير بنعم اللّه تعالى موجب للطاعة والانقياد عند أهل الإيمان ، لذا قلّ الشاكرون ، وكثر الجاحدون.
ومن أجلّ النعم تمكين الإنسان من الاستقرار في الأرض والتصرف بما فيها من خيرات ، والانتفاع بمنافعها الكثيرة ، وقد أثبتت رحلات الطيران والفضاء ، وصعود الإنسان إلى القمر وبعض الكواكب الأخرى في العصر العلمي الحديث مدى تعلق الإنسان بالأرض وحبّه لها وحنينه إليها عند بعده عنها.
ومن هذه النعم : تهيئة أسباب المعيشة في الأرض وتوفير ما يعاش به من ألوان المطاعم والمشارب وغيرها كما قال تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً [البقرة ٢/ ٢٩].
وهذا يدل على أنه لم تخلق هذه النعم إلا لخير الإنسان ، والحفاظ على الحياة البشرية ، فردا أو جماعة ، فأحرى بنا أن تكون هذه الحياة الجسدية أو المادية سببا أو عونا على تزكية الحياة الروحية وتطهير النفس ، وإعدادها للحياة الأخروية الأبدية.
فما أسعد أهل الإيمان والطاعة بالتزام الأوامر الإلهية ، واجتناب المعاصي والموبقات لأنه بالإيمان تطمئن النفس وبالطاعة تحفظ الأعضاء والطاقة الجسدية ، والكرامة الإنسانية.
ج ٨ ، ص : ١٥١
و ما أشقى أهل الكفر والفسوق والعصيان لأن الكفر يلازمه القلق والحيرة والاضطراب ، ولأن الفسق والمعصية يدمران الإنسان ماديا ومعنويا ، فيصبح حائر النفس ، ذليلا مهينا على الناس.

تكريم البشرية بالسجود لآدم وإغواء الشيطان وطرده من الجنة [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ الى ١٨]
وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١(١) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١(٢) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١(٣) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١(٤) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)
قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (١٧) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)
الإعراب :
ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ما استفهامية مبتدأ ، مَنَعَكَ جملة فعلية خبر المبتدأ ، وأَلَّا تَسْجُدَ في موضع نصب بمنعك ، وأَلَّا صلة زائدة ، والتقدير : ما منعك أن تسجد ، كما في آية أخرى : ما مَنَعَكَ

أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص ٣٨/ ٧٥] وتزاد كثيرا في كلام العرب. وفائدة زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه. صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ منصوب بفعل لَأَقْعُدَنَّ على تقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : لأقعدن لهم على صراطك ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه.

اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مذءوما : حال من الضمير المرفوع في اخْرُجْ.

ج ٨ ، ص : ١٥٢

البلاغة :

خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ على حذف مضاف ، أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم. ما مَنَعَكَ السؤال مع علمه تعالى بما منعه من السجود للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ استعار الصراط لطريق الهداية الموصل إلى الجنة.

المفردات اللغوية :

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ أوجدنا أباكم آدم بتقدير حكيم ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ أي صورناه وأنتم ذرأت في ظهره اسْجُدُوا لِآدَمَ سجود تحية واحترام إِلَّا إِبْلِيسَ أبا الجن الذي كان بين الملائكة أَلَّا تَسْجُدَ لا زائدة لتأكيد السجود إِذْ أَمَرْتُكَ حين الأمر فَاهْبِطْ مِنْها أي من الجنة ، وقيل : من السموات ، والهبوط : الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من منزلة إلى ما دونها أَنْ تَتَكَبَّرَ أن تجعل نفسك أكبر مما هي عليه مِنَ الصَّاغِرِينَ الذليلين من الصغار : وهو الذل والهوان.

أَنْظِرْنِي أخرني وأمهلني مِنَ الْمُنْظَرِينَ المؤخرين ، وفي آية أخرى : إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ أي يوم النفخة الأولى فَبِما أَغْوَيْتَنِي أي بإغوائك لي ، والإغواء : الإيقاع في الغواية : وهي ضد الرشاد ، والباء للقسم ، وجوابه : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ أي لبني آدم صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أي على الطريق الموصل إليك.

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ أي من كل جهة ، فأمنعهم من سلوكه ، قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة اللّه تعالى.

مَذْؤُماً معيبا أو ممقوتا ، من ذأم : عاب. مَدْحُوراً مبعدا مطرودا عن الرحمة لَمَنْ تَبِعَكَ من الناس ، واللام : للابتداء أو موطئة للقسم وهو لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ أي منك بذريتك ومن الناس ، وفيه تغليب الحاضر على الغائب. وفي الجملة معنى جزاء لَمَنْ الشرطية أي من تبعك أعذبه.

المناسبة :

رغّب اللّه تعالى في الآيات السابقة بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام ، بالتخويف أولا ، ثم بالترغيب ثانيا بالتنبيه على كثرة نعم اللّه تعالى على الخلق ،

ج ٨ ، ص : ١٥٣

ثم أتبعه ببيان أنه خلق أبانا آدم وكرّمه بأمر الملائكة بالسجود له ، والإنعام على الأب إنعام على الابن ، لكن قد يتعرض الناس لوسوسة الشيطان وإغوائه ، ولا يليق بهم مع هذه النعم العظيمة التمرد والجحود.

التفسير والبيان :

ذكر اللّه تعالى قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في سبعة مواضع في القرآن : في البقرة ، والأعراف (هذه السورة) والحجر ، وبني إسرائيل (الإسراء) والكهف ، وسورة طه ، وسورة ص.

ومضمون القصة هنا : التنبيه على تكريم آدم ، وبيان عداوة إبليس لذريته ، وحسده لهم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، وليشكروا اللّه على نعمه العظيمة.

والمعنى : لقد خلقنا أيها الناس أباكم آدم من الماء والطين اللازب ، ثم صورناه بشرا سويا ، ونفخنا فيه من روحنا ، ثم أمرنا الملائكة بالسجود له سجود تحية.

و ظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلق ذريته وتصويرهم ، وليس الأمر كذلك ، لذا تأول المفسرون الآية تأويلات أربعة ، اختار منها الرازي القول الأول وهو : خلقنا أباكم آدم وصورناه ، وبعد خلقه وتصويره أمرنا الملائكة بالسجود له ، ولم يتأخر هذا الأمر عن خلقنا وتصويرنا ، وذلك لأن آدم أصل البشر ، فالخطاب لنا من باب الكناية ، مثل قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ [البقرة ٢/ ٩٣] أي ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام ، وقال تعالى مخاطبا لليهود في زمان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم : وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ [البقرة ٢/ ٤٩] وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً [البقرة ٢/ ٧٢] ، والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم « ١ » .

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٣٠

ج ٨ ، ص : ١٥٤

فالمراد بذلك كله آدم عليه السلام ، وهو اختيار ابن جرير الطبري أيضا « ١ » .

قال ابن كثير : وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر.

وروى الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ أنه قال : « خلقوا في أصلاب

الرجال ، وصوروا في أرحام النساء » وقال أي الحاكم : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. فيكون معنى الآية : ولقد خلقناكم في ظهر آدم عليه السلام أمثال الذّر ، ثم صورناكم أي في الأرحام.

قال القرطبي : الصحيح من الأقوال ما يعضده التنزيل ، قال اللّه تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [المؤمنون ٢٣/ ١٢] يعني آدم. وقال :

وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها [النساء ٤/ ١] ثم قال : جَعَلْناهُ أي جعلنا نسله وذريته نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ [المؤمنون ٢٣/ ١٣] فآدم خلق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذريته صوّروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء « ٢ » . وهذا موافق لرأي الرازي والطبري ، ومبيّن تصوير بني آدم ، وهو جمع حسن بين الخلقين.

وأما السجود لآدم فمتفق عليه لقوله تعالى : ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ أي وبعد إتمام خلق آدم أمرنا الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم له ولذريته لا سجود عبادة إذ لا معبود إلا اللّه وحده ، وذلك حتى يعرفوا نعم اللّه عليهم ، فيشكروها ، وليحذروا إبليس ووساوسه بعد ما فعله قديما.

فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس الذي كان من الجن لا من الملائكة أبى واستكبر ، ولم يكن مع الساجدين.

فسأله اللّه : ما منعك ألا تسجد ؟ أي ما منعك وحال بينك وبين السجود ؟

---

(١) تفسير الطبري : ٥/ ٩٤

(٢) تفسير القرطبي : ٧/ ١٦٩

و لا هنا زائدة للتأكيد بدليل اية أخرى : ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ [ص ٣٨/ ٧٥].

فأجاب معتذرا متعللا : إني أنا خير منه ، خلقتني من النار ، وخلقته من الطين ، والنار بما فيها من خاصية الارتفاع والعلو والنور أشرف من الطين الذي يتسم بالركود والخمود والذبول ، والشريف لا يعظّم من دونه ، وإن خالف أمر ربه. هذا قياس إبليس ، وهو أول قياس ، لكنه باطل ، إذ لا يستدل على الخيرية بالطبيعة المادية ، وإنما تكون الخيرية بالمعاني والخصائص المفيدة فائدة أكثر ، وقد حبا اللّه آدم من العلوم والمعارف والتكريم ما لا يجهله إبليس نفسه.

و هذا كله مبني على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار أو سؤال وجواب بين اللّه وإبليس ، وما علينا إلا الإيمان بما دل عليه ظاهر الكتاب ، وندع أمر الغيب والحقيقة للّه عزّ وجلّ.

وكان جزاء المخالفة وعصيان الأمر الإلهي أنه تعالى أمر إبليس بالهبوط من الجنة التي خلقه اللّه فيها ، وكانت على مرتفع من الأرض لأن الجنة مكان المخلصين المتواضعين ، لا مكان المتمردين المتجبرين ، لذا قال تعالى : فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها أي فما ينبغي لك أن تتكبر في هذه الجنة المعدة للكرامة والإسعاد ، لا للتكبر والشقاء والعصيان.

فاخرج من هذا المكان ، إنك من الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض مقصوده ، ومكافأة لمراده بضده.

فاستدرك اللعين وسأل الإمهال إلى يوم الدين ، قال : أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي أمهلني إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته ، فأكون معهم حال الحياة للأخذ بالثأر من طريق الإغواء ، وأشهد انقراضهم وبعثهم.

فأجابه اللّه إلى مطلبه ، فقال له : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ المؤجلين إلى وقت النفخة الأولى حيث تصعق الخلائق ، وهي نفخة الفزع لقوله تعالى :

ج ٨ ، ص : ١٥٦

وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ [النمل ٢٧/ ٨٧]

وتسمى أيضا نفخة الصعق لقوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ [الزّمر ٣٩/ ٦٨].

أي إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى ، كما قال تعالى : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً [الحاقة ٦٩/ ١٣- ١٤].

و لما أنظر إبليس إلى يوم البعث واستوثق بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد ، فقال : فَبِما أَغْوَيْتَنِي .. أي كما أغويتني أو أضللتني. لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية آدم على طريق الحق وسبيل النجاة والسعادة ، ولأضلنهم عنها ، لئلا يعبدوك ولا يوحدوك ، بسبب إضلالك إياي ، وذلك بأن أزيّن لهم طرقا أخرى كلها ضلال وانحراف.

ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع (اليمين والشمال والأمام والخلف) إلا أتيتهم منها ، مترصدا لهم كما يترصد قاطع الطريق للمارّة.

ولا تجد أكثرهم شاكرين لك نعمتك ، ولا مطيعين أوامرك ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع ، وأصاب ما هو حاصل ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ،

فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [سبأ ٣٤/ ٢٠- ٢١].

ثم أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله : اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً أي اخرج من الجنة معيبا ممقوتا ، مبعدا مطرودا من رحمة اللّه.

ج ٨ ، ص : ١٥٧

و أقسم اللّه على أن من تبعك من بني آدم فيما تزينه له من الشرك والفسوق والمعصية ، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك أجمعين. وذلك كما في آية أخرى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [ص ٣٨/ ٨٥] وآية : قالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ ، وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً. إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء ١٧/ ٦٣- ٦٥].

واستثنى اللّه تعالى من إغوائه عباده المخلصين ، فقال تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ [الحجر ١٥/ ٤٢] وقال أيضا : قالَ : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص ٣٨/ ٨٢- ٨٣].

والمراد من كل هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان ، واختيارهما في أعمالهما.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- تكريم النوع الإنساني بسجود الملائكة لأصل الإنسان وهو آدم أبو البشر.

٢- الخلق والتصوير للّه وحده ، ولا يستطيع أحد من البشر فعل شيء منهما.

والخلق لغة : التقدير ، وتقدير اللّه : عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته لتخصيص كل شيء بمقداره المعين. والتصوير : عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ.

٣- رفض إبليس أمر اللّه بالسجود لآدم ، تكبرا منه واستعلاء لأنه رأى أن النار المخلوق منها أشرف من الطين الذي خلق منه آدم ، لعلوها وصعودها

ج ٨ ، ص : ١٥٨

و خفتها ، ولأنها جوهر مضي ء. قال ابن عباس والحسن البصري وابن سيرين :

أول من قاس إبليس ، فأخطأ القياس ، فمن قاس الدين برأيه قرنه اللّه مع إبليس. وقال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس أي المقاييس الفاسدة التي منها تفضيل النار على الطين ، وهو خطأ ، لما يأتي :

أما جوهر الطين ففيه الرزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء ، والصبر ، وهذا ما دعا آدم عليه السلام إلى التوبة والتواضع والتضرع.

والنار سبب للعذاب ، وهي عذاب اللّه لأعدائه ، وليس التراب سببا للعذاب. وذلك يدل على أن التراب أفضل من النار.

إن قياس إبليس هو القياس الفاسد المصادم للنص ، أما القياس الصحيح الموافق للنص فيجب العمل به شرعا لانسجامه مع النصوص. قال الطبري :

الاجتهاد والاستنباط من كتاب اللّه ، وسنة نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإجماع الأمة ، هو الحق الواجب ، والفرض اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكي : أجمعت الأمة على القياس فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والورق في الزكاة.

٤- إن جزاء الرفض لأمر اللّه من إبليس استوجب طرده من الجنة ، ذليلا معيبا ممقوتا مطرودا مبعدا من رحمته ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أبو نعيم عن أبي هريرة : « من تواضع للّه رفعه اللّه »

و

قال أيضا فيما رواه الديلمي في الفردوس : « من تكبر وضعه اللّه »

وقال بعضهم : لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار.

٥- سأل إبليس النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب ، وطلب ألا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده ، فأنظره اللّه إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم. وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية ، حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى اللّه ذلك عليه. لكن إنظار اللّه تعالى إبليس إلى يوم القيامة

ج ٨ ، ص : ١٥٩

لا يقتضي إغراءه بالقبيح لأنه تعالى كان يعلم منه أنه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق ، سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك ، فلم يكن ذلك الاعلام موجبا إغراءه بالقبيح.

٦- للشيطان دور في إغواء بعض الناس من طريق الوسوسة لهم ، والإغواء : إيقاع الغي في القلب ، والغي : هو الاعتقاد الباطل. ودل قوله تعالى : فَبِما أَغْوَيْتَنِي على أن اللّه تعالى أضلّ إبليس وخلق فيه الكفر ، لذا نسب الإغواء إلى اللّه تعالى ، وهو الحقيقة ومذهب أهل السنة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى.

٧- المراد من قوله تعالى : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ : أن الشيطان يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها. وتدل هذه الآية على أن إبليس كان عالما بالدين الحق ، والمنهج الصحيح لأن صراطك اللّه المستقيم هو دينه الحق.

٨- محاولات إغواء الشياطين لا تقتصر على وجه واحد ، وإنما تأتي من كل أوجه الحياة ، فينبغي الحذر من الشيطان ، لذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها ، كما روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يدعو : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي »

أي من الخسف.

٩- دلت آية : اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ .. على أن التابع والمتبوع تملأ جهنم منهما ، وهذا يشمل الكافر والفاسق ، مما يدل قطعا على دخول الفاسق النار ، والمذكور في الآية أنه تعالى يملأ جهنم ممن تبعه ، وليس في الآية أن كل من تبعه يدخل جهنم. وتدل الآية أيضا على أن جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم لأنهم كلهم تابعون لإبليس.

(١٦١/٨)

ج ٨ ، ص : ١٦٠

قصة آدم في الجنة وخروجه منها [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢(١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢(٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا

أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)
قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (٢(٤) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)

الإعراب :

ما نَهاكُما لَهُمَا نافية عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ الشَّجَرَةِ صفة لهذه ، وهي اسم جنس ، وأسماء الإشارة توصف بالأجناس.

إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ لَكُما متعلق بمحذوف ، وتقديره : ناصح لكما لمن الناصحين. ولا يجوز أن يكون متعلقا بالناصحين لأن الألف واللام فيه بمنزلة الاسم الموصول ، واسم الفاعل صلة له ، والصلة لا تعمل في الموصول ، ولا فيما قبله. فإن جعلت الألف واللام للتعريف ، لا بمعنى الذين ، جاز أن يتعلق بالناصحين ، وهو قول أبي عثمان المازني. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَمْ :

(١٦٢/٨)

تردّ الفعل المستقبل إلى معنى الماضي ، ودخلت إن الشرطية على لَمْ لتردّ الفعل إلى أصله وهو الاستقبال لأن إنْ الشرطية ترد الماضي إلى معنى الاستقبال ، فلما صار لفظ الفعل المستقبل بعد لَمْ بمعنى الماضي ، ردّتها إلى الاستقبال لأنها ترد الماضي إلى الاستقبال.

ج ٨ ، ص : ١٦١

البلاغة :

وَيا آدَمُ فيه إيجاز بالحذف ، أي وقلنا : يا آدم.

وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ عبر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها.

وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما أكد الخبر بالقسم وبأنّ واللام لدفع شبهة الكذب.

فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

اسْكُنْ أَنْتَ تأكيد للضمير في اسْكُنْ ليعطف عليه وَزَوْجُكَ هي حواء وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ بالأكل منها ، وهي الحنطة. فَوَسْوَسَ الوسوسة : الصوت الخفي المكرر ، والمراد منها هنا : ما يجده البشر في أنفسهم من الخواطر التي تزين ما يضر وُورِيَ من المواراة أي ما غطّي وستر مِنْ سَوْآتِهِما السوءة : ما يسوء الإنسان ويؤلمه ، وسوأة الإنسان :

عورته لأنه يسوؤه ظهورها ، قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور.

وأنه مستهجن طبعا وعرفا أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ أي الذين لا يموتون أبدا لأن الخلود لازم عن الأكل

منها ، كما في آية أخرى : هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ، وَمُلْكٍ لا يَبْلى [طه ٢٠/ ١٢٠].

وَقاسَمَهُما

أقسم لهما باللّه بكل تأكيد على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن باللّه.

قال الألوسي : وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحدا في فعل يجدّ فيه.

(١٦٣/٨)

فَدَلَّاهُما حطهما عن منزلتهما في الجنة بِغُرُورٍ بخداع منه بالباطل ذاقَا الشَّجَرَةَ أي أكلا منها بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أي ظهر لكل منهما قبله ودبره ، وسمي كل منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ، كما ذكر وَطَفِقا أخذا وشرعا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما يلزقان ويرقعان من ورق الجنة ورقة فوق ورقة ليستترا به عَدُوٌّ مُبِينٌ بين العداوة. والاستفهام بقوله : أَلَمْ أَنْهَكُما للتقرير.

المناسبة :

الآيات استمرار في الكلام عن النشأة الأولى للبشر ودور شياطين الجن في إغواء الناس. والقصد من القصة إرشاد الناس إلى طرق الهداية ، وتحذيرهم من وساوس الشياطين ، فإن الشيطان بسبب حسده لآدم وحواء سعى في المكر

ج ٨ ، ص : ١٦٢

و الوسوسة والخديعة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن. وقد ذكرت هذه القصة في القرآن في سبعة مواضع ، كما بينت في الآيات السابقة.

وكيف وسوس الشيطان لآدم ، الذي كان في الجنة ، وإبليس أخرج منها ؟

قال الحسن البصري : كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها اللّه تعالى فيه.

التفسير والبيان :

أباح اللّه تعالى لآدم عليه السلام وزوجه حواء المخلوقة منه سكنى الجنة ، وأن يأكلا من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ، فالأمر هنا أمر إباحة لا أمر تكليف.

وتلك الجنة في رأي الجمهور هي جنة الخلد ، وقيل : جنة من جنان السماء ، أو جنة من جنان الأرض.

وخاطب اللّه آدم أولا بطريق الوحي ، ثم خاطبه مع زوجته ، لتساويهما في الأكل من ثمار الجنة.

وما روي في الصحيحين عن أبي هريرة من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « فإن المرأة خلقت من ضلع

أعوج »
من باب التمثيل المراد به المنع من تقويم المرأة بالشدة والغلظة في المعاملة.

(١٦٤/٨)

و أباح اللّه بقوله : فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما لهما الأكل من مختلف ثمار الجنة ، ونهاهما عن الأكل من شجرة خاصة لم يعينها لنا في كتابه ، وقد علل النهي بأنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين لأنفسهما ، بفعلهما ما يعاقبان عليه.
وهذا امتحان من اللّه في إباحة الكثير وتحريم القليل.
فحسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ، فزيّن لهما ما يضرهما ويسوؤهما ، بأن تمثّل لهما
ج ٨ ، ص : ١٦٣
و كلّمهما ، لتنكشف عورتهما التي يؤثران سترها ، أي لتكون عاقبة ذلك ظهور العورة. قال الحسن البصري : كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها اللّه تعالى له. وهذا هو الرد على أن إبليس أخرج من الجنة وكان آدم فيها.
وقال كذبا وافتراء : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأحد أمرين : أن تكونا ملكين أو خالدين هاهنا لا تموتان وتبقيان في الجنة ساكنين ، أي لئلا تكونا ملكين « ١ » أو خالدين في الجنة ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك كقوله : قالَ : يا آدَمُ ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى [طه ٢٠/ ١٢٠]. وقال الزمخشري : إلا كراهة أن تكونا ملكين.
والسبب في اختيار هاتين الخاصتين : أن للملائكة مزايا وخصائص كالقوة والبطش ، وطول البقاء ، وعدم التأثر بأحوال الكون ، وأن الخلود في الجنة بدون موت البتة هو أمل الإنسان. أي أن إبليس أوهمهما أن الأكل من هذه الشجرة :
إما ليتصف الآكل بصفات الملائكة ، أو لتحقيق الخلود في الحياة.
وفي هذه إشارة إلى تفضيل الملائكة على آدم.
ثم حلف لهما باللّه وأقسم قسما مؤكدا : إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان.

(١٦٥/٨)

و قوله : قاسَمَهُما من باب المفاعلة المراد بها أحد الطرفين ، بقصد المبالغة وتغليظ القسم ، فإنه حلف لهما باللّه على ذلك ، حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن باللّه.

---

(١) وهذا مثل قوله تعالى : يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء ٤/ ١٧٦] أي لئلا تضلوا ، وقوله : وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل ١٦/ ١٥ ولقمان ٣١/ ١٠] أي لئلا تميد بكم.

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ أي ما زال يخدعهما ويغريهما بالترغيب في الأكل من الشجرة ، وبالوعد ، وبالقسم بالأيمان المغلّظة ، حتى نسيا أن اللّه أخبرهما أنه عدو لهما ، وتمكن من زحزحتهما وإسقاطهما من منزلتهما عند اللّه بسبب طاعتهما ، بما غرهما به من اليمين وزيّن لهما ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [طه ٢٠/ ١١٥]. ومعنى فَدَلَّاهُما فنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرهما به من القسم باللّه.

فلما ذاقا ثمرة الشجرة ، ظهرت عوراتهما ، وزال النور عنهما ، وشرعا يجعلان ورقة على ورقة من ورق أشجار الجنة العريض لستر العورة.

وناداهما ربهما معاتبا لهما وموبخا بقوله : أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ أي ألم أنهكما من الاقتراب من هذه الشجرة والأكل منها ، وأقل لكما : إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتماه أخرجكما من دار النعيم وهي الجنة إلى دار الدنيا وهي دار الشقاء والتعب في الحياة ، فاحذروا الشيطان كما قال : فَقُلْنا : يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ ، فَتَشْقى [طه ٢٠/ ١١٧].

قالا : رَبَّنا ظَلَمْنا .. أي قالا : ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بمخالفة أمرك وطاعة الشيطان عدوك وعدونا ، وإن لم تستر ذنبنا وترض عنا وتقبل توبتنا ، لنكونن من الذين خسروا الدنيا والآخرة : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ ، فَتابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة ٢/ ٣٧].

ثم خاطب اللّه آدم وحواء وإبليس بقوله : قالَ : اهْبِطُوا .. أي أنزلوا من هذه الجنة ، بعضكم عدو لبعض ، يعني أن العداوة ثابتة بين الجن والإنس لا تزول البتة ، فإبليس يعاديهما أي آدم وحواء وهما يعاديانه. فعلى الإنسان أن يحذر من وساوس الشيطان ، كما قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ [فاطر ٣٥/ ٦].

و الإخراج من الجنة كان هو العقاب على تلك المعصية ، أما العقاب الأخروي فقد عفا اللّه عنه بالتوبة

التي أذهبت أثره وقبلها اللّه تعالى ، كما قال : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى [طه ٢٠/ ١٢١- ١٢٢].

ثم أبان تعالى أجل الإنسان في الدنيا فقال : وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ..

أي لكم قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول ، فيها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم ، وفيها تموتون حين انتهاء الأجل ، ومنها تخرجون إلى البعث والجزاء بعد الموت حينما يريد اللّه : مِنْها خَلَقْناكُمْ ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى [طه ٢٠/ ٥٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

بعد إخراج إبليس من موضعه في السماء ، قال اللّه لآدم : اسكن أنت وحواء الجنة ، وهو أمر تعبد ، أو أمر إباحة وإطلاق ، من حيث إنه لا مشقة فيه ، فليس هو أمرا تكليفيا ، ولا يتعلق به تكليف.

و هذا دليل على أن سكنى آدم في الجنة كانت في مبدأ حياتهما ، ثم أمرا بالنزول إلى الأرض ، بسبب كيد الشيطان وحسده ووسوسته ، وكان أخطر سلاح استخدمه هو تغريرهما بالحلف المؤكد باللّه ، فانخدعا ، وقد يخدع المؤمن باللّه.

وقد فهم من آية : إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ تفضيل الملائكة على البشر ، كما في آيات كثيرة منها : وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ [الأنعام ٦/ ٥٠] ومنها :

لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

[النساء ٤/ ١٧٢] وقال الكلبي : فضلوا- أي المؤمنون- على الخلائق كلهم ، غير طائفة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت لأنهم من جملة رسل اللّه.

ج ٨ ، ص : ١٦٦

و اختار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة.

وأما هذه الآية أو الواقعة : إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ فكانت قبل النبوة.

ودلت آية : لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما على أن كشف العورة من المنكرات ، وأنه لم يزل مستهجنا في الطباع ، مستقبحا في العقول ، وأن اللّه أوجب ستر العورة ، ولذلك ابتدر آدم وحواء إلى سترها ، فمن دعا إلى كشف العورات سواء عند الرجال أو النساء فقد هتك ستر الحياء ، وأعاد الإنسان إلى البدائية الهمجية ، وجعل المرأة سلعة للمتعة والتسلية ولم يرع صون العرض الذي أمر به الدين واقتضته الفطرة السليمة ، وكان صنيعه مثل الشيطان :

يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما.

وكان ترغيب إبليس لآدم في مجموع الأمرين : الاتصاف بصفات الملائكة ، والخلود من غير موت البتة.

وكانت عقوبة آدم وحواء على المخالفة هي الهبوط إلى الأرض ، أما عقاب الآخرة فقد أسقطه اللّه تعالى بالعفو عنهما وبقبول توبتهما. وقد اختار الرازي أن هذا الذنب إنما صدر عن آدم قبل النبوة.

وأما آية : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. فدلت على أمرين :

١- وجود العداوة الدائمة بين الإنسان والشيطان ، ولما كانت العمدة في العداوة آدم وإبليس ، قال تعالى في سورة طه : اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً [١٢٣].

٢- توقيت بقاء الإنسان في الدنيا ، بحسب الأجل من الميلاد إلى الوفاة ، وفي الأرض يعيش الإنسان وذلك نعمة عظمي ، لأنها موضع قرار واستقرار ، واستمتاع بزخارف الحياة ، وتنعم بمختلف نعم الحياة ، ثم يأتي الموت ، ثم يأتي البعث والإخراج من القبور ، ثم يكون الحساب والجزاء في عالم الآخرة.

ج ٨ ، ص : ١٦٧

و مغزى هذه القصة كما أشرت في المناسبة : هو إرشادنا إلى ما فطرنا عليه ، وإلى ما يجب علينا من شكر اللّه وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، واجتناب معاصيه ، والحذر من وساوس الشيطان.

فإذا عرفنا غرائزنا وميولنا ، وعرفنا خطر عدونا وهو الشيطان ، وربّينا أنفسنا على تذكر عهد اللّه وميثاقه بأن نعبده وحده دون سواه ، ونزكي النفس بالأخلاق والآداب الحسنة ونعمل على تهذيبها ، كنا سعداء الدنيا والآخرة ، وأدينا رسالتنا في هذه الحياة.

توفير حوائج الدنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

الإعراب :

وَ لِباسُ التَّقْوى قرئ بالنصب عطفا على قوله : وَرِيشاً أي أنزلنا ريشا ولباس التقوى ، وقرئ بالرفع لخمسة أوجه : الرفع على أنه مبتدأ ثان ، وخَيْرٌ خبره ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول وهو ذلِكَ. أو يكون ذلِكَ فصلا ، وخَيْرٌ خبر المبتدأ ، أو يكون ذلِكَ وصفا للباس التقوى ، أو يكون بدلا ، أو عطف بيان ، كأنه قال :

ولباس التقوى المشار إليه خير. ورأى الزمخشري أنه مبتدأ ، وخبره إما جملة ذلِكَ خَيْرٌ وإما المفرد وهو خَيْرٌ ، وذلِكَ صفة للمبتدأ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير.

يَنْزِعُ عَنْهُما .. جملة فعلية في موضع نصب حال من الضمير في أَخْرَجَ.

ج ٨ ، ص : ١٦٨

مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ حَيْثُ مبنية على الضم ، لوجهين : إما لأنها مقطوعة عن الإضافة إلى المفرد لأنها لا تضاف إلا إلى الجمل ، فنزلت منزلة بعض الكلمة ، وبعض الكلمة مبني.

وإما لأنها أشبهت الحرف ، والحرف مبني ، فكذلك ما أشبهه.

البلاغة :

قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً مجاز مرسل ، أي أنزلنا مطرا ينبت القطن والكتان ، ويقيم البهائم ذات الأصواف والأوبار والأشعار.

وَلِباسُ التَّقْوى تشبيه بليغ ، من إضافة المشبه به إلى المشبه ، كما أضيف إلى الجوع في قوله : فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ.

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

المفردات اللغوية :

قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً أي خلقناه لكم ، واللباس : كل ما يلبس في السلم والحرب يُوارِي سَوْآتِكُمْ يستر عوراتكم وَرِيشاً الريش هنا والرياش : ما يتجمل به من الثياب فهو لباس الحاجة والزينة ، وأكثر أهل اللغة : أن الريش : ما ستر من لباس أو معيشة. وَلِباسُ التَّقْوى أي لباس الورع والخشية من اللّه تعالى ، بالعمل الصالح والسمت الحسن. ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ دلائل قدرته لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي يتذكرون فيؤمنوا. لا يَفْتِنَنَّكُمُ لا يضلنكم ، وأصل الفتنة : الابتلاء والاختبار ، والمعنى : لا تتبعوا الشيطان فتفتنوا وَقَبِيلُهُ جنوده وجماعته ، والقبيل كالقبيلة. مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ للطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ أعوانا وقرناء.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض ، وجعل الأرض مستقرا لهما ، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدين والدنيا ، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا. وذلك يقتضي شكر اللّه على نعمه العظيمة وعبادته بحق.

ج ٨ ، ص : ١٦٩

التفسير والبيان :

يمتن اللّه تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات ، والريش : ما يتجمل به ، والأول من الضرورات ، والثاني من التكملات والتحسينات.

(١٧١/٨)

يا بني آدم ، اذكروا نعمة اللّه عليكم وعلى أبيكم آدم من قبل ، بما وفرته لكم من حوائج الدين والدنيا كاللباس والرياش ، لستر العورات ، والاستمتاع بالزينة والجمال ، واتقاء الحر والبر. ومعنى إنزاله من السماء : خلقه وإنتاج مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما اقتضته الحاجة ، ثم تعلم صنعته وخياطته بإلهام من اللّه. وهذا الامتنان بنعمة اللباس والزينة دليل على الإباحة ، وهو مطابق لفطرة الإنسان بحب الزينة والتظاهر أمام الناس.

ويسن الحمد والشكر عند ارتداء الثوب الجديد ،

لما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من استجد ثوبا ، فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد للّه الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به ، كان في ذمة اللّه ، وفي جوار اللّه ، وفي كنف اللّه ، حيا وميتا » .

و

روى الإمام أحمد أيضا عن علي قال :

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول عند الكسوة : « الحمد للّه الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتي » .

ثم فضل اللّه تعالى على اللباس المادي أو الحسي لباس التقوى المعنوي فقال :

وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ وهو كما قال ابن عباس : الإيمان والعمل الصالح ، وقيل : هو السمت الحسن ، فهذا لا شك خير لصاحبه إذا أخذ به ، وأقرب له إلى اللّه تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به.

ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ معناه : ذلك المذكور وهو إنزال اللباس عليهم من

ج ٨ ، ص : ١٧٠
آيات اللّه الدالة على قدرته وفضله ورحمته على عباده. لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي أن هذه النعم تؤهلهم لتذكر فضل اللّه عليهم وشكره ، ومعرفة عظيم النعمة فيه ، والبعد عن فتنة الشيطان ، وإبداء العورات.

ثم حذر اللّه تعالى بني آدم من إبليس وجنوده ، مبينا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب في هتك عورته ، بعد ما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالى : أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف ١٨/ ٥٠].
كرر اللّه النداء لبني آدم على وفق الأسلوب العربي في مقام التذكير والوعظ ، فقال : لا يَفْتِنَنَّكُمُ أي لا تغفلوا عن أنفسكم ، ولا يصرفنكم الشيطان عن الدّين ، كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة ، فلا تصغوا لوسوسة الشيطان ، ولا تهملوا تحصين أنفسكم بالتقوى ، وصلوها دائما بذكر اللّه ، فيترتب على فتنة الشيطان ألا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم ووسوس لهما ، وزين لهما معصية ربهما ، فأكلا من الشجرة التي نهاهما عنها ، فأخرجهما من الجنة دار النعيم ، وتسبب في هبوطهما إلى الأرض.
أخرجهما من الجنة ، وتسبب أيضا في نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة ، لأجل أن يريهما سوءاتهما ، واللام في لِيُرِيَهُما هي لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل اللام في لِيُبْدِيَ لَهُما.
احذروا إبليس فإنه هو وجنوده من الجن يرونكم وأنتم لا ترونهم ، والضرر الناجم من العدو الذي لا يرى أخطر من العدو الظاهر المرئي.
والوقاية منه تكون بالاستعاذة باللّه منه ، وبتقوية الروح بالإيمان باللّه والصلة به ، وبمجاهدة النفس وعدم إصغائها للوساوس ، ثم محاولة طردها من
ج ٨ ، ص : ١٧١
النفس وتصفية آثارها منها ، من طريق التزام قواعد الشرع وآدابه وأخلاقه.

ثم أكد التحذير من الشيطان ، فأبان أنه تعالى جعل الشياطين أنصارا وأعوانا للكفار الذين لا يؤمنون باللّه تعالى إيمانا حقا تزكوا به نفوسهم وتصلح أعمالهم ، وذلك بسبب استعدادهم لقبول وسوسة الشيطان ، كاستعداد ضعفاء الأجسام لتقبل الأمراض بسرعة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية : يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ على وجوب ستر العورة لأنه قال : يُوارِي سَوْآتِكُمْ أي أنه تعالى جعل لذرية آدم لباسا يسترون به عوراتهم ، وفيه دلالة على الأمر بالتستر. ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس.

واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال الظاهرية والطبري : هي من الرجل الفرج نفسه : القبل والدّبر ، دون غيرهما لقوله تعالى : لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ ، بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما. لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما و

في البخاري عن أنس : « فأجرى- ركض- رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في زقاق خيبر- وفيه- ثم حسر الإزار عن فخذه ، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم » .

وقال مالك : السرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجته. وحجة مالك قوله صلّى اللّه عليه وسلّم لجرهد : « غطّ فخذك ، فإن الفخذ عورة » خرّجه البخاري تعليقا ، وقال : حديث أنس أسند ، وحديث جرهد « ١ » أحوط ، حتى يخرج من اختلافهم ، يعني أن الفخذ على الصحيح عند المالكية ليس بعورة ، لأنها ظهرت من النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم خيبر ، ولكن يكره كشفها ، لحديث جرهد.

---

(١) هو جرهد بن خويلد ، وهو صحابي.

ج ٨ ، ص : ١٧٢

و قال أبو حنيفة : الركبة عورة.

وقال الشافعي : ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح ، لكن يجب سترهما عند الشافعية من قبيل : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

و أما المرأة الحرة : فعورة كلها إلا الوجه والكفين ، عند أكثر أهل العلم ، بدليل قول جمهور الفقهاء : من أراد أن يتزوّج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفّيها ولأن ذلك واجب كشفه في الإحرام.

ودلت آية أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً .. وَرِيشاً على مزيد نعمة اللّه تعالى بتوفير ما يحتاجه الإنسان في الدنيا ، وليعينه على أمر الدين والآخرة.

لكن لباس التقوى : وهو الإيمان والعمل الصالح والسّمت الحسن في الوجه هو خير وأبقى ، وأخلد وأنقى ، وبه النجاة عند اللّه ، وهو طريق القربى إلى اللّه عز وجل ، لأن المعنى : ولباس التقوى المشار إليه ، الذي علمتموه ، خير لكم من لبس الثياب التي تواري سوءاتكم ، ومن الرياش التي أنزلنا إليكم

فالبسوه.

وقوله تعالى : يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ يدل على تحذير الناس من قبول وسوسة الشيطان لأن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبيّن فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان بدليل تأثيره على آدم وحواء وإيقاعهما في الزلة الموجبة لإخراجهما من الجنة ، فإذا أثر على آدم فكيف يكون حال آحاد الناس ؟

واللباس الذي نزعه الشيطان عن آدم وحواء : هو ثياب الجنة.

وقوله تعالى : مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ يدل على أن الإنس لا يرون الجن ، ويؤكده الخبر الذي أخرجه أحمد : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى

ج ٨ ، ص : ١٧٣

الدم »

وقوله تعالى : الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ [الناس ١١٤/ ٥] و

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود : « إن للملك لمّة وللشيطان لمّة- أي بالقلب- فأما لمّة الملك : فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، وأما لمّة الشيطان : فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

و فيما عدا هذا جاء في رؤية الجن أخبار صحيحة في البخاري ومسلم.

وعقيدتنا أنه لا قدرة للشيطان على البشر بوجه من الوجوه ، بدليل قوله تعالى :

ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [إبراهيم ١٤/ ٢٢].

واحتج أهل السنة بقوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ على أن اللّه هو الذي سلّط الشيطان الرجيم على الكافرين حتى أضلهم وأغواهم ، زيادة في عقوبتهم ، وتسوية بينهم في الذهاب عن الحق ، فأصبح الشيطان وليا لمن لا يؤمن.

تشريع المشركين تقليد الآباء وتشريع اللّه الوحي إلى رسوله [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

ج ٨ ، ص : ١٧٤

الإعراب :

كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ : الكاف في كَما في موضع نصب لأنها صفة مصدر محذوف ، تقديره : تعودون عودا مثل ما بدأكم.

فَرِيقاً هَدى ، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ : فَرِيقاً الأول منصوب بهدى.

وفَرِيقاً الثاني منصوب بتقدير فعل دلّ عليه ما بعده ، وتقديره : وأضل فريقا حق عليهم الضلالة. ويجوز أن يكون منصوبا على الحال من ضمير تَعُودُونَ وتقديره : كما بدأكم تعودون في هذه الحالة.

المفردات اللغوية :

فاحِشَةً الفاحشة : هي الفعلة المتناهية في القبح ، وهي كل معصية كبيرة ، كالشرك وطوافهم بالبيت عراة ، قائلين : لا نطوف في ثياب عصينا اللّه فيها ، فنهوا عنها أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أنه قاله ، وهو استفهام إنكاري.

بِالْقِسْطِ العدل والاعتدال والتوسط في جميع الأمور. وَأَقِيمُوا معطوف على معنى :

بالقسط ، أي قال : أقسطوا وأقيموا. وإقامة الشي ء : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه ، كإقامة الصلاة ، وإقامة الوزن بالقسط. وُجُوهَكُمْ الوجه معروف وهو أشرف أعضاء الإنسان ، والمراد هنا : إما العضو المعروف من الإنسان مثل قوله تعالى : فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ [البقرة ٢/ ١٤٤] وإما كناية عن توجه القلب وصحة القصد ، مثل قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً [الروم ٣٠/ ٣٠].

عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أي أخلصوا له سجودكم. وَادْعُوهُ اعبدوه. مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك. كَما بَدَأَكُمْ خلقكم ولم تكونوا شيئا. تَعُودُونَ أي يعيدكم أحياء يوم القيامة.

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم ، ذكر هنا أثرا من آثار تسلط الشياطين على الذين لا يؤمنون ، وهو طاعتهم لهم.

التفسير والبيان :

وإذا فعل المشركون فعلة فاحشة قبيحة ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم

ج ٨ ، ص : ١٧٥

كالشرك والطواف بالبيت عراة رجالا ونساء ، والأولى الحكم بتعميم معنى الفاحشة : وهي كل معصية

كبيرة ، فيدخل فيه جميع الكبائر ، قالوا : نحن في هذا مقلدون للآباء ، متبعون للأسلاف ، ويعتقدون أنها طاعات ، وأن اللّه أمرهم بها ، وهي في أنفسها فواحش ، فكانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش وهم لا يدركون فحشها بأمرين : أحدهما : أنا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا والثاني :
أن اللَّهُ أَمَرَنا بِها.

(١٧٧/٨)

أما الحجة الأولى- فلم يجب اللّه عنها لأنها إشارة إلى محض التقليد ، وهو عقلا طريقة فاسدة ، وفسادها ظاهر جلي لكل أحد ، فلم يحتج إلى الجواب عنه.
وأما الحجة الثانية وهي قولهم : وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها فقد أجاب عنه تعالى بقوله : قُلْ : إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أي إن هذه الأفعال منكرة قبيحة على لسان الأنبياء والمرسلين ، واللّه بكماله منزه عن أن يأمر بها ، فكيف يمكن القول بأن اللّه تعالى أمر بها ؟ ! والواقع إنما يأمر بها الشيطان ، كما قال تعالى : الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ [البقرة ٢/ ٢٦٨].
ثم أنكر اللّه تعالى عليهم قولهم باستفهام إنكاري فقال : أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ... أي أتسندون إلى اللّه من الأقوال ما لا تعلمون صحته ؟ ! فتشريع اللّه لا يثبت إلا بوحي منه إلى رسوله ، وأنتم تعملون بوحي الشيطان ، وتفترون على اللّه الكذب ، فهذا إنكار لإضافتهم القبيح إلى اللّه ، وشهادة على أن مبني قولهم الجهل المفرط.
وبعد أن أنكر تعالى صدور الأمر عنه بالفحشاء ، أعلن أنه إنما يأمر بالقسط والعدل : قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ أي قل يا محمد لهم : إنما يأمر ربي بالعدل والاستقامة والتوسط في الأمور دون إفراط ولا تفريط.
ج ٨ ، ص : ١٧٦
و أمر ربي بإيفاء عبادته حقها ، وأن تقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها ، في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود ، وهو الصلاة ، واعبدوه (ادعوه) مخلصين له الدين ، أي الطاعة ، مبتغين بها وجه اللّه خالصا.

(١٧٨/٨)

أي إن هذه الآية تأمر بشيئين : ١- الاستقامة في العبادة في أوقاتها ومحالّها ، كما جاء بها الأنبياء والمرسلون المؤيدون بالمعجزات فيما أخبروا به عن اللّه ، وما جاؤوا به من الشرائع. ٢- الإخلاص للّه

في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك « ١ » .

ثم احتج تعالى عليهم في إنكارهم الإعادة والبعث : بابتداء الخلق ، فقال :

كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ أي كما أنشأكم ابتداء يعيدكم ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة.

وأنتم حال البعث والحساب بين فريقين : فريق هداه اللّه ووفقه للعبادة والإيمان والإخلاص ، وهم الذين أسلموا ، وفريق حقت عليه كلمة العذاب والصرف عن طريق الثواب ، وحق عليه الضلالة لاتباعه إغواء الشيطان وإعراضه. عن طاعة اللّه ، وعلم اللّه أن أفراد هذا الفريق يضلون ولا يهتدون.

فسبب ثبوت الضلالة على هذا الفريق : هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون اللّه ، فقبلوا ما دعوهم إليه ، ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل.

إن الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء أي تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به. وهذا دليل على أن علم اللّه بضلالهم لا أثر له في ضلالهم ، وأنهم- كما قال الزمخشري المعتزلي- هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين ، دون اللّه سبحانه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٠٨

ج ٨ ، ص : ١٧٧

و أما على رأي أهل السنة القائلين بأن الهدى والضلال من اللّه تعالى ، فالمعنى أن الهدى والضلال إنما يحصل بخلق اللّه تعالى ابتداء ، ولكن الداعية التي دعتهم إلى ذلك الفعل هي أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون اللّه.

و الفريق الثاني يتصف بصفة أخرى هي أنهم يظنون أنهم مهتدون أي على بصيرة وهداية ، وهم في الحقيقة ضالون مخطئون : قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [الكهف ١٨/ ١٠٣- ١٠٤].

ويؤكد معنى الآية في الفريق الثاني

ما رواه مسلم عن عياض بن حمار قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : يقول اللّه تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم ، عن دينهم » .

وفسّر بعضهم : كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ بأنه كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال ، كذلك تعودون

وتخرجون من بطون أمهاتكم. قال ابن عباس :
إن اللّه تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، فَمِنْكُمْ كافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ [التغابن ٦٤/ ٢] ثم يعيدهم كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا. وهذا موافق
لحديث ابن مسعود في صحيح البخاري : « فو الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .
وبناء على هذا التأويل يكون هناك تعارض بينه وبين قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها [الروم ٣٠/ ٣٠] ومثله ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « كل

مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المتقدم.
والتوفيق بين آية : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ... وآية : فِطْرَتَ اللَّهِ ...

و ما يؤيد كليهما من الأحاديث : هو أن اللّه تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم.
وبعد هذا الخلق على هذا النحو الفطري السليم ، قدّر تعالى ، وعلم في علمه الأزلي القديم السابق أنه سيكون من الخلق المؤمن والكافر ، والشقي والسعيد ، وسيطرأ تغير على الحالة الأصلية التي فطروا عليهم ، وهو معنى قوله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، فَمِنْكُمْ كافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ أي سيؤول أمره في ثاني الحال إلى الكفر بعد الإيمان ، وقدر اللّه نافذ في بريته ، فإنه هو وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى [الأعلى ٨٧/ ٣] والَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدى [طه ٢٠/ ٥٠] « ١ » .
فقه الحياة أو الأحكام :
دلّت الآيات على ما يأتي :
١- تقليد الآباء والأسلاف مرفوض عقلا وطبعا لأن اللّه ميّز الإنسان بالعقل الذي يستطيع به التمييز بين الحق والباطل ، فإن كان الآباء على حق وخير ، جاز اتباعهم وتقليدهم ، وإن كانوا على ضلالة وشر ، وجب البعد عن منهجهم وطريقهم ، وإلا كانوا على جهل وخطأ.

٢- لا يأمر اللّه إلا بالعدل والاستقامة ، وهو منزّه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٠٩

ج ٨ ، ص : ١٧٩

٣- الواجب على المؤمن في عبادة ربه أمران : أن يكون فعله موافقا للصواب الذي قررته الشريعة ، وأن يكون خاليا من الشرك ، أي بأن يخلص العبادة للّه والطاعة ، وينأى عن وجوه الخطأ والانحراف.

٤- إعادة الخلق بالبعث مثل ابتداء الخلق الأول ، بل هو أهون : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم ٣٠/ ٢٧].

٥- قال الرازي : إنه تعالى أمر في هذه الآية : قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ... بثلاثة أشياء :

أولها : أنه أمر بالقسط : وهو قول : لا إله إلا اللّه ، وهو يشتمل على معرفة اللّه تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه ، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له.

وثانيها : أنه أمر بالصلاة ، وهو قوله : وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ.

وثالثها : أنه أمر بعبادته مخلصين له الدين « ١ » .

٦- الناس جميعا عند خلقهم مخلوقون مفطورون على فطرة التوحيد ومعرفة اللّه تعالى ، ثم يتغير حال بعضهم بمؤثرات البيئة والتعليم والتوجيه في البيت والمدرسة والمجتمع.

٧- يزيد اللّه تعالى المؤمنين هداية وتوفيقا إلى الخير ، بعد هداية أصل التوحيد ومعرفة اللّه ، وثبوت الضلالة على الكافر بسبب إصغائه لوساوس الشيطان : إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قال ابن جرير الطبري : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن اللّه لا يعذب أحدا على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٥٧

ج ٨ ، ص : ١٨٠

فيركبها عنادا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى فرق ، وقد فرق اللّه تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية « ١ » ، أي أن العذاب لا يكون فقط على حالة العناد والعلم بالصواب ، بل قد يكون على حالة الجهل والانحراف

والخطأ في تبين الصواب.

إباحة الزينة والطيبات من المآكل والمشارب [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

الإعراب :

فِي الْحَياةِ الدُّنْيا : يجوز أن يكون ظرفا للخبر الذي هو لِلَّذِينَ آمَنُوا ويجوز أن يكون خبرا.

خالِصَةً حال من الضمير الذي في لِلَّذِينَ الذي هو الخبر ، وهو العامل في الحال ، والعامل في الحال على الحقيقة هو الفعل المحذوف ، والتقدير : قل هي استقرت للذين آمنوا في حال خلوصها يوم القيامة.

ومن قرأ بالرفع خالِصَةً فهي خبر ثاني للمبتدأ وهو هِيَ والخبر الأول : لِلَّذِينَ آمَنُوا.

البلاغة :

عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ المراد بالمسجد هنا الطواف والصلاة ، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية لأنه لما كان المسجد مكان الصلاة أطلق الطواف والصلاة عليه ، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٥٩ ، ط البابي الحلبي.

ج ٨ ، ص : ١٨١

المفردات اللغوية :

خُذُوا زِينَتَكُمْ ما يزينكم ويستر عورتكم ، والمراد هنا الثياب الحسنة. عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ عند الصلاة والطواف ، أطلق مكان السجود وأريد به الصلاة والطواف.

قُلْ إنكارا عليهم. زِينَةَ اللَّهِ اللباس. الطَّيِّباتِ المستلذات. هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أي مستحقة لهم ، وإن شاركهم فيها غيرهم. خالِصَةً خاصة. نُفَصِّلُ الْآياتِ نبينها مثل ذلك التفصيل. لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ يتدبرون ، فإنهم المنتفعون بها.

سبب النزول :

روى مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية ، وهي عريانة ، وعلى فرجها خرقة ، وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ونزلت : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الآيتين.

وفي صحيح مسلم عن عروة قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس « ١ » ، – والحمس : قريش وما ولدت– كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا ، فيعطي الرجال الرجال ، والنساء النساء ، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة ، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات.

وفي غير مسلم : ويقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ، ولا يسار يستأجره به ، كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عريانا ، وإما أن يطوف في ثيابه فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسّه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللّقى.

---

(١) الحمس : سموا بهذا الاسم لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا ، والحماسة : الشجاعة.

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث اللّه نبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم فأنزل اللّه تعالى : يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ الآية. وأذّن مؤذّن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : ألا لا يطوف بالبيت عريان.

قال الكلبي : كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما في أيام حجهم ، يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : يا رسول اللّه ، نحن أحق بذلك ، فأنزل اللّه تعالى : وَكُلُوا أي اللحم والدسم وَاشْرَبُوا.

المناسبة :

بعد أمر اللّه تعالى عباده بالقسط : العدل والاستقامة في كل الأمور ، طلب إلينا أخذ الزينة في كل مجتمع للعبادة ، صلاة أو طوافا ، وأباح لنا الأكل والشرب من غير إسراف.

قال ابن عباس : إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى ، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا : لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب.

التفسير والبيان :

يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل عبادة من صلاة أو طواف ، والبسوا ثيابكم حينئذ ، والمراد بالزينة : الثياب الحسنة ، وأقلها ما به تستر العورة. فستر العورة واجب في الصلاة والطواف ، وما بعد العورة يسن ستره ولا يجب. وعورة الرجل كما عرفنا في الآيات السابقة : ما بين السرة والركبة ، وعورة المرأة جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين.

ج ٨ ، ص : ١٨٣

و اللباس مظهر حضاري رفيع ، والأمر بارتداء الثياب وستر العورة من محاسن الإسلام ، والإسلام هو الذي نقل القبائل العربية وغيرها من الأفارقة من البدائية والتخلف والتوحش إلى المدينة والحضارة.

ويؤيد مدلول الآية في إيجاب الستر

ما أخرجه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه ، فإن اللّه عز وجل أحق من تزيّن له ، فإن لم يكن له ثوبان ، فليتّزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود » .

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري عن أبي هريرة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ، ليس على عاتقه منه شي ء » .

ثم أباح اللّه الأكل والشرب من غير إسراف فقال : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ..

أي كلوا واشربوا من الطيبات المستلذات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال من غير تقتير ولا إسراف ، ولا بخل ولا زيادة إنفاق ، ولا تجاوز الحلال إلى الحرام في المأكل والمشرب ، إن اللّه لا يحب المسرفين ، في الطعام والشراب ، أي يعاقبهم على الإسراف الذي يؤدي إلى الضرر.

روى الإمام أحمد عن عبد اللّه بن عمرو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « كلوا ، واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن اللّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وروى النسائي وابن ماجه عن عبد اللّه بن عمرو أيضا بلفظ : « كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة » .

وروى الإمام أحمد والنسائي والترمذي عن المقدام بن معديكرب قال :

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب

ج ٨ ، ص : ١٨٤

ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلا لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »

.

قال بعض السلف : جمع اللّه الطبّ كله في نصف آية : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلا تُسْرِفُوا.

يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، فقال له علي : قد جمع اللّه الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له : ما هي ؟ قال : قوله عز وجل : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال علي : جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الطب في ألفاظ يسيرة. قال : ما هي ؟ قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » الحديث ، فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا « ١ » .

وقال البخاري : قال ابن عباس : « كل ما شئت ، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة » أي كبر وإعجاب بالنفس.

و الإسراف : تجاوز الحد في كل شي ء. واللّه تعالى يحب إحلال ما أحل ، وتحريم ما حرم ، وذلك العدل الذي أمر به ، فلا يصح تجاوز الحد الطبيعي كالجوع والعطش والشّبع والرّي ، ولا المادي بأن تكون النفقة بنسبة معينة من الدّخل لا تستأصله كله ، ولا الشرعي فلا يجوز تناول ما حرم اللّه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير اللّه ، والخمر ، إلا للضرورة ، ولا يحل الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة ، ولا لبس الحرير الطبيعي أو تشبه الرجال بالنساء أو بالعكس.

وبناء عليه يكون فعل كل من البخلاء والمترفين المسرفين حراما لا يسوغ

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ١٩٢ ، محاسن التأويل للقاسمي : ٧/ ٢٦٦٤

ج ٨ ، ص : ١٨٥

شرعا ،

أخرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » .

وأكد تعالى سنته وشريعته القائمة على الاعتدال ، فرد على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من اللّه ، فقال :

قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ... ؟

أنكر اللّه تعالى على أولئك الذين حرموا المباحات ، وأمر نبيه أن يقول مستفهما استفهام إنكار من

هؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم : من حرم الزينة والطيبات من الرزق التي خلق اللّه موادها لعباده ، وعلّمهم بما ألهمهم وأودع في فطرهم كيفية صنعها والانتفاع بها ، فهي مستحقّة مخلوقة لمن آمن باللّه وعبده في الحياة الدنيا ، وغيرهم تبع لهم ، فإن أشركهم فيها الكفار فعلا في الدنيا ، فهي للمؤمنين خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار فإن الجنة محرمة على الكافرين.

و مثل هذا التفصيل التام لحكم الزينة والطيبات ، نفصل الآيات الدالة على كمال الشرع والدين وصدق النبي وإتمام الشريعة لقوم يعلمون علوم الاجتماع والنفس والطب ومصالح البشر ، فيتدبرون ويتعظون ، لا لقوم يجهلون هذه العلوم والمعارف اللازمة لتقدم الإنسان والحضارة والمدينة والعمران ، فمعنى قوله :

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي كالذي فصلت لكم الحلال والحرام أفصّل لكم ما تحتاجون إليه.

وكل هذا دليل على أن الإسلام دين الكمال الروحي والعقيدة السليمة ، والسمو الخلقي ، وقوة الجسد والنفس للتغلب على مصاعب الحياة ، وتأدية رسالة الإنسان الذي جعله اللّه خليفة عنه في الأرض ، وسخر له كل ما في السموات والأرض فقال : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً [البقرة ٢/ ٢٩] وقال :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ [لقمان ٣١/ ٢٠].

ج ٨ ، ص : ١٨٦

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يترك الإسلام أو القرآن شيئا من شؤون الحياة المادية والمعنوية إلا أبانها وأوضح أحكامها ومقاصدها ، فلم يقتصر على وضع أنظمة التشريع للعلاقات الاجتماعية فحسب ، وإنما وضع أنظمة الحياة كلها ، مما يدل على أن القرآن شريعة الحياة.

ومن هذه الأنظمة وجوب ارتداء الملابس والثياب الحسنة وستر العورة لأنه مظهر حضاري رفيع ، ومنها إباحة المآكل والمشارب وطيبات الرزق من غير تقتير ولا إسراف ، ولا بخل ولا ترف. وهذا دليل على منهج الإسلام في التوسط بالأمور لأنه دين الوسطية.

ومن ألزم حالات الستر : أثناء الصلاة وعند تجمع الناس للطواف بالبيت الحرام وغيره.

و قد دلت آية خُذُوا زِينَتَكُمْ على وجوب ستر العورة. وذهب جمهور العلماء إلى أنه فرض من فروض الصلاة. بل هو– كما قال الأبهري– فرض في الجملة ، وعلى الإنسان ستر عورته عن أعين الناس في الصلاة وغيرها ، وهو الرأي الصحيح :

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم– فيما أخرجه مسلم– للمسور بن مخرمة : « ارجع إلى ثوبك ، فخذه ، ولا تمشوا عراة » .

ودلّ قوله تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا على إباحة الأكل والشرب ، ما لم يكن سرفا أو مخيلة ، أي كبر. قال الجصاص : ظاهر الآية يوجب الأكل والشرب من غير إسراف ، وقد أريد به الإباحة في بعض الأحوال ، والإيجاب في بعضها ، أما الإباحة ففي الحال التي لا يخاف الضرر بتركهما ، وأما الإيجاب ففي الحال التي يخاف لحوق الضرر بترك الأكل والشرب أو الضعف عن أداء الواجبات. وظاهر الآية يقتضي جواز أكل سائر المأكولات وشرب سائر

ج ٨ ، ص : ١٨٧

الأشربة مما لا يحظره دليل ، بعد أن لا يكون مسرفا فيما يأتيه من ذلك ، لأنه أطلق الأكل والشرب على شريطة ألا يكون مسرفا فيهما « ١ » .

فأما ما تدعو الحاجة إليه : وهو ما سد الجوعة ، وسكّن الظمأ ، فمندوب إليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس والجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال لأنه يضعف الجسد ، ويميت النفس ، ويضعف عن العبادة ، وهو أمر يمنع منه الشرع ، ويدفعه العقل.

وأما تناول الزائد عن الحاجة فقيل : حرام ، وقيل : مكروه. قال ابن العربي : وهو الأصح فإنّ قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطّعمان « ٢ » .

وقد رغب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في تقليل الطعام ،

فقال فيما رواه الترمذي عن المقدام بن معديكرب : « ما ملأ آدمي ووعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

و روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل في معى واحد »

المعى : المعدة. والمعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء ، والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معى واحد ، فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله ، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله لأن فقد الإيمان يجعله مقبلا على انتهاب اللذات والمتع المادية.

والإسراف بكثرة الأكل والشرب ممنوع شرعا لأن التخمة بالأكل تربك أعضاء الهضم ، وتذهب الفطنة ، وكثرة الشرب تثقل المعدة ، وتثبط الإنسان عن

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ٣٣

(٢) أحكام القرآن : ٢/ ٧٧١

ج ٨ ، ص : ١٨٨

القيام بواجبه الديني والدنيوي ، فإن أدى الإسراف إلى المنع من القيام بالواجب حرم ، وكان في عداد المسرفين الذين يعاقبهم اللّه تعالى.

ومن الإسراف : تحريم ما لم يحرمه اللّه على الناس. وقد أنكر اللّه على من حرّم من تلقاء نفسه من الزينة وهي الملبس الحسن ، ما لم يحرّمه اللّه على أحد.

ودلت آية : قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ على مشروعية لباس الرفيع من الثياب ، والتجمّل بها في الجمع والأعياد ، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان.

قال أبو العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا. و

في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حلّة سيراء « ١ » تباع عند باب المسجد ، فقال :

يا رسول اللّه ، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك ؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة »

فما أنكر عليه ذكر التجمّل ، وإنما أنكر عليه كونها سيراء.

وروى الترمذي عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

و ليس لبس الخشن من الثياب سببا في زيادة التقوى ، بالتذرع بقوله تعالى : وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ فإن كبار الصالحين كانوا يتجملون بالثياب الجياد للجمعة والعيد ولقاء الإخوان ، ولم يكن تخير الأجود قبيحا عندهم ، وقد اشترى تميم الداري حلّة بألف درهم ، كان يصلي فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد. و

روى مسلم عن ابن مسعود في النظافة وتحسين الهيئة : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : إن اللّه جميل يحب

الجمال ، الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس » .

---

(١) سيراء : نوع من البرود فيه خطوط صفر ، أو يخالطه حرير. [.....]

ج ٨ ، ص : ١٨٩

و طيبات الرزق حلال ، وهي اسم عام لكل ما طاب كسبا وطعما. وهي مستحقة في الأصل للمؤمنين المصدقين بوجود اللّه ، الموحّدين له ، وغيرهم تبع لهم يستمعون بها في الدنيا مع المؤمنين. أما في الآخرة فهي خاصة بالذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شيء ، كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها.

والخلاصة : الإسلام دين الواقع والحياة ، فهو يجمع بين المادة والروح ، ويستهدف الكمال المعنوي بالإيمان والأخلاق ، والكمال المادي بقوة الأجساد التي تكون عونا على أداء العبادات والجهاد في سبيل اللّه ، فالاستغناء عن الطعام والشراب فيه إضعاف البدن ، ويؤدي إلى التقصير في الواجبات.

وليست المظاهر من لبس الثياب الجميلة مخلّة بالتقوى والتدين ، كما أن التقشف والزهد المبالغ فيه لحرمان النفس من متع الحياة المباحة ليس مرغوبا فيه شرعا.

وإنما المهم إصلاح النفس بالأخلاق ، وعمارة القلب بالإيمان ، وتزكية النفس بالعمل الصالح والجهاد.

و لا يعقل أن يكون دين اللّه سببا لإضعاف أحد ، أو لتأخر الأمة ، وإنما الضعف أو التخلف ناجم من كسل الناس وتراخيهم وجهلهم ، وتفكك جماعتهم ، وتنافرهم وتباغضهم.

فالإنسان مستخلف عن اللّه في الأرض ، وهو أمين على ما فيها من خيرات وكنوز ومنافع ، ومسئول عن القيام بواجبه في تقدم الحياة وإصلاح العمران ، والسبق في الحياة بمختلف أنماطها الزراعية والصناعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والاجتماعية.

ج ٨ ، ص : ١٩٠

أصول المحرّمات على النّاس [سورة الأعراف (٧) : آية ٣٣]

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٣)

الإعراب :

ما ظَهَرَ مِنْها : إِنَّما : في موضع نصب على البدل من الْفَواحِشَ. وَأَنْ تُشْرِكُوا في موضع نصب بالعطف على الْفَواحِشَ ، وكذلك قوله : وَأَنْ تَقُولُوا.

البلاغة :

ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ يوجد طباق بين ظَهَرَ وبَطَنَ.

ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فيه تهكم لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره.

المفردات اللغوية :

الْفَواحِشَ الأفعال الزائدة في القبح ، التي تنفر منها الفطر السليمة والعقول الراجحة ، وهي الكبائر مثل الزنى والقذف والسّب القبيح والبخل ونحوها. ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ أي الجهرية والسرية. وَالْإِثْمَ المعصية مطلقا ، وهي تشمل الكبائر كما ذكر والصغائر مثل النظر بشهوة لغير الزوجة. وَالْبَغْيَ الظلم وتجاوز الحدود في الفساد والحقوق. سُلْطاناً حجّة.

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من تحريم ما لم يحرم وغيره.

المناسبة :

(١٩٢/٨)

وجه الرّبط بين هذه الآية وما قبلها واضح ، فلما أنكر تعالى على المشركين وغيرهم تحريم ما ليس بحرام كالزينة وطيبات الرّزق ، ذكر هنا أنواع المحرّمات وأصولها وهي خمسة ، جميعها مما يكسبه الإنسان لا من الخلقة والموهبة الفطرية.

ج ٨ ، ص : ١٩١

قال الكلبي : لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون ، فنزلت هذه الآية.

التفسير والبيان :

قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرّموا ما أحلّ اللّه من الطّيبات ، واللّباس : إنما حرّم اللّه خمسة أشياء هي أصول المحرّمات ، وهي ما يأتي :

١- الفواحش الظاهرة والباطنة- الجهرية والسرية : وهي الأعمال المفرطة في القبح ، ما ظهر منها وما بطن ، أو هي عبارة عن الكبائر ، لأنه قد تفاحش قبحها ، أي تزايد ، مثل الزنى والسرقة والخروج على الجماعة.

٢- والإثم أي ما يوجب الإثم والذّنب : وهو المعاصي الصغائر ، فكان معنى الآية : أنه حرّم الكبائر والصغائر ، مثل النظر بشهوة لغير الزوجة. وقيل :

الإثم : المعصية أو الذّنب مطلقا ، وهو عطف عام على خاص.

٣- والبغي : أي الظّلم وتجاوز الحدّ في الفساد والحقوق ، بالاعتداء على حقوق الناس الآخرين أفرادا وجماعات. وقيد البغي بكونه بغير الحق ، لأن التّجاوز إذا كان لمصلحة عامة أو مع التراضي ، فلا

شيء فيه.

٤- والشّرك باللّه : وهو أقبح الفواحش ، وهو أن يجعل مع اللّه إله آخر من صنم أو وثن أو شخص ، لم تقم عليه حجّة من عقل ولا برهان من وحي ، وسميت الحجّة سلطانا ، لأنها ترجح قول الخصم على غيره ، ويكون لها تأثير على عقل السامع وفكره ، وهي مثل قوله تعالى : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١١٧].

(١٩٣/٨)

و في هذا دلالة على أن البرهان أساس الاستدلال على صحة العقيدة ، وأن الإيمان لا يقبل بغير وحي من اللّه ، يدعمه الدّليل والبرهان.

ج ٨ ، ص : ١٩٢

٥- التّقول على اللّه بغير علم ولا حجّة : كالافتراء والكذب على اللّه ، بادّعاء أنّ له ولدا ، أو شريكا من الأوثان : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ [الحج ٢٢/ ٣٠] ، وتحليل الحرام وتحريم الحلال بلا سند ولا حجّة ، وهو القول بالرّأي المحض دون دليل من الشرع ، وهو سبب تحريف الأديان ، والابتداع في الدين الحق ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ [النحل ١٦/ ١١٦] ، وهو منهج أدعياء التجديد ، وتخطي الشريعة باسم الاجتهاد ،

كما روى الشيخان : « لتتبعنّ سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم ، قلنا : يا رسول اللّه ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وطريق الاجتهاد معروف في الشريعة : وهو النظر في القرآن والسّنة والإجماع نظرا صحيحا على أصول شرعية ، ثم القياس عليها ، أو الأخذ بالرأي الشامل للاستحسان والاستصلاح ونحوهما ، وهو الرأي المتفق مع روح الشريعة وأصولها ومبادئها العامة.

وقد أثير تساؤل حول هذه الآية ، مضمونه أن كلمة إِنَّما تفيد الحصر ، فقوله : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ كذا وكذا يفيد الحصر ، والمحرّمات غير محصورة في هذه الأشياء.

(١٩٤/٨)

و أجيب : بأن الجنايات محصورة في خمسة أنواع : أحدها- الجنايات على الأنساب ، وهي إنما تحصل بالزنى ، وهي المراد بقوله : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ. وثانيها- الجنايات على العقول ، وهي

شرب الخمر ، وإليها الإشارة بقوله : الْإِثْمَ. وثالثها- الجنايات على الأعراض. ورابعها- الجنايات على النفوس وعلى الأموال ، وإليهما الإشارة بقوله : وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وخامسها- الجنايات على الأديان ، وهي من وجهين : أحدها- الطّعن

ج ٨ ، ص : ١٩٣

في توحيد اللّه تعالى ، وإليه الإشارة بقوله : وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ. وثانيها- القول في دين اللّه من غير معرفة ، وإليه الإشارة بقوله : وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ فلما كانت أصول الجنايات هي هذه الأشياء ، وكانت البواقي كالفروع والتوابع ، جعل ذكر هذه المحرمات جاريا مجرى ذكر الكلّ ، فأدخل فيها كلمة : إِنَّما المفيدة للحصر « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت هذه الآية كما اتّضح من تفسيرها على تحريم أصول الأعمال المحرّمة ، وهي تشمل الانحراف عن العقيدة (الشرك باللّه) ومصادمة الشريعة : (القول في دين اللّه بغير علم ولا معرفة ، والجنايات على العقول (تحريم الإثم وهو يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضا لغة) بدليل قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

و الإثم كما قال الحسن البصري : الخمر ، وقال الجوهري في الصحاح : وقد يسمى الخمر إثما.

والجنايات على الأنساب (الزنى) والجنايات على النفوس والأموال (القتل والسرقة) والأعراض (القذف) وهو الظلم الاجتماعي والفردي المشار إليه بقوله تعالى : وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

و يظهر من ذلك أن أصول المحرّمات تتناول العقيدة والشريعة والأخلاق أو السلوك والآداب ، سواء ما تعلّق بالخطايا المقتصرة على النفس ، وهو الإثم ، والمتعدية ضررها إلى الناس وهو البغي.

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٦٧

ج ٨ ، ص : ١٩٤

أجل كلّ أمّة وفرد [سورة الأعراف (٧) : آية ٣٤]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

المفردات اللغوية :

أَجَلٌ وقت محدد ، أو مدّة معلومة في علم اللّه. ساعَةً أقل وقت يقضى فيه عمل ما.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى الحلال والحرام وأحوال التّكليف ، فأوضح مباحات الزّينة وطيّبات الرّزق من غير إسراف ، وأعقبه بذكر أصول المحرّمات لما فيها من الضّرر والفساد ، ذكر هنا أنّ لكل فرد أو جماعة أجلا معيّنا لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فإذا جاء الأجل مات كل واحد حتما ، وفي أثناء الحياة يعرف مدى اتّباع منهج اللّه في الحلال والحرام ، والغرض منه التّخويف ، ليتشدد المرء في القيام بالتّكاليف كما يلزم.

التفسير والبيان :

لكلّ أمّة ، أي قرن وجيل ، ولكلّ فرد وشيء في الوجود أيضا أجل معلوم وهو الوقت المحدد لانقضاء المهلة ، وهو يشمل الوقت المحدد للحياة الدّنيا ، ومدّة العزّة والسّعادة ، أو الذّل والشقاوة بين الأمم. فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أي ميقاتهم المقدّر لهم لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً أي أقلّ مدة من الزمن وَلا يَسْتَقْدِمُونَ عنها ، أي لا يتأخّرون عن ذلك الأجل المعيّن ولا يتقدّمون ، لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة ، إلا أنه تعالى ذكر الساعة ، لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

ج ٨ ، ص : ١٩٥

و في تعيين المراد بالأجل قولان :

الأول- لابن عباس والحسن البصري ومقاتل : وهو أن اللّه تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين ، فإذا جاء وقت عذاب الاستئصال ، نزل ذلك العذاب لا محالة.

والثاني- أن المراد بهذا الأجل : العمر ، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه.

قال الرازي : والقول الأول أولى ، لأنه تعالى قال : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ولم يقل ولكلّ أحد أجل. وعلى القول الثاني : إنما قال : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ولم يقل : لكلّ أحد ، لأن الأمّة هي الجماعة في كلّ زمان ، وهي مكوّنة من الأفراد ، وهي متقاربة في الأجل ، لأن ذكر الأمّة فيما يجري مجرى الوعيد أفحم وأبلغ.

وعلى القول الثاني : يلزم أن يكون لكل أحد أجل ، لا يقع فيه التّقديم والتّأخير ، فيكون المقتول ميتا بأجله.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن آجال الأمم والجماعات والأفراد مؤقتة محددة بوقت معين ، فإذا جاء أجل الموت ، لم يتأخّر ولم يتقدّم لحظة. وأجل الموت : هو وقت الموت ، وأجل الإنسان : هو الوقت الذي يعلم اللّه أنه يموت الحي فيه لا محالة ، وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه ، لا من حيث إنه ليس مقدورا تأخيره ، فليس

المراد منه أنه تعالى لا يقدر على تبقيته أزيد من ذلك ولا أنقص ، ولا يقدر على أن يميته في ذلك الوقت ، لأن هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادرا مختارا.

وفي هذا دليل على أن المقتول إنما يقتل بأجله.

ج ٨ ، ص : ١٩٦

أما الأجل المعنوي فللأمم دورات في التاريخ ، فقد تكون عزيزة سعيدة ، وقد تصبح ذليلة شقية.

وفي المقياس الشرعي : عزّة الأمّة وسعادتها بامتثال الشّرع ، والالتزام بالدّين ، والتّمسك بالأخلاق والفضائل ، وذلك لأجل معين.

وشقاء الأمة بإعراضها عن الدّين ، وابتعادها عن الفضائل والأخلاق ، وانتشار الرّذائل والمنكرات والمفاسد والمظالم في أوساطها ، وذلك يعجل دمارها ، ولها فيه أجل معيّن.

و قد تفضّل اللّه على الأمم بعد بعثة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم فرفع عنها عذاب الاستئصال والإبادة الجماعية ، لقوله تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ [الأنبياء ٢١/ ١٠٧].

وهذا ينطبق على الأمة الإسلامية وغيرها ، والآية تهديد ووعيد بالعذاب النازل في أجل معلوم عند اللّه ، لكلّ من يخالف أمر اللّه ، ويسير في الضلالة على غير هدى ، كأهل مكة ونحوهم من الأمم الباغية.

ما خوطبت به كلّ أمّة على لسان رسولها وإنذار المكذّبين بآيات اللّه [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٦]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦)

ج ٨ ، ص : ١٩٧

المفردات اللغوية :

إِمَّا أدغمت نون : إن الشرطية في ما الزائدة ، أي إن يأتكم. وضمّت « ما » إلى « إن » الشرطية تأكيدا لمعنى الشرط ، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة. يَقُصُّونَ القصص : اتّباع الحديث بعضه بعضا. آياتِي أي فرائضي وأحكامي. فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ شرط وما بعده جوابه ، وهو جواب الشرط الأول : إِمَّا. وقوله : وَأَصْلَحَ أي وأصلح منكم ما بيني وبينه. وقيل : جواب : إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ : ما دلّ عليه الكلام ، أي فأطيعوهم ، فمن اتّقى وأصلح.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى أن لكلّ أحد أجلا معيّنا لا يتقدّم ولا يتأخّر ، بيّن أحوال بني آدم بعد الموت ، إن

كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن ، وإن كانوا متمردين وقعوا في أشدّ العذاب.
التفسير والبيان :

(١٩٨/٨)

أنذر اللّه تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته ويخبرونهم بأحكامه وفرائضه ، فقال : يا بني آدم إن أتاكم رسول منكم ومن جنسكم يخبركم بما أوجبته عليكم ، وما وضعته لكم من أنظمة في العبادات والمعاملات والأخلاق ، وما أمرتكم به من صالح الأعمال ، وما نهيتكم عنه من الشّرك وقبائح الأفعال ، فأنتم في أحد حالين ، أحدهما يبشّر والآخر يحذّر :
فمن اتّقى اللّه وأصلح ما بيني وبينه ، فترك المحرّمات وفعل الطّاعات ، فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، ولا يطرأ عليه حزن حين الجزاء على ما فاته ، أو فلا خوف عليه من أحوال المستقبل ، ولا حزن عليه من أحوال الماضي.
وإنما قال : مِنْكُمْ لأن كون الرّسول من جنس المرسل إليهم أقطع لعذرهم ، وأبين للحجّة عليهم ، إذ معرفتهم بأحواله ترشدهم إلى أن المعجزات التي يؤيده اللّه بها بقدرة اللّه لا بقدرته ، وأن الجنس يألف جنسه.
ج ٨ ، ص : ١٩٨
و المقصود بقوله بِآياتِنا أي القرآن ، ودلائل التوحيد والألوهية ، والأحكام والشرائع ، فهي لفظ عام يدخل فيه كل ما ذكر ، لأن جميع هذه الأشياء آيات اللّه تعالى ، والرّسل إذا جاؤوا فلا بدّ وأن يذكروا جميع هذه الأقسام.
ومن كذّبت قلوبهم بآيات اللّه واستكبروا عن قبولها والعمل بها ، ورفضوها كبرا وعنادا للرّسل ، كما حدث من زعماء قريش حين تكبّروا على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأولئك أصحاب النّار ، ماكثون فيها مكثا دائما مخلّدا.
فقه الحياة أو الأحكام :
ينقسم الناس بعد دعوة الرّسل فريقين : فريق المؤمنين الطائعين المصدّقين دعوة الرّسل ، وفريق الجاحدين المتمّردين المكذّبين الدّعوة.

(١٩٩/٨)

أمّا الفريق الأوّل فيهنأ ويسعد بما يلقى من الجزاء الحسن يوم القيامة. ودلّ قوله تعالى : فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على أنّ المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رعب ولا فزع من أهوال يوم القيامة ، ولكنهم آمنون مطمئنون.

و أما الفريق الثاني فيجازى جزاء السّوء بالخلود في نار جهنّم. وقد استدلّ أهل السّنة بقوله تعالى : أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ على أن الفاسق من المسلمين أهل الصلاة لا يبقى في النار مخلّدا ، لأنه تعالى بيّن أنّ المكذّبين بآيات اللّه ، والمستكبرين عن قبولها ، هم الذين يبقون مخلّدين في النّار. وكلمة هُمْ تفيد الحصر ، فاقتضى ذلك أن من لا يكون موصوفا بذلك التّكذيب والاستكبار لا يبقى مخلّدا في النّار.

ج ٨ ، ص : ١٩٩

عاقبة الكذب ومشهد دخول الكفار إلى النّار [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

الإعراب :

حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا : حَتَّى ابتدائية يبتدأ بعدها الكلام ، وهو هاهنا الجملة الشرطية. يَتَوَفَّوْنَهُمْ حال من الرّسل ، ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ في موضع الحال ، أي كائنين في جملة أمم.

حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً : ادَّارَكُوا : أصله تداركوا على وزن تفاعلوا ، ثم أبدلت التاء دالا ، وأدغمت الدّال في الدّال ، فسكّنت الدّال الأولى ، والابتداء بالسّاكن محال ، فأدخلت ألف الوصل ، لئلا يبتدأ بالساكن.

جَمِيعاً : منصوب على الحال من الضمير في ادَّارَكُوا.

المفردات اللغوية :

فَمَنْ أَظْلَمُ ... فمن أشنع ظلما ممن تقوّل على اللّه ما لم يقله أو كذّب ما قاله ، أي لا أحد

ج ٨ ، ص : ٢٠٠

أظلم ممن افترى على اللّه الكذب ، بنسبة الشريك والولد إليه. أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ القرآن.
يَنالُهُمْ يصيبهم. نَصِيبُهُمْ حظّهم. مِنَ الْكِتابِ مما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرّزق والأجل وغير ذلك. حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا أي ملائكة الموت ، وحَتَّى ليست غاية ، بل هي ابتداء خبر عنهم ، ابتدئ بها الكلام. قالُوا لهم تبكيتا. تَدْعُونَ تعبدون.
ضَلُّوا عَنَّا غابوا عنّا ، فلم نرهم. وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ عند الموت.
ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ في جملة أمم سابقة. فِي النَّارِ متعلّق بادخلوا. كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ النّار. لَعَنَتْ أُخْتَها التي قبلها لضلالها بها. ادَّارَكُوا تلاحقوا واجتمعوا في النّار.
أُخْراهُمْ منزلة وهم الأتباع. لِأُولاهُمْ منزلة أي لزعمائهم وقادتهم وهم المتبوعون ، ومعنى لِأُولاهُمْ : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع اللّه ، لا معهم. عَذاباً ضِعْفاً مضاعفا على مثله مرّة أو مرّات. لِكُلٍّ ضِعْفٌ لكلّ منكم ومنهم عذاب مضاعف ، لأن كلّا من القادة والأتباع كانوا ضالّين مضلّين. وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ ما لكلّ فريق.

(٢٠١/٨)

فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ عطفوا هذا الكلام على قول اللّه تعالى للسّفلة : لِكُلٍّ ضِعْفٌ أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، لأنكم تكفرون بسببنا ، فنحن وأنتم متساوون في استحقاق الضّعف.
المناسبة :
بعد أن ذكر اللّه تعالى عاقبة المكذّبين بآيات اللّه ، المستكبرين عن قبولها ، ذكر هنا أن من أشنعهم ظلما وأعظمهم بغيا من يتقوّل على اللّه ما لم يقله ، أو يكذّب ما قاله ، والأوّل : مثل من يثبت الشّريك للّه من أصنام أو كواكب أو بنات وبنين ، أو ينسب الأحكام الباطلة إلى اللّه تعالى ، والثاني كمن ينكر أن القرآن نزل من عند اللّه تعالى على رسوله ، أو أنكر نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.
التفسير والبيان :
لا أحد أظلم ممن افترى على اللّه الكذب ، بأن أوجب ما لم يوجبه ، أو حرّم ما لم يحرّمه ، أو نسب إلى دينه حكما لم ينزله ، أو نسب إلى اللّه ولدا أو شريكا.
أو كذّب بآيات اللّه المنزلة بأن أنكر القرآن مثل كفار العرب ، أو لم يؤمن بالنّبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو استهزأ بالآيات أو تركها مفضلا عليها غيرها.
ج ٨ ، ص : ٢٠١
أولئك جميعا ينالهم ما كتب عليهم في كتاب المقادير الذي سجل فيه نظام العالم كلّه ، وقدّر لهم من الأرزاق والأعمار ، وكتب لمن كذب على اللّه أن وجهه مسود ، أي لهم ما وعدوا به من خير أو شرّ ،

بالرّغم من ظلمهم وافترائهم على اللّه.
حتى إذا جاءتهم الرّسل وهم ملائكة الموت يتوفّونهم ويقبضون أرواحهم ، قالوا لهم أي سألهم الرّسل تأنيبا وتوبيخا : أين الشّركاء الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم في الدّنيا من دون اللّه ؟ ! ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه! أجابوهم :
غابوا عنّا وذهبوا ، فلا ندري مكانهم ، ولا نرجو منهم النّفع والخير ، ولا دفع الضّرّ.
وأقرّوا واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم وعبادتهم إيّاهم كافرين.

و مفاد هذا زجر الكفار عمّا هم عليه من الكفر ، ودفعهم إلى النّظر والتّأمل في عواقب أمورهم القائمة على الكفر والضّلال.
ونظير المعنى في هذه الآية قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ [يونس ١٠/ ٦٩- ٧٠] ، وقوله : وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ [لقمان ٣١/ ٢٣- ٢٤].
ثمّ أخبر اللّه تعالى عمّا تقوله الملائكة لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه ، المكذّبين بآياته : ادخلوا النّار مع أمم أمثالكم وعلى صفاتكم ، قد سبقتكم في الكفر ، سواء من الجنّ والإنس ، فالقائل : إما مالك خازن النّار ، أو هو اللّه عزّ وجلّ ، أي قال اللّه : ادخلوا.
كلّما دخلت جماعة منهم النّار ، ورأت العذاب والخزي والنّكال ، لعنت أختها في الملّة والدّين التي ضلّت بالاقتداء بها ، إذ هي قد ضلّت باتّباعها وتقليدها في الكفر ، كما قال تعالى : ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ
ج ٨ ، ص : ٢٠٢
بَعْضاً
[العنكبوت ٢٩/ ٢٥] ، وهكذا يلعن أصناف الكفار بعضهم بعضا ، ويتبرّأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا ، كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة ٢/ ١٦٦- ١٦٧].

حتى إذا تداركوا وتلاحقوا في النّار ، واجتمعوا فيها كلّهم ، قالت أخراهم دخولا أو منزلة ، وهم الأتباع والسّفلة ، لأولاهم منزلة أو دخولا ، وهم المتبوعون والقادة والرؤساء ، لأنهم أشدّ جرما من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، قالت قولا يتضمن شكوى الأتباع إلى اللّه يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السّبيل. قال الزّمخشري : معنى لِأُولاهُمْ : لأجل أولاهم ، لأن خطابهم مع اللّه ، لا معهم. أي قالوا في شأنهم وحقّهم ولأجل إضلالهم.

وتلك الشكوى أنهم يقولون مخاطبين اللّه : ربّنا هؤلاء السّادة أضلّونا عن الحقّ ، فأعطهم عذابا مضاعفا من النّار ، أي ضاعف عليهم العقوبة ، كما قال تعالى : يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا. وَقالُوا : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٦٦- ٦٨].

فأجابهم اللّه : لكلّ منكم ومنهم عذاب مضاعف ، وقد فعلنا ذلك ، وجازينا كلّا بحسبه إما بالإضلال أو بالتقليد والضلال ، لأن كلّا من القادة والأتباع كانوا ضالّين مضلّين ، ولكنّكم لا تعلمون عذابهم.

والضّعف : المثل الزّائد على مثله مرّة أو مرّات. وهو مثل قوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ [النحل ١٦/ ٨٨] ، وقوله : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ [العنكبوت ٢٩/ ١٣] ، وقوله : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [النحل ١٦/ ٢٥].

ج ٨ ، ص : ٢٠٣

وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ ... أي قال المتبوعون للأتباع : إذا كنا قد أضللناكم ، فليس لكم فضل علينا ، فقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وأنتم سواء في استحقاق الضعف ، أي قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا ، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب.

فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ، أي تلقوا عذاب اللّه بما تسببتم به من الكفر والضلال. وهذا من قول القادة ، أو من قول اللّه لهم جميعا. وهو مثل قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ. قالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ. قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا : إِنَّا لَذائِقُونَ. فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ [الصّافات ٣٧/ ٢٧- ٣٣]. والمقصود من قوله :

فَذُوقُوا الْعَذابَ التّخويف والزّجر ، لأنه تعالى لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أن بعضهم يتبرأ من بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، كان ذلك سببا لوقوع الخوف الشديد في القلب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أيّ ظلم أشنع من الافتراء على اللّه تعالى بالتّحليل والتّحريم من غير حكم اللّه ، والتّكذيب بآيات اللّه قولا أو استهزاء أو استكبارا عن اتّباعها ؟ ! وبالرغم من هذا فإنّ هؤلاء المكذّبين ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل ، وما وعدوا به من خير وشرّ.

ومعنى : ما كتب لهم في اختيار الطّبري ، وهو المروي عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير : ما قدر لهم من خير وشرّ ورزق وعمل وأجل.

والمقرر أن السّادة والأتباع في الكفر سواء ، يدخلون النّار ، ويضاعف لهم العذاب ، إما بالإضلال وهو فعل السّادة ، أو بالتّقليد وإهمال العقل ، وهو فعل

ج ٨ ، ص : ٢٠٤

(٢٠٥/٨)

الأتباع. والتّعذيب ليس تشفّيا وانتقاما ، وإنما هو بسبب اقتراف السّيئات واعتقاد الكفر.

جزاء الكافرين [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

الإعراب :

وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ : غَواشٍ : مبتدأ مرفوع ، وخبره : وَمِنْ فَوْقِهِمْ. وأصل غَواشٍ : ألا ينصرف ، لأنه جمع بعد ألفه حرفان على وزن فواعل ، وهو جمع غاشية ، إلا أن التّنوين دخلها عوضا عن حذف الياء.

البلاغة :

لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ كناية عن عدم قبول العمل يوم القيامة. حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ فيه تشبيه ضمني ، أي لا يدخلون الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيل للاستحالة.

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ استعارة لما يحيط بهم من كلّ جانب مثل قوله :

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ [الزمر ٣٩/ ١٦].

المفردات اللغوية :

بِآياتِنا أدلّتنا على أصول الدّين وأحكام الشّرع ، كأدلّة إثبات وجود اللّه ووحدانيته ، وإثبات النّبوة ، والبعث والحساب والجزاء في الآخرة. وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها تكبّروا عنها فلم يؤمنوا بها. لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ

السَّماءِ لا يصعد لهم عمل صالح ولا دعاء ، أو لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا عرج بأرواحهم إليها بعد الموت ، فيهبط بها إلى سجّين (جهنم) بخلاف المؤمن ، فتفتح له ، ويصعد بروحه إلى السماء السابعة ، كما ورد في الحديث.

(٢٠٦/٨)

يَلِجَ يدخل. الْجَمَلُ البعير الذي نبت نابه. سَمِّ الْخِياطِ ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم الجنة مستحيل. وَكَذلِكَ الجزاء. نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ بالكفر ،

ج ٨ ، ص : ٢٠٥

و المراد بالإجرام : كلّ إفساد ، كإفساد الفطرة بالكفر. مِهادٌ فراش. غَواشٍ أغطية من النّار ، جمع أغشية ، وتنوينه عوض من الياء المحذوفة.

المناسبة :

المقصود من هذه الآيات إتمام وعيد الكفار لأنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة عن خلود المكذّبين بالقرآن في النّار ، المستكبرين عن الإيمان باللّه والنّبي والمعاد ، ثم أخبر عن استحالة دخولهم الجنة ، وعدم قبول أعمالهم الصالحة.

التفسير والبيان :

إن الذين كذبوا بآياتنا الدّالة على وحدانيتنا وصدق نبيّنا وصحّة النّبوات وإثبات المعاد ، لا يصعد لهم عمل صالح لخبث أعمالهم ، وإنّما يتقبّل اللّه من المتّقين ، ويقبل العمل الصالح ، ويرفع إليه الكلم الطيّب : لقوله تعالى :

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر : ٣٥/ ١٠] ، وقوله :

كَلَّا ، إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [المطففين ٨٣/ ١٨] ، فلا تفتح لأعمالهم وأرواحهم أبواب السّماء ، وهذا فيه جمع بين القولين في تفسير هذه الآية.

(٢٠٧/٨)

و لا يدخلون الجنّة أبدا بحال ، فهم مطرودون من رحمة اللّه ، فدخولهم الجنة مستحيل ، لقوله : حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وهذا أسلوب شائع بين العرب للدّلالة على الاستحالة ، فهم يقولون : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيضّ القار (الزّفت) وحتى يدخل الجمل في سمّ الخياط. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنّ المراد : حتى يدخل الجمّل أي الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، قال

ابن عباس رضي اللّه عنه : إن اللّه أحسن تشبيها من أن يشبه بالجمل ، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سمّ الإبرة ، والبعير لا يناسبه. قال الزّمخشري : إلا أن قراءة العامة الْجَمَلُ أوقع ، لأنّ سمّ الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرت الإبرة ، والجمل مثل في عظم الجرم.

ج ٨ ، ص : ٢٠٦

وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كلّ من أجرم في حقّ اللّه ، وفي حقّ نفسه ، وفي حقّ إخوانه المسلمين ، ليدلّ على أنّ الاجرام هو السّبب المؤدّي إلى العقاب ، وأن كلّ من أجرم عوقب. ثم كرر ذلك في آخر الآية التالية فقال : وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه.

ولهؤلاء المجرمين من نار جهنّم فراش يفترشونه من تحتهم ، وأغطية من فوقهم ، والمراد أن النّار محيطة بهم ، مطبقة عليهم من كلّ جانب ، كما قال تعالى : إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ [الهمزة ١٠٤/ ٨] ، وقال : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ [التوبة ٩/ ٤٩] ، وقال : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ [الزمر ٣٩/ ١٦].

(٢٠٨/٨)

وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين لأنفسهم ولغيرهم من الناس. وهذا دليل على أن المجرمين والظالمين هم الكافرون : لقوله تعالى : وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة ٢/ ٢٥٤] ، وبدليل أن الذين تقدّم ذكرهم هم المكذبون بآيات اللّه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيتان على ما يلي :

١- أعمال الكافرين المكذبين بآيات اللّه ، المستكبرين عنها غير مقبولة ، فلا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء.

٢- إنّ الجنّة في السّماء لأنّ المعنى : لا يؤذن لهم في الصّعود إلى السّماء ، ولا تطرق لهم ليدخلوا الجنّة.

٣- يستحيل على الكفار دخول الجنة ، فلا يدخلونها البتة ، ويحرمون منها أبدا وفي كلّ الأحوال.

ج ٨ ، ص : ٢٠٧

٤- عذاب النّار يحيط بالكافرين من كلّ جانب ، فلا يجدون فيها منفذا للخروج منها ، أو التّخفيف من العذاب ، فلهم منها غطاء ووطاء ، وفراش ولحاف.

٥- المجرمون : هم الكافرون لأن الذين تقدّمت صفتهم هم المكذبون بآيات اللّه ، المستكبرون عنها.

والظالمون أيضا : هم الكافرون لأنهم الذين أشركوا باللّه واتّخذوا من دونه إلها.

جزاء المؤمنين المتقين [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤(٢) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

الإعراب :

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... الَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ ، وخبره : أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ. ولا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها اعتراض وقع بين المبتدأ وخبره. ويجوز أن يكون التقدير فيه : لا نكلف نفسا منهم ، فحذف « منهم » كقوله تعالى : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ، إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [الشورى ٤٢/ ٤٣] أي إن ذلك الصبر منه ، أي من الصابر. وقال الرازي : إنما حسن وقوع هذا الكلام المعترض بين المبتدأ والخبر ، لأنه من جنس الكلام لأنه لما ذكر عملهم الصالح ، ذكر أن ذلك العمل في وسعهم.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ تَجْرِي جملة فعلية حال من الضمير صُدُورِهِمْ في صُدُورِهِمْ.

لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ : أن وصلتها : في موضع رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي : لولا

ج ٨ ، ص : ٢٠٨

هداية اللّه موجودة ، لهلكنا أو شقينا. ولا يجوز إظهار خبر المبتدأ بعد : لَوْ لا لطول الكلام بها ، كما لا يجوز إظهاره بعد القسم في قوله تعالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [الحجر ١٥/ ٧٢] أي لعمرك قسمي ، فلا يجوز إظهار الخبر لطول الكلام بجواب القسم.

أَنْ تِلْكُمُ أن مخففة من الثقيلة تقديره : ونودوا بأنه تلكم الجنة ، والضمير ضمير الشأن ، أو مفسرة ، أي معنى تفسير النداء ، والمعنى : ونودوا ، أي تلكم الجنة ، وهو الأجود عند الرازي.

المفردات اللغوية :

وُسْعَها طاقتها من العمل في الأحوال العادية ، لا في وقت الشدة والضيق.

وَ نَزَعْنا قلعنا. غِلٍّ حقد أو حسد وعداوة كان بينهم في الدنيا. تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ تحت قصورهم. وَقالُوا عند الاستقرار في منازلهم. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم ، وهو الإيمان والعمل الصالح. وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ اللام لتوكيد النفي ، يعنون : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين ، لو لا هداية اللّه وتوفيقه.

لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فكان لنا لطفا وتنبيها على الاهتداء ، فاهتدينا ، يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا ، وتلذذا بالتكلم به ، لا تقربا وتعبدا.

أُورِثْتُمُوها صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله.

المناسبة :

جرت سنة القرآن الجمع بين الوعيد والوعد ، فبعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين والعصاة ، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين.

التفسير والبيان :

لما ذكر اللّه تعالى حال الأشقياء وجزاءهم ، عطف عليه بيان حال السعداء وجزاءهم ، ليتميز المؤمن عن الكافر ، والمحق عن المبطل ، فقال : وَالَّذِينَ آمَنُوا .. أي والذين صدقوا باللّه ورسله ، وعملوا الصالحات ، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم المخلدون فيها أبدا.

وجاء قوله تعالى : لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها جملة اعتراضية ، للتنبيه

ج ٨ ، ص : ٢٠٩

على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب ، وأن العمل الصالح الموصل إلى الجنة سهل غير صعب ، فهو ليس شاقا ولا خارجا عن طاقة البشر ، بل يسهل على كل إنسان فعله ، متى توافر الإيمان ، وتأيد بهدي القرآن.

ومعنى الوسع : ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة ، لا في حال الضيق والشدة.

(٢١١/٨)

و من نعم اللّه تعالى على أهل الجنة صفاء نفوسهم وسلامة صدورهم ، لا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم ، ولا يحزنهم فزع ، ولا يحدث بينهم شر لأن اللّه نزع ما في صدورهم من حسد وحقد وعداوة وغل ونحوها من أمراض النفوس في الدنيا.

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى اذهبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، فو الذي نفسي بيده ، إن أحدهم بمنزلة في

الجنة أدل منه بمسكنة الذي كان في الدنيا » .

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : بلغني أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط ، حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم في الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وليس في قلوب بعضهم على بعض غلّ » .

وروى ابن جرير الطبري عن قتادة قال : قال علي رضي اللّه عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال اللّه تعالى فيهم :

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً [الحجر ١٥/ ٤٧].

ج ٨ ، ص : ٢١٠

و روى عبد الرزاق عن الحسن قال : قال علي : فينا واللّه أهل بدر

شاكرين نعمة اللّه وفضله : الحمد اللّه الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح ، الذي كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ومستوى تفكيرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا ، لو لا هداية اللّه وتوفيقه إيانا لاتباع رسله.

وقالوا أيضا حين رأوا مطابقة كل شيء لما أخبر به الرسل : لقد جاءت رسل اللّه بالحق ، وهذا مصداق وعد اللّه على لسان رسله.

ونادتهم الملائكة : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين ، هذه الجنة التي أورثكم اللّه إياها جزاء أعمالكم الصالحة.

(٢١٢/٨)

أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ، ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي :

١- الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

٢- التكليف على قدر الطاقة والوسع ، سواء في التكاليف الشرعية من عبادات وفرائض ، أو في التكاليف المالية كنفقات الزوجات ونحوها.

٣- من نعم اللّه عز وجل على أهل الجنة : نزع الغلّ الذي كان في الدنيا من صدورهم. والنزع : الاستخراج ، والغلّ : الحقد الكامن في الصدر.

ج ٨ ، ص : ٢١١

٤- استحقاق إرث الجنة من جهة العدل بالعمل الصالح ، ففي قوله تعالى :

أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ دليل على أن الإنسان يدخل الجنة بعمله. لكن دخولها يكون برحمة اللّه وفضله ، كما قال تعالى : ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ [النساء ٤/ ٧٠] وقال : فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ [النساء ٤/ ١٧٥].

وجاء في صحيح مسلم : « لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمة منه وفضل » .

يتبين من هذا أن إرث منازل الجنة بالعمل ، ودخولها بالرحمة والفضل الإلهي وهذا رأي القرطبي الذي قال : وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تنال إلا برحمته ، فإذا دخلوها بأعمالهم ، فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ، إذا أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم « ١ » . وهذا قريب من رأي ابن كثير ، فإنه قال : بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم « ٢ » .

(٢١٣/٨)

و يمكن التوفيق بنحو آخر أولى وهو أن عمل الإنسان مهما كثر لا يستحق به الجنة لذاته ، لو لا رحمة اللّه وفضله ، فإنه جعل الجزاء العظيم على العمل القليل ، فصار دخول الجنة برحمة اللّه وفضله.

والخلاصة : العمل الصالح في رأي أهل السنة لا بد منه لدخول الجنة في ميزان العدل وإيجاد تكافؤ الفرص بين جميع الناس ، لكن لا بد أن ينضم إليه رحمة اللّه وفضله ، فإنه جعل الجنة جزاء العمل فضلا منه ورحمة ، وكافأ على القليل بالكثير فضلا منه ورحمة ، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، كما فهم المعتزلة لأنه يستحيل عقلا إيجاب شيء على اللّه تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ٢٠٨- ٢٠٩

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢١٥

ج ٨ ، ص : ٢١٢

محاورة بين أهل الجنة وبين أهل النار والأعراف [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنادَوْا

أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)

الإعراب :

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ أَنْ بالتخفيف ، مخففة من الثقيلة ، وتقديره : أنّه لعنة اللّه ، فخفف وحذف اسمها وإحدى النونين وهي الأخيرة لأنها الطرف. ويجوز أن تكون أَنْ المخففة بمعنى « أي » مفسرة ، ولا موضع لها من الإعراب.

وتقرأ أنّ بالتشديد أيضا مع الفتح ، وتنصب اللعنة بها. ومن قرأ : إنّ بكسر الهمزة مع التشديد ، فإنه قدر القول كأنه قال : إن لعنة اللّه. وبَيْنَهُمْ منصوب على الظرف ، والعامل مُؤَذِّنٌ عند البصريين لأنه أقرب إليه من أذن ، وهو أذن عند الكوفيين ، لأنه الأول والعناية به أكثر.

يَعْرِفُونَ كُلًّا جملة فعلية في موضع رفع لأنها صفة لرجال.

وَهُمْ يَطْمَعُونَ بِسِيماهُمْ مبتدأ ، ويَطْمَعُونَ جملة فعلية في موضع خبر المبتدأ ، والمبتدأ وخبره في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في يَدْخُلُوها. ومعناه : أنهم يئسوا من الدخول ، فلم يكن لهم طمع فيه ، ولكنهم دخلوا وهم على يأس من ذلك.

المفردات اللغوية :

وَنادى للتقرير والتبكيت. ما وَعَدَنا رَبُّنا من الثواب ، والوعد يشمل الخير

ج ٨ ، ص : ٢١٣

و الشر. ما وَعَدَ رَبُّكُمْ من العذاب وتسميته هنا وعدا تهكم أو من قبيل المشاكلة. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ نادى مناد ، والأذان : رفع الصوت بالإعلام بالشي ء. لَعْنَةُ اللَّهِ اللعنة : الطرد من رحمة اللّه مع الإهانة والخزي. وَيَبْغُونَها يطلبون السبيل. عِوَجاً معوجا أو ذا عوج أي غير مستقيم ، والعوج : للمرئيات ، والعوج : لغير المرئي كالقول والرأي. حِجابٌ حاجز أو سور بين الجنة والنار. وَعَلَى الْأَعْرافِ جمع عرف وهو أعلى الشيء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، والمراد هنا : سور الجنة. رِجالٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم. بِسِيماهُمْ بعلامتهم ، وهي بياض وجوه المؤمنين ، وسواد وجوه الكافرين ، لرؤيتهم لهم ، إذ موضعهم عال. لَمْ يَدْخُلُوها أي أن أصحاب الأعراف لم يدخلوها الجنة. وَهُمْ يَطْمَعُونَ في

دخولها. صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ حوّلت أبصار أهل الأعراف. تِلْقاءَ جهة.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى وعيد الكفار وثواب أهل الطاعة والإيمان ، أتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين ، بعد استقرار كل فريق في موضعه من النار أو الجنة.

وهذه المناظرة تشعر بأن أهل الجنة يشرفون من علو على أهل النار ، وأن بعضهم يخاطب بعضا ليزداد أهل الجنة معرفة بمقدار النعمة ، ويزداد أهل النار حسرة على ما فرطوا في الدنيا.

ومع أن الجنة في أعلى السموات والنار في أسفل الأرضين ، فيمكن حصول هذا النداء مع هذا البعد الشديد ، لأن لعالم الآخرة أحوالا تختلف عن عالم الدنيا ، فيستطيع الإنسان أن يسمع ويرى من بعيد ، ولأن البعد والقرب ليس من موانع الإدراك ، كما قال الرازي.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى بما يخاطب به أهل النار تقريعا وتوبيخا ، وأن هذا النداء :

وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ إنما يحصل بعد استقرار الفريقين في

الجنة والنار ، بدليل ما ذكر في الآية المتقدمة من قوله تعالى : وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها.

وقوله تعالى : وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ يفيد العموم ، فهل النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار ، أو من البعض للبعض ؟ الجواب أن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

و المعنى : إن أصحاب الجنة بعد استقرارهم فيها ينادون أهل النار بعد استقرارهم فيها أيضا ، قائلين : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة الرسل من النعيم والتكريم حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والنكال حقّا ؟

والسؤال يتضمن تقرير أهل الجنة بصدق ما بلّغهم الرسل من وعد ربهم ، وتقريع وتوبيخ أهل النار على ما حدث منهم من جناية على أنفسهم بتكذيب الرسل. قالُوا : نَعَمْ قال سيبويه : « نعم : عدة أو تصديق » والمعنى أنهم أجابوا بالإيجاب ، فإنا وجدنا ما وعدنا به ربنا على الكفر ، وها نحن نتلظى في عذاب النار. وهذا يدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة ، بأن وعد اللّه ووعيده حق وصدق.

وهذا التقريع من اللّه يعقبه تقريع من الملائكة يقولون لهم : هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

[الطور ٥٢/ ١٤- ١٦].

وقد قرّع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الدنيا قتلى القليب (البئر) من الكفار يوم بدر فنادى : « يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة- وسمى رؤوسهم- هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا » وقال عمر : يا رسول اللّه ، تخاطب قوما قد جيفوا ، فقال : « و الذي نفسي

ج ٨ ، ص : ٢١٥

بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا » .

وكانت نتيجة الحوار أو المناظرة أن أذن مؤذن ، أي أعلم معلم ونادى مناد :

أن لعنة اللّه على الظالمين ، أي لعنة اللّه (الطرد من رحمته) مستقرة عليهم لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان. والمؤذن : إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره.

ثم وصف الظالمين بقوله : الَّذِينَ يَصُدُّونَ ... أي الذين يمنعون الناس عن اتباع سبيل اللّه وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويطلبون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة ، حتى لا يتبعها أحد.

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ أي وهم بلقاء اللّه في الدار الآخرة كافرون ، أي جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا ، فهم شر الناس أقوالا وأعمالا.

وبين الفريقين : أهل الجنة وأهل النار حجاب أي حاجز مانع من وصول أهل النار ، وهو السور الذي قال اللّه تعالى فيه : فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ، لَهُ بابٌ ، باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ [الحديد ٥٧/ ١٣].

وأعالي السور هي الأعراف التي قال اللّه تعالى فيها : وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ .. أي على أعالي ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلا منهم بعلامتهم من بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين ، كما وصفهم اللّه بها في قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ ، أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ [عبس ٨٠/ ٣٨- ٤٢].

وأهل الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهم موحدون قصرت

ج ٨ ، ص : ٢١٦

بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقفوا هناك حتى يقضى اللّه فيهم.

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عمن استوت حسناته وسيئاته فقال : « أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون » .

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري والبيهقي وغيرهما عن حذيفة قال : « هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم ربك فقال لهم :

اذهبوا فادخلوا الجنة ، فإني قد غفرت لكم » .

وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ ... أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة قائلين لهم : سلام عليكم ، وهو تحية خالصة بعد دخول الجنة لقوله تعالى :

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ، إِلَّا قِيلًا : سَلاماً سَلاماً [الواقعة ٥٦/ ٢٥- ٢٦].

نادوهم مسلّمين عليهم ، حال كونهم لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم يطمعون في دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، ولعلهم بسعة رحمة اللّه وفضله. تلا الحسن البصري هذه الآية : لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ فقال : واللّه ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم. والناس في ذلك الموقف يكونون بين الرجاء والخوف ، روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال :

لو نادى مناد : يا أهل الموقف ، ادخلوا النار إلا رجلا واحدا ، لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى : ادخلوا الجنة إلا رجلا واحدا ، لخشيت أن أكون ذلك الرجل.

وإذا حولت أبصار أهل الأعراف نحو أهل النار من غير قصد ، فرأوا وجوههم مسودة ، وأعينهم مزرقة ، قالوا متضرعين إلى اللّه تعالى : ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين أنفسهم.

ج ٨ ، ص : ٢١٧

و الآية تدل على أنهم ينظرون إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ، ويسلّمون عليهم ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا صرفت أي حولت أعينهم من غير قصد ولا رغبة إلى جهة أهل النار ، استغاثوا وتضرعوا ألا يكونوا معهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- تستهدف المناظرة أو الحوار أو المناداة بين أهل الجنة وأهل النار تقريع الكفار وتعييرهم ، ثم تحسم المناظرة بصوت مناد ينادي من الملائكة بأعلى صوته :

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

٢- الآية تدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة بأن وعد اللّه ووعيده حق وصدق ، ولا يمكن ذلك إذا كانوا عارفين يوم القيامة بذات اللّه وصفاته.

٣- أوقع المؤذن لعنة اللّه على من كان متصفا بصفات أربع :

أ- هي كونهم ظالمين أي مشركين أو كفارا بدليل وقوع المناظرة بين أهل الجنة وبين الكفار.

ب- وكونهم يصدون عن سبيل اللّه ، أي يمنعون الناس من قبول الدين الحق ، إما بالزجر وإما بالحيل.

ج- كونهم يبغونها عوجا أي يلقون الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق.

د- وهم بالآخرة كافرون ، وهذا تصريح بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين.

٤- إن أصحاب الأعراف أي السور القائم بين الجنة والنار ، يترددون بين

ج ٨ ، ص : ٢١٨

حالين : ينادون أصحاب الجنة ويسلّمون عليهم ويتأملون دخول الجنة فضلا من اللّه ورحمة ، وهم لم يدخلوها بعد ، ولكنهم يعلمون أنهم يدخلون. ويرون أهل النار فجأة من غير قصد ولا رغبة ، فيسألون اللّه تذللا وتضرعا ألا يجعلهم معهم ، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم.

وأصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، في رأي جماعة من الصحابة والتابعين ، قال ابن عطية : و

في مسند خيثمة بن سليمان حديث عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « توضع الموازين يوم القيامة ، فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة « ١ » ، دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار. قيل : يا رسول اللّه ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » .

المناظرة بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

الإعراب :

أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ الهمزة في أَهؤُلاءِ : همزة الاستفهام ، وهؤُلاءِ : مبتدأ ، والَّذِينَ : خبر مبتدأ محذوف تقديره : أهؤلاء هم الذين أقسمتم عليهم ،

(١) الصؤابة : بيض القملة.

ج ٨ ، ص : ٢١٩

فحذف عليهم. ولا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ : جواب أَقْسَمْتُمْ ، والقسم وجوابه في صلة الَّذِينَ.

لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ .. جملة النفي حال ، أي مقولا لهم ذلك.

المفردات اللغوية :

رِجالًا من أصحاب النار. ما أَغْنى عَنْكُمْ من النار. جَمْعُكُمْ المال أو كثرتكم واجتماعكم. وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أي واستكباركم عن الإيمان. أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ... أي ويقول أصحاب الأعراف لأهل النار مشيرين لهم إلى ضعفاء المسلمين.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى أثر التفاتة أصحاب الأعراف على أصحاب النار بقوله :

وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ ... أتبعه أيضا بأن أصحاب الأعراف ينادون رجالا من أهل النار. واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام لا يليق إلا بهم ، وهو قولهم : ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ ، ولا يليق أيضا إلا بأكابرهم.

التفسير والبيان :

هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين يعتمدون على قوتهم وغناهم ، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعفهم ، مضمونه الإخبار عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم وعلامتهم المميزة لهم.

ينادي بعض أهل الأعراف رجالا من المشركين يعرفونهم بعلاماتهم وهي سواد الوجوه وما عليها من الغبرة وزرقة العيون ، وتشوية الخلقة ، فيقولون لهم : ما أغنى عنكم جمع المال ، أو اجتماعكم وكثرتكم ، ولا استكباركم عن الإيمان برسالة محمد ، أي لم تنفعكم كثرتكم ، ولا جموعكم ولا تكبركم عن الإيمان من عذاب

ج ٨ ، ص : ٢٢٠

اللّه ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وكذلك لم ينفعكم تكبركم على الفقراء والمستضعفين المؤمنين.

وتبددت أفكاركم التي تزعم أن من أغناه اللّه في الدنيا ، وجعله قويا هو الذي له نعيم الآخرة ، كما قال

تعالى : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ، وَقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [سبأ ٣٤/ ٣٤- ٣٥].

ثم سألوهم سؤال توبيخ وتأنيب عن حال المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم في الدنيا بسبب إيمانهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم كصهيب الرومي وخبيب بن عدي وبلال الحبشي وآل ياسر ، وأشاروا إليهم :

أ هؤلاء هم الذين حلفتم في الدنيا ألا ينالهم اللّه برحمة لفقرهم وضعفهم وقلة أتباعهم ، وهم يرتعون في نعيم الجنة ويتمتعون بخيراتها ، والكفار يتحرقون في سعير جهنم ؟ ! ثم قال اللّه تعالى أو قالت الملائكة لأصحاب الأعراف الموقوفين على السور :

ادخلوا الجنة ، لا خوف عليكم في المستقبل ، ولا يطرأ عليكم حزن في حاضركم.

(٢٢٢/٨)

و فائدة المحاورة والقول : تبيان أن الجزاء على قدر العمل ، والترغيب في التسابق في أعمال الخير ، وأن المعول عليه ليس هو المال والغنى والقوة ، وإنما المنظور إليه هو العمل الصالح ، وأن الطائعين يتميزون بالنضرة ، وأن العصاة يعرفون بالغبرة والزّرقة وتشوه الخلقة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن معايير التفاضل وموازين التقدم والتفوق في الآخرة تختلف عما هي عليه في الدنيا ، فليس المال والقوة والتجمع أساس العزة والسعادة والنجاة في الآخرة ،

ج ٨ ، ص : ٢٢١

و إنما الأساس هو الإيمان والعمل الصالح ، ففريق الزعماء المشركين الأشداء المتكبرين والأغنياء هم في النار ، وفريق المؤمنين الأتقياء الضعاف المتواضعين للّه هم في أعالي الجنان.

وفضل اللّه ورحمته يشملان المقصرين أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهو رد على أهل النار الذين يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار ، فتقول الملائكة لأهل الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

ما يقوله أهل النار لأهل الجنة أو استغاثة أهل النار بأهل الجنة لإمدادهم بالطعام والشراب [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٠ الى ٥١]

وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ

يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١)

الإعراب :

(٢٢٣/٨)

حَرَّمَهُما فعل ماض ، لم يقل : حرّمه ، وإن كان التقدير : أفيضوا علينا أحد هذين ، لأن أو هاهنا للإباحة ، وهي لتجويز الجمع كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين. فيجوز أن يجمع بينهما ، فأشبهت الواو التي للجمع ، فحملت عليها. أي أنه ثنّى الفعل لأنه أقام أَوْ مقام الواو ، وإن كانت أَوْ لتجويز الجمع ، والواو لإيجاب الجمع.

كَما نَسُوا .. وَما كانُوا كَما في الحالين في تأويل المصدر ، والأولى هي في موضع جر بالكاف ، وتقديره : فاليوم ننساهم كنسيانهم لقاء يومهم هذا. والثانية في موضع جر بالعطف على كَما الأولى.

ج ٨ ، ص : ٢٢٢

المفردات اللغوية :

أَفِيضُوا عَلَيْنا أفاض الماء : صبه ، ثم استعمله في الشيء الكثير. أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من الطعام. حَرَّمَهُما منعهما. نَنْساهُمْ نتركهم في النار. كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا بتركهم العمل له. وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أي وكما جحدوا أي أنكروا.

المناسبة :

الآيتان استمرار في محاورة الناس يوم القيامة ، فبعد أن بيّن اللّه تعالى الحوار بين أهل الجنة وأهل النار ، والحوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار ، وما قاله الفريق الأول للثاني ، أتبعه بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة.

التفسير والبيان :

هذا مشهد من مشاهد سوء أهل النار يوم القيامة ، فاللّه يخبر عن ذلة أهل النار وسؤالهم الطعام والشراب من أهل الجنة ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

(٢٢٤/٨)

و معنى الآية : إن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام. وقوله : أَفِيضُوا معناه صبوا علينا من الماء أو النعم الشيء الكثير ، ومعنى قوله : أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي من غيره ، فيشمل الطعام والأشربة غير الماء. وقد استغاثوا بهم مع علمهم بأنهم لا

يجابون أبدا ، بسبب الحيرة في أمرهم ، ولشدة حاجتهم إلى الماء ، كما يفعل كل مضطر ، كالغريق وغيره. وقوله : أَفِيضُوا فيه دليل على أن الجنة فوق النار.

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس ، فقالوا : يا ربنا ، إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فأمر اللّه الجنة فتزحزحت ، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم ، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم ، وقد اسودّت وجوههم وصاروا خلقا آخر ، فنادى

ج ٨ ، ص : ٢٢٣

أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا : أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ. وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب ، بسبب شدة حر جهنم.

وهذا القول يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول. وقال آخرون : بل مع اليأس لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية : ينادي الرجل أباه أو أخاه ، فيقول له : قد احترقت ، فأفض علي من الماء ، فيقال لهم : أجيبوهم ، فيقولون : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ.

ومعنى قوله تعالى : قالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ : قال أهل الجنة : إن اللّه منع الكفار شراب الجنة وطعامها.

ثم وصف اللّه تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا ، باتخاذهم الدين لعبا ولهوا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، فقال : الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ....

أي إن هؤلاء الكفار تلاعبوا بدينهم وما كانوا به مجدين ، أو اتخذوا اللهو واللعب دينا لأنفسهم ، وجعلوا ديدنهم أعمالا لا تزكي الأنفس ولا تفيد ، بل هي لهو يشغل الإنسان عن الجد ، أو لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة ، فهي كأعمال الأطفال.

واغتروا في الحياة الدنيا بشهواتها وزخارفها وزينتها ولذاتها من الحرام والحلال. قال الرازي : وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا مجاز لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة ، بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا لأن الإنسان يطمع في طول العمر ، وحسن العيش ، وكثرة المال ، وقوة الجاه ، فلشدة رغبته

ج ٨ ، ص : ٢٢٤

في هذه الأشياء يصير محجوبا عن طلب الدين ، غرقا في طلب الدنيا « ١ » .

وكان جزاء التلاعب واللهو والغرور ما قاله تعالى : فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ ...

أي يعاملهم معاملة من نسيهم من الخير لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى [طه ٢٠/ ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ [التوبة ٩/ ٦٧] وقوله : كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى [طه ٢٠/ ١٢٦].

فمعنى قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ : نعاملهم معاملة الشيء المنسي ، فلا يذكرون بخير ، وإنما يتركون في النار. ومعنى كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا : كما فعلوا بلقائه فعل الناسين ، فلم يخطر لهم ببال ولم يهتموا به ، وكما أنكروا آيات اللّه ، ورفضوا ما جاءت به الرسل.

(٢٢٦/٨)

و الحاصل : أن اللّه تعالى يتركهم في عذاب النار ، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء اللّه يوم القيامة ، وكما جحدوا بآيات اللّه.

وقد سمى اللّه جزاء نسيانهم بالنسيان من قبيل المشاكلة ، كما في قوله تعالى :

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى ٤٢/ ٤٠] والمراد من هذا النسيان : أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على أن شراب أهل الجنة وطعامهم ممنوع حرام على الكافرين. وهو تحريم قهر وعقاب.

ودلت الآية الثانية على إهمال الكافرين في عذاب جهنم ومعاملتهم معاملة المنسيين ، لنسيانهم واجباتهم نحو ربهم في الحياة الدنيا ، وعلل تعالى ذلك

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٩٣

ج ٨ ، ص : ٢٢٥

بتعليلات مجملها أنهم كانوا كافرين ، وتفصيلها ووصف أحوالهم : أنهم اتخذوا دينهم لهوا أولا ، ثم لعبا ثانيا ، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثا ، ثم صار عاقبة هذه الأحوال أنهم جحدوا بآيات اللّه ، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة ، كما

قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البيهقي عن الحسن مرسلا ، وهو ضعيف : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

وأما من الناحية الفقهية بالمعنى الخاص فقد دلت الآية الأولى على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سئل ابن عباس : أي الصدقة أفضل ؟ فقال :
الماء ، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة : أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. و
روى أبو داود أن سعدا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : « أي الصدقة أعجب إليك ؟ قال : الماء »
فدل على أن سقي الماء من أعظم القربات عند اللّه تعالى. وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء.
وقد غفر اللّه ذنوب الذي سقى الكلب فيما رواه البخاري عن أبي هريرة ، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا موحدا وأحياه ؟ !

(٢٢٧/٨)

و في حديث عائشة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما رواه ابن ماجه في السنن- عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « من سقى مسلما شربة من ماء حيث يوجد الماء ، فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها » .
واستدل بهذه الآية من قال : إن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده لأن معنى قول أهل الجنة : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ لا حق لكم فيها. و
روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « و الذي نفسي بيده لأذودنّ رجالا عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض »
قال المهلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه
لقوله عليه الصلاة والسلام : « لأذودنّ رجالا عن حوضي » .
ج ٨ ، ص : ٢٢٦
فضل القرآن على البشر وحال المكذبين يوم القيامة بإظهار الندم وطلب الشفاعة [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]
وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)
الإعراب :

هُدىً وَرَحْمَةً منصوبان على الحال من هاء فَصَّلْناهُ وتقديره : فصلناه هاديا ذا رحمة.
يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ : منصوب على الظرف ، والعامل فيه يَقُولُ.

فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَيَشْفَعُوا : منصوب بتقدير أن بعد فاء الجواب لأنه جواب الاستفهام. أَوْ نُرَدُّ : مرفوع معطوف على الاستفهام قبله ، على تقدير : أو هل نردّ لأن معنى : هل لنا من شفعاء : هل يشفع لنا أحد أو هل نردّ ؟ فعطفه على المعنى.
فَنَعْمَلَ منصوب على جواب التمني بالفاء ، بتقدير (أن) حملا على مصدر ما قبله ، فالفاء في المعنى تعطف مصدرا على مصدر.
المفردات اللغوية :
وَلَقَدْ جِئْناهُمْ أي أهل مكة ، وغيرهم مثلهم. بِكِتابٍ هو القرآن الكريم.
فَصَّلْناهُ بيّناه أتم بيان بالأخبار والوعد والوعيد. عَلى عِلْمٍ أي عالمين بما فصل فيه.
هَلْ يَنْظُرُونَ ما ينتظرون. إِلَّا تَأْوِيلَهُ ما يؤول إليه أمره ، أي عاقبة ما فيه وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ هو يوم القيامة. يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ تركوا الإيمان به. بِالْحَقِّ أي بالأمر
ج ٨ ، ص : ٢٢٧
الثابت. أَوْ نُرَدُّ أو هل نرد إلى الدنيا. فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ نوحد اللّه ونترك الشرك ، فيقال لهم : لا.
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ غبنوها إذ صاروا إلى الهلاك. وَضَلَّ عَنْهُمْ أي غاب عنهم وذهب. ما كانُوا يَفْتَرُونَ من ادعاء الشرك.
المناسبة :
بعد أن أوضح اللّه تعالى أحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، وما يدور بين هذه الفرق الثلاث من حوار يحمل المكلف على الحذر والاحتراس والتأمل في العواقب ، أردف ذلك ببيان شرف هذا الكتاب الكريم وعظيم فضله ونفعه وحجيته على البشر كلهم ، وأنه أبطل معاذيرهم ، ثم ذكر حال المكذبين وما يحدث منهم يوم القيامة من ندم وحسرة ، وتمني العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم ، أو إنقاذهم بشفاعة الشفعاء.
التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى بهذه الآية عن إبطال معاذير المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي هو مفصّل مبيّن ، كقوله تعالى : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ [هود ١١/ ١].

لقد جئنا هؤلاء المشركين من أهل مكة وأمثالهم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته بالحكم والمواعظ والقصص والأحكام والوعد والوعيد ، على علم تام منا بما فصلناه به ، كقوله : أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ [النساء ٤/ ١٦٦] تصحيحا لعقيدتهم ، وتزكية لنفوسهم ، وسببا لسعادتهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به ، ويعمل بأحكامه.

أوضح أصول الدين ، وندد بالشرك والوثنية ، ووضع الأنظمة الصالحة للبشر ، وحض على البناء والتقدم والحضارة من طريق تمجيد النظر والتأمل

ج ٨ ، ص : ٢٢٨

و التفكير ، والحث عليها ، وذم التقليد دون بحث ولا تمحيص في آيات كثيرة ، منها ما يحث على النظر والتأمل مثل : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد ١٣/ ٤] ومثل : قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [البقرة ٢/ ١١١] ومنها ما يذم التقليد مثل : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف ٤٣/ ٢٣].

هل ينتظر أي ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا تأويله ، أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار ، قال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر ، حتى يتم يوم الحساب ، حين يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ.

ويوم يأتي تأويله يوم القيامة ، كما قال ابن عباس ، وتظهر حقائق ما أخبر به وصدق ما جاء به ، فيقول الذين تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ، أي جعلوه كالشيء المنسي وأعرضوا عنه : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، أي صدقوا في كل ما قالوا ، وصح أنهم جاؤوا بالحق ، وظهر أنه متحقق ثابت ، ولكنا نحن الذين أعرضنا عنه ، فجوزينا هذا الجزاء.

و أصبحوا يتمنون الخلاص بكل ما يمكن من أحد أمرين : إما شفاعة الشافعين ، وإما الرجوع إلى الدنيا لإصلاح العمل وتجديد السلوك والمنهج الذي يرضي اللّه تعالى.

والسبب في تمني الشفعاء : تذكرهم أساس الشرك وهو أن النجاة عند اللّه إنما تكون بوساطة الشفعاء فعند ما أفلسوا وعرفوا أن النجاة بالإيمان والعمل الصالح ، تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا بما أمر به الرسل غير علمهم السابق ، كقوله تعالى : وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ

بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ
ج ٨ ، ص : ٢٢٩
رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ
[الأنعام ٦/ ٢٧- ٢٨].
وهذا كقوله هاهنا : قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي غبنوا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ، وذهب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء التي كانوا يعبدونهم من دون اللّه ، قائلين : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [يونس ١٠/ ١٨] فلا يشفعون فيهم ، ولا ينصرونهم ، ولا ينقذونهم مما هم فيه.
فقه الحياة أو الأحكام :
القرآن الكريم أعظم نعمة على الإنسان لأنه بيان للإيمان الصحيح والحق الثابت ، والعبادة المرضية للّه تعالى ، ولأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، كقوله تعالى :
وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ [الأنعام ٦/ ١٥٥].

(٢٣١/٨)

و تظهر في كل حين في الدنيا عاقبة ما أنذر به وحذّر ، وما أعلم به وأخبر لقوله تعالى : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت ٤١/ ٥٣] وكذا في الآخرة لقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أي عاقبة ما فيه. وعاقبة القرآن : ما وعد اللّه فيه من البعث والحساب وجزاء التكذيب به.
وتبدو عواقبه يوم القيامة ، فيعترف منكروه بأنه الحق الثابت والصدق الأبلج ، ويتمنون الخلاص بأي وسيلة ممكنة : إما بشفاعة الشفعاء ، أو الرد إلى الدنيا لتصحيح الأعمال بما يتفق مع مرضاة اللّه ، ولكن لا يجابون إلى مطلبهم ، فيندمون ولات حين مندم.
ولكن هؤلاء الكفار المنكرين قد خسروا أنفسهم بتعريضها للعقاب والعذاب في النار ، وبطل ما كانوا يقولون من أن مع اللّه إلها آخر ، ولم ينتفعوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا ، ولم ينتفعوا أيضا بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها.
ج ٨ ، ص : ٢٣٠
إثبات الربوبية والألوهية للّه بالخلق والأمر [سورة الأعراف (٧) : آية ٥٤]
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤)

الإعراب :

حَثِيثاً منصوب إما لأنه حال أي حاثا ، وإما لأنه صفة لمصدر محذوف ، تقديره :

يطلبه طلبا حثيثا.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يقرأ بالنصب والرفع ، فالنصب بالعطف على السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي وخلق الشمس والقمر .. والرفع على الابتداء ، وخبره : مُسَخَّراتٍ.

البلاغة :

أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ فيه ما يسمى « إيجاز قصر » وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

المفردات اللغوية :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الرب : هو السيد المالك المدبر والمربي ، واللَّهُ : اسم الذات الأقدس خالق الخلق أجمعين ، والإله : هو المعبود المرتجى لجلب النفع وكشف الضر ، ويتقرب إليه بما يرضيه من العبادة والدعاء. وليس للمؤمنين الموحدين سوى إله واحد ورب واحد هو اللّه عز وجل. وأكثر المشركين يقولون : إنه أعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يعترفون برب سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه السَّماواتِ وَالْأَرْضَ المراد بهما العالم العلوي والعالم السفلي ، ولم يرد خبر ببيان حقيقتهما. فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ جمع يوم ، وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها ، والمراد بالأيام الستة : أنها من أيام الدنيا ، أي في قدرها ، لأنه لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء لخلقهن في لمحة ، والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت.

ج ٨ ، ص : ٢٣١

اسْتَوى في اللغة : استقر ، أو قصد أو استولى وملك ، والمراد أنه يتصرف فيه بما يريد وقد استوى استواء يليق به الْعَرْشِ لغة : سرير الملك ، أو كل شيء له سقف ، أو هودج المرأة ، أو الملك والسلطان ، يقال : ثلّ عرشه ، أي ذهب ملكه وزوال أو هلك. يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أي يغطي كلا منهما بالآخر ، ويجعل الليل كالغشاء ، أي يذهب نور النهار يَطْلُبُهُ يطلب كل منهما الآخر حَثِيثاً أي طلبا سريعا من غير فتور مُسَخَّراتٍ مذلّلات خاضعات لتصرفه بِأَمْرِهِ بقدرته وتدبيره وتصرفه الْخَلْقُ إيجاد الأشياء من العدم بقدر ، فله الخلق جميعا وَالْأَمْرُ كله ، أي التدبير والتصرف كما يشاء تَبارَكَ اللَّهُ تعاظم وتنزّه ، أو كثر خيره وإحسانه رَبُّ الْعالَمِينَ مالك العوالم من الجن والإنس.

المناسبة :

إن مدار القرآن على إثبات أسس أربعة : وهي التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، والقضاء والقدر. وإثبات المعاد متوقف على إثبات التوحيد والقدرة والعلم.

فلما قرر اللّه تعالى أمر المعاد ، وذكر ما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة وأصحاب الأعراف ، عاد إلى ذكر أدلة التوحيد ، وكمال القدرة ، والعلم ، لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وإثبات المعاد.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى أنه خالق الكون أو العالم كله سماواته وأراضيه السبع ، وما بين ذلك في ستة أيام ، وهي ما عدا السبت ، وقد اجتمع الخلق كله في الجمعة ، الذي فيه خلق آدم عليه السلام. وأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت وهو القطع ، وهذا من الأخبار الإسرائيلية.

والمتبادر إلى الأذهان أن هذه الأيام مقدرة بأيام الدنيا لأنه لم يكن ثمّ شمس ، ووجدت هذه الأشياء المخلوقة بعد خلق هذه الأرض. ورأى مجاهد وأحمد بن حنبل : أن كل يوم كألف سنة ، كما قال تعالى :

وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [الحج ٢٢/ ٤٧] وأما يوم القيامة فقال اللّه في وصفه : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج ٦٩/ ٤].

ومعنى الآية : إن ربكم ومالك أمركم أيها الناس هو اللّه وحده لا شريك له ، وهو الذي أوجد السموات والأرض ، وقدرهما ، ودبر أمورهما وأحكم نظامهما في ستة أيام ، إما مقدرة بأيام الدنيا ، وإما أن اللّه أعلم بمقدارها وحدودها ، ولو شاء خلّقها في لحظة لخلقها ، وإنما أراد تعليم خلقه التثبت في الأمور : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢] وذلك الخلق والتكوين ليس بالهين وهو دليل على القدرة التامة : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر ٤٠/ ٥٧].

و كان خلق الأرض في يومين ، وخلق الجبال الرواسي وأنواع النبات والحيوان في يومين آخرين ، كما قال تعالى : قُلْ : أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ، ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ، وَبارَكَ فِيها ، وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، سَواءً لِلسَّائِلِينَ [فصلت ٤١/ ٩- ١٠].

وخلق السموات وما فيها من أجرام وكواكب في يومين ، كما قال تعالى :
فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ، وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [فصلت ٤١/ ١٢].
ثم إنه تعالى بعد هذا الخلق استوى على عرشه ، يدبر أمره ، ويصرف نظامه ، على نحو يليق به ، غير مشابه لشيء من المخلوقات والحوادث. فاستواؤه على العرش : هو انفراده بتدبير السموات والأرض ، واستيلاؤه على زمام الأمور والسلطة فيهما. ونحن نؤمن كإيمان الصحابة باستواء اللّه على العرش بكيفية تليق به ، من غير تشبيه ولا تكيف ، أي من غير تحديد بجهة ، ولا تقدير بكيف أو
ج ٨ ، ص : ٢٣٣
وصف ، وتترك معرفة الحقيقة إلى اللّه ، وهذا ما قرره الإمام مالك ومن قبله شيخة ربيعة ، فقال : الاستواء معلوم (أي في اللغة) والكيف (أي كيفية الاستواء) مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة. وهذا القدر كاف في الموضوع.
وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، هو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل.

(٢٣٥/٨)

و الظاهر المتبادر إلى أذهان المشبّهين منفي عن اللّه ، فإن اللّه لا يشبهه شيء من خلقه ، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى ٤٢/ ١١].
بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حمّاد شيخ البخاري قال : من شبّه اللّه بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف اللّه به نفسه ، فقد كفر ، وليس فيما وصف اللّه به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت للّه تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال اللّه ، ونفى عن اللّه تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى « ١ » .
وأما الخلف فيتأولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه ، بمعنى أنه يدبر أمره ، ويصرّف نظامه ، على حسب تقديره وحكمته ، كما قال :
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ [يونس ١٠/ ٣].
ثم بيّن اللّه تعالى بعض مظاهر تدبيره الكون فقال : يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ... أي أنه تعالى يلحق الليل بالنهار ، أو النهار بالليل ، يحتملهما جميعا على التعاقب ، ويذهب ظلام الليل بضياء النهار ، وضياء

النهار بظلام الليل ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أي سريعا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٢٠

ج ٨ ، ص : ٢٣٤

جاء هذا وعكسه. والمراد أنه يعقبه سريعا دون وجود فاصل أو تأخر ، مثل قوله تعالى : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ، فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس ٣٦/ ٣٧- ٤٠].

وفي تعاقب الليل والنهار منافع كثيرة ، إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة ، وتتحقق مصالح الناس.

وقد تأيد هذا الطلب السريع بما أثبته العلم الحديث من كروية الأرض ودورانها على محورها حول الشمس ، فيكون نصف كرتها مضيئا بالشمس ، والنصف الآخر مظلما ، فإذا كان الوقت نهارا في الشرق الأوسط مثلا ، كان الوقت ليلا في أمريكا الجنوبية وطوكيو- اليابان. وقد سبق إلى ما قرره العلماء المعاصرون كثير من علماء الإسلام كالغزالي والرازي وابن تيمية وابن قيّم الجوزية.

ومن مظاهر التدبير الإلهي للكون : خلقه الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، وكونها جميعا تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، أي أنها خاضعة لأمره وتصرفه. لذا قال : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ أي أنه هو الخالق المبدع المالك ، المتصرف المدبر ، فمعنى لَهُ الْخَلْقُ أي له ملك المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، ومعنى له الْأَمْرُ أي التصرف والتدبير ، ليس لأحد شي ء.

تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي تعاظم وتنزّه ، وانفرد بالربوبية ، وكل ما في العالم من الخيرات الكثيرة منه ، فعلى عباده شكره عليها ، وعبادته دون غيره. كقوله : تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الملك ٦٧/ ١] وقوله : تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً ، وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً]

الفرقان ٢٥/ ٦١].

ج ٨ ، ص : ٢٣٥

روى ابن جرير الطبري عن عبد العزيز الشامي عن أبيه ، وكانت له صحبة ، قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من لم يحمد اللّه على ما عمل من عمل صالح ، وحمد نفسه ، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن اللّه جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل اللّه على أنبيائه ، لقوله : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ » .

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء ، وروي مرفوعا : « اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى ما يلي :

١- اللّه عز وجل هو المنفرد بقدرة الإيجاد ، وخالق السموات والأرض ، فهو الذي يجب أن يعبد.

٢- استوى اللّه تعالى على العرش ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، ورأي السلف الصالح : أنه استوى على عرشه حقيقة ، لكن كيفية الاستواء مجهولة ، فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رحمه اللّه : الاستواء معلوم (يعني في اللغة) والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سلمة رضي اللّه عنها.

وأكثر المتقدمين والمتأخرين من علماء المتكلمين على تنزيه اللّه تعالى عن الجهة والتحيّز في مكان ، لأنه يلزم من ذلك أنه متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيّز ، ويلزم على المكان والحيّز : الحركة والسكون للمتحيّز ، والتغيّر والحدوث.

وقد يؤوّل العرش في الآية بمعنى الملك والسلطان ، أي ما استوى الملك

المطلق إلا له جل وعز. قال القرطبي : وهو قول حسن ، وفيه نظر « ١ » .

٣- الليل والنهار متعاقبان ، وتعاقبهما دليل على كروية الأرض وحركتها ودورانها. ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل ، واكتفى بأحدهما عن الآخر ، مثل : سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ [النحل ١٦/ ٨١] أي والبرد. ومثل :

بِيَدِكَ الْخَيْرُ [آل عمران ٣/ ٢٦] أي والشر.

٤- الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب مخلوقة للّه ، بدليل أنها معطوفة على السموات ، أي وخلق السموات ، وهي مذللات خاضعات لتصرف اللّه.

٥- للّه الخلق والأمر ، وقد دلت الآية على صدق اللّه في خبره ، فله الخلق وله الأمر ، خلقهم

وأمرهم بما أحب ، وهذا الأمر يقتضي النهي. قال سفيان بن عيينة : فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر. فالخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه الذي هو غير مخلوق ، وهو قوله : كُنْ : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢].

وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقا ، لكان قد قال : ألا له الخلق والخلق.

وذلك عيّ من الكلام ومستهجن ، واللّه يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ولو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق ليصح قيام المخلوقات بأمره ، بدليل قوله تعالى : وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم ٣٠/ ٢٥] وقوله هنا : وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره.

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ٢٢١

ج ٨ ، ص : ٢٣٧

و الأمر ليس من الإرادة في شي ء. والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة. قال القرطبي : وليس بصحيح ، بل يأمر بما لا يريد ، وينهى عما يريد. ألا ترى أنه أمر إبراهيم بذبح ولده ، ولم يرده منه ، وأمر نبيه أن يصلّي مع أمّته خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمس صلوات. وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ [آل عمران ٣/ ١٤٠] ونهى الكفار عن قتله ، ولم يأمرهم به « ١ » .

٦- اللّه تعالى متعاظم منزه عن الدنايا ، باق دائم ثابت ، كثير الخيرات والآثار الفاضلة والنتائج الشريفة ، واسع الفضل والإحسان تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ.

مشروعية الدعاء وآدابه وتحريم الإفساد في الأرض [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

الإعراب :

تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إما منصوبان على المصدر ، أو على الحال على معنى : ذوي تضرع وخفية.

إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ إنما قال : قريب بالتذكير لثلاثة أوجه : أنه ذكره حملا على المعنى ، لأن الرحمة بمعنى الرّحم أو الترحم ، وهو مذكر ، أو لأن المراد بالرحمة : المطر ، وهو مذكر ، أو ذكّره على

النّسب ، أي : ذات قرب ، كقولهم : امرأة طالق وطامث وحائض ، أي ذات طلاق وطمث وحيض (ابن الأنباري : ١/ ٣٦٥). وأضاف الزمخشري : أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أي شيء قريب ، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي (الكشاف : ١/ ٥٥(١)
وذكر الرازي في تفسيره (١٤/ ١٣٦- ١٣٧) أربعة وجوه من هذه.
وذكر القرطبي في تفسيره : ٧/ ٢٢٧ سبعة أوجه لقوله : قَرِيبٌ ولم يقل : قريبة ، هي

---

(١) المرجع السابق : ٧/ ٢٢٣

ج ٨ ، ص : ٢٣٨
أن الرّحمة والرّحم واحد ، وهي بمعنى العفو والمغفرة ، وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ، وقيل : مالا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره ، وقيل : أراد بالرحمة هنا المطر ، وقيل : على تذكير المكان أي مكانا قريبا ، وقيل : ذكّر على النسب ، كأنه قال : إن رحمة اللّه ذات قرب. وقيل : في غير النسب يجوز التذكير والتأنيث ، يقال : دارك منا قريب ، وفلانة منا قريب.
المفردات اللغوية :
تَضَرُّعاً تذللا ، وهو إظهار ذل النفس وخضوعها خُفْيَةً سرا ، وهو ضد العلانية إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت ، والمراد : عدم الثواب وعدم الرضا عن الداعي.
وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالشرك والمعاصي بَعْدَ إِصْلاحِها ببعث الرسل خَوْفاً من عقابه ، والخوف : توقع الشر والمكروه وَطَمَعاً في رحمته ، وهو توقع الخير.
المناسبة :
بعد أن ذكر اللّه تعالى الأدلة على توحيد الربوبية من كمال القدرة والتدبير ، والحكمة والتصرف ، أتبعه بالأمر بتوحيد الألوهية بإفراده تعالى بالعبادة والاشتغال بالدعاء والتضرع ، فإن الدعاء مخ العبادة.
التفسير والبيان :
أرشد اللّه تعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فقال : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً أي ادعوا ربكم ومتولي أموركم والمنعم عليكم ، متضرعين متذللين مستكينين ، مع إسرار الدعاء وإخفائه ، فالدعاء مخ العبادة. وفيه إيماء إلى ندب الدعاء خفية لأنه أبعد عن الرياء ، ولقوله تعالى : وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً [الأعراف ٧/ ٢٠٥] وقوله بالثناء على زكريا : إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً

خَفِيًّا [مريم ١٩/ ٣].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه قال : رفع الناس

ج ٨ ، ص : ٢٣٩

أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أيها الناس ، اربعوا « ١ » على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون وأصمّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا ، وهو معكم » .

وروى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري في الثواب عن أنس رضي اللّه عنه :

« دعوة في السرّ تعدل سبعين دعوة في العلانية » .

وروى أبو الشيخ ابن حبان في الثواب عن أنس رضي اللّه عنه : « دعوة في السرّ تعدل سبعين دعوة في العلانية » .

وقال الحسن البصري رحمه اللّه : « و لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن اللّه تعالى يقول : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً.

وذكر بعض العلماء : أن الأولى الإسرار بالدعاء في حال اجتماع الناس في المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية في الحج وتكبير العيدين.

إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ في الدعاء ولا في غيره ، بتجاوز الحدود المأمور بها ، والتجاوز هنا في ترك هذين الأمرين المذكورين : وهما التضرع والإخفاء.

وعدم المحبة : أي أن اللّه لا يثيبه البتة ، ولا يحسن إليه ، فظهر أن قوله تعالى :

إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والإخفاء في الدعاء.

روى أحمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وقرأ هذه الآية :

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً الآية ،

و إن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك

---

(١) أي ارفقوا بأنفسكم.

ج ٨ ، ص : ٢٤٠

الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل » .

وكما أمر اللّه بدعائه والتضرع إليه ، نهى عن الإفساد في الأرض ، فقال :

وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ... أي لا تفسدوا شيئا في الأرض بعد الإصلاح بما بناه المرسلون وأتباعهم المصلحون ، وشيّده العقلاء المخلصون ، من النواحي المادية والمعنوية ، كتقوية وسائل الحياة من زراعة وصناعة وتجارة ، وتهذيب الأخلاق ، والحث على العدل والشورى والتعاون والتراحم.

والإفساد شامل إفساد الأديان بالكفر والبدعة ، وإفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة والاحتيال ، وإفساد العقول بشرب المسكرات ونحوها ، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنى واللواطة والقذف.

وبعد أن أبان اللّه تعالى شرط الدعاء وهو التضرع والخفية ، نبّه إلى بواعث الدعاء وموجباته ، وأشعر أن من لا يدعو ربه على هذا النحو يكون أقرب إلى الإفساد ، فقال : وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً.

أي ادعوا اللّه خوفا من عقابه ، وطمعا في جزيل ثوابه ، فإن الدعاء مخ العبادة ولبّها ، لذا صرح بفائدة الدعاء ، وأنه مرجو الإجابة متى استكمل شرائطه وآدابه ، فقال : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ .. أي إن رحمة اللّه تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، وهي مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ [الأعراف ٧/ ١٥٦].

فمن أحسن الدعاء أعطي خيرا مما طلبه ، أو مثله ، أو دفع عنه من الشر مثله.

ج ٨ ، ص : ٢٤١

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي من الأحكام :

١- الأمر بالدعاء والتعبد به ، وهو نوع من أنواع العبادة ، ويفيد معرفة ذل العبودية ، ومعرفة عزة الربوبية ، ويكون سببا لجلب الخير ودفع الضر لأن هناك أمورا معلقة بالأسباب ، والدعاء سبب.

٢- للدعاء آداب وصفات تحسن معه : وهي الخشوع والاستكانة والتضرع ، وكونه سرا في النفس ليبعد عن الرياء ، وأن يكون الإنسان في حالة بين الرجاء والخوف ، فيدعو خوفا من عقاب اللّه ، وطمعا في ثوابه ، قال اللّه تعالى :

وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً [الأنبياء ٢١/ ٩٠].

قال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طوال الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء.

أخرج مسلم عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه » .
وينبغي عدم الاعتداء في الدعاء : بالجهر الكثير والصياح ، أو يدعو الإنسان أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط ، أو يدعو طالبا معصية وغير ذلك ، أو يدعو بما ليس في الكتاب والسنة ، فيتخير ألفاظا مفقّرة ، وكلمات مسجّعة ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء ، والأولى ترك كل ذلك.
ومجمل آداب الدعاء : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة ، وحال السفر والظلم وغير ذلك « ١ » .

---

(١) روح المعاني للالوسي : ٨/ ١٤٠
ج ٨ ، ص : ٢٤٢
٣- ودل قوله تعالى : إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ على أن كل من خالف أمر اللّه ونهيه ، فإنه يكون معاقبا إذا ارتكب محرما ، فإن لم يكن من المحرمات فالأولى تركه.
٤- استدل الحنفية بقوله تعالى : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً على أن إخفاء التأمين « آمين » أولى من الجهر بها لأنه دعاء. وقال الشافعي رحمه اللّه :
إعلانه أفضل.

و أما رفع اليدين في الدعاء ، فكرهه طائفة من العلماء مثل عطاء وطاوس ومجاهد وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير عملا بحديث أنس أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء ، فإنه كان يرفعهما حتى يرى بياض إبطيه.
وأجاز جماعة آخرون من الصحابة والتابعين رفع الأيدي ،
ذكر البخاري عن أبي موسى الأشعري : دعا النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم رفع يديه ، ورأيت بياض إبطيه.
ومثله عن أنس.
و
قال ابن عمر : رفع النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم يديه وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وفي صحيح مسلم عن عمر قال : لما كان يوم بدر نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم القبلة مادّا يديه ، فجعل يهتف بربه. و

روى الترمذي عن عمر قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا رفع يديه ، لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه

، وقال : هذا حديث صحيح غريب. وهذه الأحاديث- كما ذكر القرطبي- أصح طرقا ، وأثبت من حديث أنس المتقدم. ثم قال : والدعاء حسن كيفما تيسر ، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ، فقد فعل ذلك النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم حسبما ورد في الأحاديث.

٥- نهى سبحانه عن كل فساد قل أو أكثر بعد صلاح قل أو كثر. ودل قوله

ج ٨ ، ص : ٢٤٣

تعالى : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق. وبان في الآية المتقدمة : قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ أن الأصل في المنافع واللذات الطيبة الإباحة والحل.

(٢٤٥/٨)

٦- دل قوله : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ .. على أن كل ما كان رحمة فهي قريبة من المحسنين ، ويفهم منه : ليس للّه في حق الكافر رحمة ولا نعمة لأنه يلزم من الآية أن كل ما لا يكون قريبا من المحسنين ألا يكون رحمة.

إنزال المطر وإخراج النبات ودلالتهما على القدرة الإلهية وإثبات البعث [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

الإعراب :

بُشْراً منصوب على الحال.

إِلَّا نَكِداً حال من الضمير في يَخْرُجُ.

البلاغة :

سُقْناهُ فيه التفات عن الغيبة.

لِبَلَدٍ مَيِّتٍ استعارة ، إذ شبه جدب البلد وعدم نباته بالجسد الذي لا روح فيه ، من حيث عدم الانتفاع

به.

ج ٨ ، ص : ٢٤٤

كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى تشبيه مرسل مجمل ، ذكر فيه الأداة ولم يذكر وجه الشبه ، شبّه إخراج الموتى من قبورهم بإخراج النبات من الأرض.

المفردات اللغوية :

الرِّياحَ جمع ريح ، وهو الهواء العاصف الشديد الحركة ، وإذا جمعت كانت في معنى الخير ، كما هنا ، وإذا أفردت كانت في معنى الشر ، كما في قوله تعالى : أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ [القمر ٥٤/ ١٩] وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » .

(٢٤٦/٨)

بُشْراً مبشرات متفرقة قبل نزول المطر بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قبل نزول المطر أَقَلَّتْ حملت ورفعت أي الرياح سَحاباً جمع سحابة وهي الغيوم ثِقالًا مشبعة ببخار الماء سُقْناهُ سيرناه أي السحاب لِبَلَدٍ مَيِّتٍ أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، أي لإحيائها فَأَخْرَجْنا بِهِ أي بالماء الثَّمَراتِ جمع ثمرة ، وهي ما تحمله الشجرة ، سواء أكان مأكولا أم لا كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى أي كذلك الإخراج للنبات بالمطر نخرج الموتى من قبورهم بالإحياء.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتؤمنوا.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ العذب التراب يَخْرُجُ نَباتُهُ حسنا بِإِذْنِ رَبِّهِ هذا مثل للمؤمن ، يسمع الموعظة ، فينتفع بها وَالَّذِي خَبُثَ ترابه لا يَخْرُجُ نباته إِلَّا نَكِداً عسرا بمشقة ، لا خير فيه ، وهذا مثل للكافر كَذلِكَ نُصَرِّفُ كما بينا ما ذكر نبيّن الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ اللّه فيؤمنوا.

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر للعالم العلوي والسفلي ، والمسخّر للإنسان ما في الكون ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ، ونهى عن الإفساد في الأرض ، وأبان أن رحمته قريبة من المحسنين ، نبّه تعالى إلى أنه الرزاق ، وأن أهم مصادر الرزق هو المطر الذي يترجم إلى خيرات كثيرة ويكون سببا للنبات الحسن ، وأنه يعيد الموتى أحياء يوم القيامة كإحياء الأرض بعد موتها.

ج ٨ ، ص : ٢٤٥

التفسير والبيان :

اللّه الذي يرسل الرياح قبل نزول المطر ، مبشرات بها ، فقوله : بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي مقدم إنزال المطر ، كما قال : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ [الشورى ٤٢/ ٢٨] وقال : فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ، كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الروم ٣٠/ ٥٠].

فإذا حملت الرياح سحابا ثقالا ، أي من كثرة ما فيها من الماء ، تكون ثقيلة قريبة من الأرض ، سقناه لإحياء أرض مجدبة لا نبات فيها ، كقوله تعالى :

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها .. [يس ٣٦/ ٣٣].

فأنزلنا بالسحاب الماء ، إذ من المعروف علميا أن الهواء القريب من سطح البحر يسخن بتأثير الحرارة ، فيصعد في الجو ويبرد بتأثير منطقة باردة ، أو بالهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء ، وتكوّن السحاب ، ثم يتحرك السحاب بقوة الريح ، ثم ينزل مطرا بمشيئة اللّه وإرادته.

وهذا المعنى كثير متردد في الآيات مثل قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذلِكَ النُّشُورُ [فاطر ٣٥/ ٩] ومثل الآية ٤٣ من سورة النور ، والآية ٤٨ من سورة الروم.

فأخرجنا بالمطر أنواع النبات والثمار من الأرض ، على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها وروائحها ، مما يدل على قدرة اللّه وتمام رحمته ، كما قال تعالى :

وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد ١٣/ ٤].

ج ٨ ، ص : ٢٤٦

و إذا كان الشيء بالشيء يذكر ، والأمثال تقرن ببعضها لمعرفة تماثلها في الحكم ، فإنه تعالى أشار إلى إنكار البعث ، فقال : كَذلِكَ نُخْرِجُ .. أي مثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة الجدبة بالماء ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فاللّه على كلّ شيء قدير ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وقد بينا هذا الشبه لتتذكروا وتتعظوا ، فتؤمنوا بالبعث أو اليوم الآخر. كما قال تعالى :

وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس ٣٦/ ٧٨- ٧٩] وقال : كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [الأنبياء ٢١/ ١٠٤]

وقال : كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [الأعراف ٧/ ٢٩].

ولكن استعداد الناس للإيمان بالبعث مختلف باختلاف الطبائع والنفوس ، فمنها الطيب الذي يتجاوب لنداء الإيمان ، ومنها الخبيث الذي يعرض عن الإيمان ، لذا قال تعالى : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ... أي إن الأرض الطيبة التربة يخرج نباتها سريعا حسنا ، والأرض الخبيثة التربة كالسّبخة ونحوها ، لا يخرج نباتها القليل إلا بعسر وصعوبة.

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر. أي إنه تعالى شبه المؤمن بالأرض الخيّرة ، والكافر بالأرض السبخة ، ومثله

الحديث الذي رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا ، فكانت منها نقيّة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع اللّه بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين اللّه ونفعه ما بعثني اللّه به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به » .

ج ٨ ، ص : ٢٤٧

هذه الأمثال والمقارنات وعقد أوجه الشبه بين الأشياء لإقناع الناس وحملهم على الإيمان والتفكير بالحقائق ، لذا قال تعالى : كَذلِكَ نُصَرِّفُ ... أي مثل ذلك البيان والتصريف نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها ونبينها لقوم يشكرون نعمة اللّه ، وهم المؤمنون ليكفروا فيها ويعتبروا بها.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- اللّه تعالى مصدر الرزق ، فهو الذي ينزل المطر ، فينبت الزرع والعشب والشجر والنبات والثمار ، فيستفيد منها الإنسان والحيوان ثم يعود نفع الحيوان في النهاية إلى الإنسان. والإنزال والإنبات دليل على وجود اللّه وعلمه وقدرته وحكمته.

٢- إخراج الموتى أحياء من القبور مثل إخراج النبات الحي من الأرض الجدبة الميتة التي لا حراك فيها ، وفي ذلك ذكرى ، تذكر الناس فيؤمنوا بالبعث والنشور يوم القيامة.

٣- ضرب اللّه تعالى للمؤمن والكافر مثلا ، فإنه شبّه المؤمن بالأرض الخيّرة التي نزل عليها المطر ، فيحصل منها أنواع الأزهار والثمار ، والكافر بالأرض السّبخة التي لا تنبت إلا النزر القليل ، وإن نزل عليها المطر ، وشبّه نزول القرآن بنزول المطر ، فالروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل بها نور القرآن ، ظهرت فيها أنواع الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيثة وإن اتصل بها نور القرآن ، لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل.

٤- يضرب اللّه الأمثال للناس ليتذكروا ويتعظوا فيؤمنوا ، ويصرّف الآيات ويرددها ، ويأتي بالحجج والدلالات لإبطال الشرك ، كما يصرف الآيات

ج ٨ ، ص : ٢٤٨

في كل ما يحتاج إليه الناس ، لعل الشاكرين يتذكرون فيشكروا اللّه على ما أنعم عليهم. وخص الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك ، مثل قوله : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة ٢/ ٢].

قصة نوح عليه السلام [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٤]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)

الإعراب :

ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ غَيْرُهُ : وصف لإله على الموضع لأن موضعه رفع. وقرئ بالجر صفة لإله على اللفظ.

يا قَوْمِ نداء مضاف ، ويجوز : يا قومي على الأصل أُبَلِّغُكُمْ إما كلام مستأنف بيان لكونه : رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أو يكون صفة لرسول. وَأَنْصَحُ لَكُمْ زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة.

أَ وَعَجِبْتُمْ فتحت الواو لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. والهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم.

ج ٨ ، ص : ٢٤٩

المفردات اللغوية :

لَقَدْ جواب قسم محذوف عَذابَ يَوْمٍ المراد هنا يوم القيامة الْمَلَأُ أشراف القوم ورؤساؤهم رِسالاتِ رَبِّي

ما أوحي إليّ من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر ضَلالٍ عدول عن طريق الحق مُبِينٍ بيّن وَأَنْصَحُ لَكُمْ أريد الخير ، وأرشد إلى المصلحة مع إخلاص النية ذِكْرٌ موعظة عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، أي على لسان رجل من جنسكم لِيُنْذِرَكُمْ العذاب إن لم تؤمنوا الْفُلْكِ السفينة عَمِينَ جمع عم ، أي ذو عمى عن الحق ، والأعمى : أعمى البصر.

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتصل به ، شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، مبتدئا بنوح عليه السلام الذي هو أبو البشر الثاني ، وأول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام.

(٢٥٢/٨)

و الهدف من إيراد قصص الأنبياء : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول دعوة الأنبياء ليس مقتصرا على قريش قوم محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هذا موقف متبع في جميع الأمم السابقة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، وفي ذلك تسلية للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وتخفيف على قلبه : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ .. [هود ١١/ ١٢٠]. وفي القصص بيان العاقبة : عاقبة المنكرين وهي اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة ، وعاقبة المؤمنين وهي العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

وفي إيراد القصص أيضا التنبيه إلى أن اللّه وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، فلا يهملهم ، بل ينتقم منهم. وفي هذا من العظة والعبرة للأجيال ما يكفي :

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ [يوسف ١٢/ ١١١].

وسرد القصة من غير تحريف ولا خطأ دليل على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم الذي كان

ج ٨ ، ص : ٢٥٠

أميا لا يقرأ ولا يكتب ، إذ يدل ذلك على أنه إنما عرف القصة بالوحي من اللّه ، مما يدل على صحة نبوته.

أضواء على قصة نوح من التاريخ :

نوح عليه السلام : هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ : وهو إدريس « ١ » بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر.

وهو أول الرسل إلى المشركين ، كما

في حديث الشفاعة في صحيح مسلم عن أبي هريرة : « يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض »

وهو أول الرسل بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات. قال محمد بن إسحاق : ولم يلق نبي من

قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقد أرسله اللّه إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجارا.
وقال ابن عباس : وكان ابن أربعين سنة. ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا.

(٢٥٣/٨)

و قال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوح لكثرة ما ناح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام.
وذكر الترمذي وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام. ذكر الزهري أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح.
والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل السود من ولد حام بن نوح.
والترك والبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يافث بن نوح.

---

(١) من قال من المؤرخين : إن إدريس النبي عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام ، فقد وهم ، كما ذكر القرطبي بدليل الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم إدريس قال له :
« مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح »
ولم يقل له : « بالابن الصالح » كآدم ونوح وإبراهيم.
ج ٨ ، ص : ٢٥١
و كان أول ما عبدت الأصنام : أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صورهم ، ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا.
فلما تفاقم الأمر بعث اللّه تعالى رسوله نوحا ، فأمرهم بعبادة اللّه وحده لا شريك له ، فقال : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ....

(٢٥٤/٨)

و ذكر نوح في (٤٣) ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم ، وذكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح. ومضمون قصته : أنه دعا قومه إلى عبادة اللّه وحده لا

شريك له ، وأن يتركوا عبادة الأصنام ، ولكنهم عاندوه وعارضوه وآذوه ، واتبعوا بعض زعمائهم ، ومكروا مكرا عظيما ، وصمموا ألا يذروا عبادة : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر. وقالوا في حماقة وكبرياء : إنك جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وإنا لن نترك ما نحن عليه ، فأتنا بالعذاب الذي تهددنا به ، فرد عليهم بأن تعذيبهم بيد اللّه تعالى.

ولما يئس نوح من إيمان قومه بعد دعوتهم إليه ألف سنة إلا خمسين ، أمره اللّه تعالى بصناعة سفينة أداة النجاة ، وكانوا كلما مروا عليه سخروا منه ومن عمله.

فلما أتمها ، وأمره اللّه تعالى أن يأخذ معه أهله إلا زوجته ، وأن يأخذ من آمن معه من قومه ، وكانوا ستة فقط ، وقيل : أربعين رجلا وامرأة ، وأن يصحب معه من أجناس الحيوان والطير والوحش زوجين اثنين.

ثم فار تنور أهله بالماء ، وبدأ تفجر الماء الكثير من كل مكان حتى عمّ الطوفان قومه وكل ما على الأرض من إنسان وحيوان ، فهلكوا حتى ابنه الذي أبى الركوب في السفينة قائلا : سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ

ج ٨ ، ص : ٢٥٢

[هود ١١/ ٤٣]. واستوت السفينة على جبل الجودي في نواحي ديار بكر من جبال أرمينية جنوب تركيا : وَقِيلَ : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ، وَيا سَماءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْماءُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [هود ١١/ ٤٤].

و للعلماء رأيان في عموم طوفان الأرض ، فقال جماعة : لقد عمّ جميع أنحاء الأرض ، بدليل وجود بقايا حيوانية مائية في أعالي الجبال. وقال آخرون : لم يكن الطوفان عاما ، وإنما كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه ، وهي بلاد الشرق الأوسط وما جاورها.

ومن المعلوم أن البلاء يعم والرحمة تخص ، والنقمة لا تقتصر على الظالمين ، فتشمل الأطفال الأبرياء والوحوش والطيور : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال ٨/ ٢٥].

وكان نوح قد دعا بدعوتين : الأولى للمؤمنين والثانية على الكافرين ، أما الأولى فقال : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ .. [نوح ٧١/ ٢٨].

والثانية هي : وَقالَ نُوحٌ : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ، وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦- ٢٧].

وكان ابن نوح في عداد الهالكين لأنه كان ظالما كافرا ، بدليل تمام الآية الأولى :

وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً والظلم هو الكفر. وهذا ابن نوح حقيقة في رأي جماعة ، وقال آخرون : إنه

كان ابن امرأته من غيره ، ولم يكن ابنا حقيقيا له.

وكانت امرأة نوح تقول : زوجي مجنون ، كما كانت امرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ،

ج ٨ ، ص : ٢٥٣

كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ ، فَخانَتاهُما ، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ

[التحريم ٦٦/ ١٠].

(٢٥٦/٨)

و لم ينص القرآن الكريم على حجم السفينة ، وإنما أشير إليها بأنها الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [يس ٣٦/ ٤١] وبأنها ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ [القمر ٥٤/ ١٣] أي مسامير ، وبأن صناعتها بوحي من اللّه وإلهام : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا [هود ١١/ ٣٧].

التفسير والبيان :

أقسم اللّه تعالى لأهل مكة وغيرهم بأنه أرسل نوحا إلى قومه لإنذارهم ، ودعوتهم إلى توحيد اللّه ، وعبادته دون سواه ، فقال لهم : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أي توجهوا بعبادتكم إلى اللّه وحده لا شريك له ، إذ ليس لكم إله غير اللّه ، تتوجهون إليه بالعبادة والدعاء وطلب الخير ، فاللّه هو خالق كل شيء ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الإله الحق القائم على هذا الكون ، وهو المستحق للعبادة والتقديس والتعظيم.

إِنِّي أَخافُ ... إني أخاف عليكم بسبب الشرك عذاب يوم عظيم من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم اللّه ، وأنتم تشركون به. فاليوم العظيم : هو يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان.

وموقع الجملتين بعد قوله : اعْبُدُوا اللَّهَ : أن الأولى : بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية : بيان للداعي إلى عبادته.

قال الملأ من قومه أي أشراف القوم والسادة والقادة : إنا لنراك في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام لفي غمرة من الضلال أحاطت بك ، وهكذا حال الفجار يرون الأبرار في ضلالة ، وهم أعداء دائما للهداة ، كقوله تعالى : وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا : إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ [المطففين ٨٣/ ٣٢] وقوله : وَقالَ الَّذِينَ

ج ٨ ، ص : ٢٥٤

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، فَسَيَقُولُونَ : هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ [الأحقاف ٤٦/ ١١].

قال نوح مجيبا لهم : يا قوم ، ما أنا فيما أمرتكم به من توحيد اللّه وعبادته دون الأنداد بضال عن جادة الحق ، ولكن أنا رسول من رب العالمين إليكم ، ربّ كل شيء ومليكه ، أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة. والضلالة كما ذكر الزمخشري أخص من الضلال ، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه ، كأنه قال : ليس بي شيء من الضلال.

أبلغكم ما أرسلني به ربي من الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما اشتمل عليه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبيّن لكم أصول العبادات والمعاملات وأحكامها العامة وفضائل الأخلاق والآداب ، وفي الجملة : كل الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر.

وأنصح لكم نصحا خالصا من شوائب المصلحة والمكر ، بتحذيركم من عقاب اللّه على كفركم وتكذيبكم لي.

روي مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول اللّه ؟ قال : للّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وأنا في هذا التبليغ والنصح أعلم من اللّه وشؤونه مالا تعلمون من مصير هذا العالم ، وإن إنذاري عاقبة الشرك بعذاب الدنيا ، ونصحي لكم ناشئ عن علم يقيني لا تعلمونه. وهذا شأن الرسول : أن يكون مبلّغا فصيحا ناصحا عالما باللّه.

ويكون المقصود من قوله : وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب العلوم المتعلقة بتوحيد اللّه وصفات جلاله ، وعقابه الشديد في الدنيا والآخرة على عصيان أوامره.

ج ٨ ، ص : ٢٥٥

جاء في صحيح مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : « أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا :

نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ، وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد » .

ثم أخبر اللّه تعالى عن نوح أنه قال لقومه : أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر يذكّركم ، ووعظ من ربكن ، على لسان رجل منكم ، ليحذّرنكم عاقبة كفركم ، وينذركم عاقبة الشرك في العبادة ، وليعدّكم بالتقوى

(أي التزام الأوامر واجتناب النواهي) لرحمته تعالى التي ينزلها على المؤمنين ، أو ليوجد فيكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ، ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

ليس هذا بعجب أن يوحي اللّه إلى رجل من جنسكم ، رحمة بكم ، ولطفا وإحسانا إليكم ، لينذركم ، ولتتقوا نقمه ولا تشركوا به ، وليرحمكم ربكم بطاعته والإيمان برسله.

لكنهم لم يصغوا لنداء الحق والإخلاص هذا ، وتمادوا في تكذيبه ومخالفته من قبل الأكثرية ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما قال تعالى في موضع آخر :

وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود ١١/ ٤٠] قيل : كانت عدتهم ثلاثة عشر : نوح وبنوه : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، وستة آخرون آمنوا به. وقيل : كانوا أربعين أو ثمانين : أربعين رجلا وأربعين امرأة.

فكان العقاب إغراقهم بالطوفان : وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا ... أي وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أو جحدوا بها بالطوفان ، بسبب كفرهم وتماديهم في ضلالهم وشركهم ، إنهم كانوا قوما عميا عن الحق ، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

فقوله : عَمِينَ يراد به عمى القلوب غير مستبصرين ، والفرق بين العمى والأعمى أن الأول بسبب عمى البصيرة ، والثاني بسبب عمى البصر.

ج ٨ ، ص : ٢٥٦

و نجّى اللّه رسوله نوحا والمؤمنين القائل معه.

و هكذا بيّن اللّه تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ [غافر ٤٠/ ٥١].

فاحذروا أيها المخاطبون بدعوة الإسلام أن تكونوا مثلهم ، أو تسيروا على منوالهم. وسيأتي في سورة هود تفصيل أشمل لهذه القصة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة نوح عليه السلام على أنه اهتم في دعوة قومه بثلاثة عناصر :

أحدها : أنه أمرهم بعبادة اللّه تعالى.

والثاني : أنه حكم أن لا إله غير اللّه. والمقصود من الكلام الأول : إثبات التكليف ، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد ، والثاني كالعلة للأول.

والثالث : إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ : وهو إما عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان.

والمراد من الخوف : اليقين لأنه كان جازما بنزول العذاب بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين. وقال آخرون : بل المراد منه الظن والشك.

وظاهر هذه الآية يدل على أن الإله هو الذي يستحق العبادة لأن قوله :

اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إثبات ونفي ، يجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام ، فكان المعنى : اعبدوا اللّه ما لكم من معبود غيره ، حتى يتطابق النفي والإثبات.

ودلت الآية أيضا على أن الفجار والكفار يرون الأبرار والمؤمنين عادة في

ج ٨ ، ص : ٢٥٧

ضلال ، ويكونون دائما أعداء للهداة ، فقد نسبوا نوحا عليه السلام في ادعاء النبوة إلى الضلال ، وكذبوه وتمردوا على دعوته ، وأمعنوا في إيذائه ، وأصروا على عبادة الأصنام.

(٢٦٠/٨)

و مهمة الأنبياء عادة هي تبليغ الرسالة. وهناك فرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة وهو أن التبليغ معناه : التعريف بأنواع تكاليف اللّه وأقسام أوامره ونواهيه. وأما النصيحة : فهو الترغيب في الطاعة ، والتحذير من المعصية ، بالاعتماد على وسائل الترغيب والترهيب.

وذكرت الآيات الغاية التي من أجلها يبعث اللّه الرسول ، فقال تعالى :

لِيُنْذِرَكُمْ وما لأجله ينذر ، وقال : وَلِتَتَّقُوا وما لأجله يتقون ، وقال وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ إذ طاعة الرسول سبيل لاستدرار الرحمة الإلهية. فالمقصود من البعثة : الإنذار ، والمقصود من الإنذار : التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود من التقوى : الفوز بالرحمة في دار الآخرة. قال الجبائي والكعبي والقاضي عبد الجبار المعتزلي : هذه الآية دالة على أنه تعالى أراد من الذين بعث الرسل إليهم : التقوى ، والفوز بالرحمة.

والنبي أو الرسول يكون عادة من جنس المرسل إليهم ، فهو بشر من جنس البشر الذين يدعوهم إلى اللّه. ولو كان ملكا فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطباع. لذا تكرر في قصة كل نبي : رَجُلٍ مِنْكُمْ رَسُولًا مِنْهُمْ إلخ.

وكانت عاقبة قوم نوح المكذبين الجاحدين المشركين إغراقهم بالطوفان العظيم.

ج ٨ ، ص : ٢٥٨

قصة هود عليه السلام [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٦٥ الى ٧٢]

(٢٦١/٨)

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧(١) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

الإعراب :

أَخاهُمْ عطف على : نُوحاً ، وهُوداً عطف بيان له.

آلاءَ اللَّهِ نعماؤه ، واحدها : إليّ ، وألىّ ، وإلِيّ. وهي بمنزلة آناء الليل وهي ساعاته.

وآلاءَ : مفعول به منصوب.

ج ٨ ، ص : ٢٥٩

وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ عطف على : كَذَّبُوا. وعادٍ : من لم يصرفه جعله اسما للقبيلة ، ومن صرفه جعله اسما للحي.

البلاغة :

قَطَعْنا دابِرَ كناية عن استئصالهم وإهلاكهم جميعا.

المفردات اللغوية :

(٢٦٢/٨)

وَ إِلى عادٍ وأرسلنا إلى عاد الأولى أَخاهُمْ أي واحدا من جنسهم أو منهم ، كقولك :

يا أخا العرب للواحد من إخوة الجنس ، وإنما جعل واحدا منهم لأنهم أفهم عن رجل منهم ، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، فهي أخوة في النسب لا في الدين.

قالَ لم يقل : فقال كما في قصة نوح لأنه على تقدير سؤال سائل ، قال : فما قال لهم هود ؟ فقيل : قال : يا قوم اعبدوا اللّه. وكذلك : قالَ الْمَلَأُ أي أشراف القوم. ووصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به سرا مثل مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم

إسلامه ، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ، فأريدت التفرقة بالوصف.
سَفاهَةٍ خفة حلمو سخافة عقل ناصِحٌ أَمِينٌ أي عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة ، فما حقي أن أتهم ، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم ، لا أكذب فيه.
خُلَفاءَ أي خلفتموهم في الأرض ، أو جعلكم ملوكا في الأرض ، قد استخلفكم فيها بعدهم فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً أي زاد أجسامكم في الطول والقوة والبدانة قيل : كان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين. آلاءَ اللَّهِ نعمه في استخلافكم وبسطة أجسادكم ، وما سواهما من عطاياه ، وواحد الآلاء : أليّ تُفْلِحُونَ تفوزون. وَنَذَرَ نترك بِما تَعِدُنا به من العذاب قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ حق عليكم ووجب أو قد نزل عليكم. رِجْسٌ عذاب وَغَضَبٌ سخط وانتقام أَتُجادِلُونَنِي المجادلة : المماراة والمخاصمة فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أي سميتم بها أصناما تعبدونها. أي في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الألوهية فيها معدوم محال وجوده.
سُلْطانٍ حجة وبرهان فَانْتَظِرُوا العذاب إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ذلكم بتكذيبكم لي ، فأرسلت عليهم الريح العقيم.

فَأَنْجَيْناهُ أي هودا وَالَّذِينَ مَعَهُ من المؤمنين وَقَطَعْنا دابِرَ الدابر : الآخر ، أي

أهلكناهم جميعا بعذاب الاستئصال ، أو استأصلناهم. فمعنى قطع دابر القوم : استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم.
المناسبة وتاريخ القصة :
قبيلة عاد قوم هود من أقدم الأمم وجودا وآثارا في الأرض ، وهم على ما يظهر أقدم من إبراهيم ، لذا ناسب ذكرها بعد قصة نوح مع قومه ، بدليل قوله تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فأصبح الناس على علم بواقعة قوم نوح العظيمة وهي الطوفان العظيم ، لذا كان قول هود لقومه عاد : أَفَلا تَتَّقُونَ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا.
أخرج ابن إسحاق عن الكلبي قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ، اتخذوها على مثال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فاتخذوا صنما يقال له « صمود » وآخر يقال له : « الهتار » ، فبعث اللّه إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها « الخلود » ، وكان من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة اللّه وأمرهم أن يوحّدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا :
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً [فصلت ٤١/ ١٥] ؟ كما جاء في تفسير المنار.

وكانت منازلهم أي مساكنهم باليمن بالأحقاف : وهي جبال الرمل ، فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها ، بفضل قوتهم التي آتاهم اللّه تعالى.

فعاد : قبيلة عربية ، كانت باليمين بالأحقاف شمال حضرموت ، وكانوا قد تبسطوا في الدنيا ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانت لهم أصنام يعبدونها : صداء وصمود والهتار. وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ. ولم تذكر عاد فيما سوى القرآن الكريم من الكتب المقدسة.

(٢٦٤/٨)

فبعث اللّه إليهم هودا نبيا ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن

ج ٨ ، ص : ٢٦١

نوح. وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا ، فكذبوه ، وازدادوا عتوا وتجبرا ، فأمسك اللّه عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء ، طلبوا إلى اللّه تعالى الفرج منه عند بيته المحرم ، مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر.

فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم : قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه ، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان (قينتان كانتا لمعاوية) فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له ، أهمّه ذلك ، وقال : قد هلك أخوالي وأصهاري ، وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحيي أن يكلمهم ، خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين ، فقالتا : قل شعرا نغنيهم به ، لا يدرون من قاله ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ، ويحك قم فهينم لعل اللّه يسقينا غماما

فيسقي أرض عاد إن عادا قد امسوا ما يبينون الكلاما

فلما غنّتا به قالوا : إن قومكم يتغوّثون « ١ » من البلاء الذي نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم ، واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : واللّه لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى اللّه سقيتم ، وأظهر إسلامه.

فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا ، لا يقدمن معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة ، فقال قيل : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم.

---

(١) غوّث الرجل تغويثا : قال : وا غوثاه.

ج ٨ ، ص : ٢٦٢

فأنشأ اللّه تعالى سحابات ثلاثا : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : يا قيل ، اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء ، فإنها أكثرهن ماء ، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم ، فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة ، فعبدوا اللّه فيها حتى ماتوا « ١ » .

وذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات ، في سورة الأعراف في الآية ٦٥ ، وفي سورة هود في الآيات : ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ ، وفي سورة الشعراء في الآية ١٢٤.

وظل هود عليه السلام ينذر قومه ويحذرهم بأس اللّه ، ويذكرهم بقوم نوح وبنعم اللّه تعالى عليهم : طول القامة وقوة البدن ، والإقامة في أرض كثيرة الخير من الزروع والماشية ، ويدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام ، ثم توحيد اللّه تعالى ، والتوبة والاستغفار من الشرك في العبادة.

ولكن أغلب القوم كذبوه ، ووصفوه بالسفاهة ، لتركه ما ورثوه عن الآباء من عبادة الأصنام ، وإفراد اللّه تعالى بالعبادة.

ثم اشتطوا فاتهموه بالجنون والخبال والعته ، وأن آلهتهم مستة بسوء ، فتبرأ من تلك الآلهة ، وتحداهم وسخر من تأثيرها المزعوم ، وأعلن أن اللّه وحده هو المؤثر الآخذ بنواصي كل ما على الأرض من دابة ، وأنذرهم أنه إن لم يستمعوا لنصيحته ، فإن اللّه تعالى سيبيدهم ويستخلف قوما غيرهم ، وسيحل بهم عذاب قريب : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ.

وعتا قوم هود وتجبروا وعصوا هودا وكذبوه وجحدوا بآيات اللّه التي أيده اللّه بها لتصديقه في أنه رسول من ربه. ومع ذلك ظل هود عليه السلام يحذرهم

---

(١) الكشاف : ١/ ٥٥٤ وما بعدها.

ج ٨ ، ص : ٢٦٣

و يذكرهم بأن نجاتهم بالإيمان بدعوته والعمل بنصائحه ، فزادهم ذلك عتوا إلى أن دمرهم اللّه بالريح العقيم ، سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

ونجىّ اللّه هودا والذين آمنوا معه برحمة منه ، وظل هود بعد هلاك عاد ساكنا بلاد حضرموت ، إلى أن مات ، ودفن في شرقي بلادهم ، على نحو مرحلتين من مدينة « تريم » قرب وادي برهوت. روى ابن جرير عن علي كرم اللّه وجهه أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة (سدر) في حضرموت.

التفسير والبيان :

وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودا ، ليس أخا في الدين ، وإنما كان واحدا من تلك القبيلة أو من جنسهم جنس بني آدم ، لا من جنس الملائكة ، وذلك ليفهموا كلامه ويأنسوا بمنطقه وأفعاله ، ولتكون أخلاقه دليلا معروفا على سلوكه ، فيكونوا أقرب إلى تصديقه.

قال هود : يا قوم ، اعبدوا اللّه وحده ، ولا تجعلوا معه إلها آخر. أفلا تتقون ربكم ، وتبتعدون عما أنتم عليه من الشرك والمعصية ؟

فقال الملأ أي الجمهور والسادة والقادة منهم : إنا لنراك في خفة حلم ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز ، للإشارة إلى تمكنه فيها. ووصف الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح لأن منهم من كان قد آمن وكتم إسلامه مثل مرثد بن سعد.

وإنا لنظنك في كلامك وادعائك أنك رسول من رب العالمين أنك أحد الكاذبين الذين يكذبون على اللّه في ادعائهم الرسالة من اللّه.

قال لهم غاضا عن اتهامهم بأدب حسن وخلق عظيم : ليس بي سفاهة أي ضلالة وحماقة ، ولكني بحق رسول من رب العالمين ، أرسلني إليكم لتبليغكم

ج ٨ ، ص : ٢٦٤

ما أرسلت به من التكاليف الإلهية ، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين فيما أبلغكم إياه ، فلا أكذب على اللّه. وهذه هي صفات الرسل : التبليغ والنصح والأمانة.

و لا تعجبوا أن بعث اللّه إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام اللّه ولقاءه ، بل احمدوا اللّه على ذاكم.

فقوله : أَوَعَجِبْتُمْ معطوف على محذوف تقديره :

أكذبتم وعجبتم من إنزال وحيه بتذكيركم وعظتكم على لسان رجل منكم ، لينذركم عقابه ويحذركم من بأسه ؟ ! واذكروا فضل اللّه عليكم ونعمته ، إذ جعلكم ورثة نوح ، ومنحكم طولا في القامة وقوة في الجسد تفوق أمثالكم من أبناء جنسكم.

واذكروا آلاء اللّه ، أي نعمه ومننه عليكم ، واشكروه عليها بإخلاص العبادة وترك الشرك به لتفوزوا بجنان الخلد والنعيم الأبدي.

فردوا عليه متمردين بقولهم : أجئتنا لأجل أن نعبد اللّه وحده ، ونفرده بالتعظيم ، ونترك ما كان عليه آباؤنا من اتخاذ الأصنام شركاء معه ؟ أي أنهم أنكروا عليه دعوته ، واستبعدوا اختصاص اللّه وحده بالعبادة ، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه ، حبا لما نشؤوا عليه ، وإلفا لما يتدين به آباؤهم.

وازدادوا طغيانا وعنادا وإنكارا على هود عليه السلام ، بل اشتطوا في الحماقة والتحدي فطلبوا إنزال العذاب عليهم على ترك الإيمان به ، قائلين : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أي استعجل إنزال العذاب علينا إن كنت صادقا في تهديدك ووعيدك.

فأجابهم هود عليه السّلام : إنه قد وجب عليكم وحقّ بمقالتكم هذه من ربّكم عذاب وسخط وطرد من رحمته ، أو قد نزل عليكم ، جاعلا المتوقع الذي لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا (شديدة الصوت) عاتية تلقي

الناس على الأرض كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [القمر ٥٤/ ٢٠] أي أصول نخل قلع من جذره.

أ تحاجونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، وما أنزل اللّه من حجّة ولا برهان أو دليل على عبادتها ؟ ! ثم هددهم وأوعدهم بقوله : فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ أي انتظروا نزول العذاب الشديد من اللّه الذي طلبتموه بقولكم : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إني معكم أحد المنتظرين لنزوله بكم.

وقد نزل بهم العذاب ونجّى اللّه هودا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة من اللّه ، واستأصل الكافرين ، وقطع دابر الذين جحدوا بآيات اللّه لأنهم لم يكونوا مؤمنين باللّه تعالى ، وكذبوا بآيات اللّه ، فهاتان صفتان استوجبتا التّعذيب ، وهما : التّكذيب بآيات اللّه ، والكفر أو عدم الإيمان.

وكان العذاب كما في آيات أخرى بالأعاصير الهوجاء والرّيح العاتية : وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [الذّاريات ٥١/ ٤١- ٤٢] ، وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ [الحاقة ٦٩/ ٦- ٨] ، فلما تمرّدوا وعتوا أهلكهم اللّه

بريح عاتية ، فكانت تحمل الرّجل منهم ، فترفعه في الهواء ، ثمّ ترميه على رأسه ، فتخلع رأسه ممن بين جثّته تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ [الأحقاف ٤٦/ ٢٥].

(٢٦٩/٨)

و مظاهر عتوّهم : عبادة الأوثان ، وظلم الناس ، والاغترار بالقوّة : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ [فصلت ٤١/ ١٥] ، وبناء الأبنية الضخمة في كلّ مكان عبثا بغير نفع ، فعاتبهم هود

ج ٨ ، ص : ٢٦٦

و كلمهم : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ... [الشعراء ٢٦/ ١٢٨- ١٣١] ، قالُوا : يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَقُولُ : إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ [هود ١١/ ٥٣- ٥٤] أي بجنون.

فقه الحياة أو الأحكام :

في قصة هو مع قومه عبر وعظات أهمها ما يأتي :

١- ضرورة التّحلّي بالصبر بسبب معاناة الأنبياء الشديدة في دعوة أقوامهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، ورفض الإشراك به معه إلها آخر. فقد دعا هود قومه إلى عبادة اللّه وحده ، وذكّرهم بنعم اللّه وأفضاله عليهم من التّمكين في الأرض وزيادة القوة البدنية وطول القامة ، قال ابن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا.

٢- خيبة الآمال بالتّفوق حين استمر عناد القوم (قوم عاد) وتمرّدهم وإنكارهم دعوة نبيّهم ، فقد حملهم غرورهم بقوتهم الجسدية والمادية في البناء والمصانع على الاستهانة بتهديد النّبي ووعيده ، فاستعجلوا إنزال العذاب عليهم.

(٢٧٠/٨)

٣- النّبي يكون عادة من جنس قومه ، فهو بشر مثلهم ، وهو أيضا واحد من القبيلة ، لكنه يكون من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، وأكرمهم معشرا ، وأرفعهم خلقا وأدبا. وهذا كلّه كان منطبقا على هود عليه السّلام ، بدليل إجابته لقومه الذين اتّهموه بالسّفاهة إجابة صادرة عن الحكمة ، والتّرفّع عمّا قالوا ووصفوه بالسّفاهة والضّلالة. وهذا منهج أصحاب السّمو والرّفعة ، يقابلون السّفهاء بالحلم ، ويغضون

عن قول السّوء بالصّفح والعفو والمغفرة.

ج ٨ ، ص : ٢٦٧

٤- إنّ نتيجة التّمرّد والعتو والطّغيان هي الانهيار والدّمار ، وقد دمّر اللّه عادا بسبب تكذيبهم بآيات اللّه ، وكفرهم وعدم إيمانهم ، فعصف بهم بالرّيح العاتية.

٥- نجّى اللّه هودا وجماعة الإيمان لاستحقاقهم الرّحمة بسبب إيمانهم ، وأنزل على عاد عذاب الاستئصال الذي هو الرّيح ، معجزة لهود عليه السّلام.

قصة صالح عليه السّلام [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٣ الى ٧٩]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧(٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧(٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

ج ٨ ، ص : ٢٦٨

الإعراب :

آيَةً حال ، عاملها معنى الإشارة ، وكانوا سألوه أن يخرجها من صخرة عينوها بُيُوتاً حال مقدرة لأن الجبل لا يكون بيتا في حال النّحت. لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من قوله : لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا بإعادة العامل الجارّ ، كقوله تعالى : وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ [الزّخرف ٤٣/ ٣٣] : فقوله : لِبُيُوتِهِمْ بدل من قوله : لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ وهذا يدلّ على أن العامل في البدل غير العامل في المبدل منه.

أما الضمير مِنْهُمْ فإن رجع إلى قَوْمِهِ فهو بدل الشيء من الشيء ، وهما لعين واحدة ، وإن رجع إلى لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فهو بدل بعض من كلّ. وعلى الأوّل يكون المعنى : أن استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين ، وعلى الثاني لم يكن الاستضعاف مقصورا عليهم ، ويدلّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين.

البلاغة :

هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ إضافة تشريف وتكريم.

وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ التّنكير للتّقليل والتّحقير ، أي لا تمسّوها بأدنى سوء.

مُؤْمِنُونَ وكافِرُونَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

ثَمُودَ قبيلة عربية كانت تسكن الحجر بين الحجاز والشّام ، إلى وادي القرى قرب تبوك ، سمّوا باسم جدّهم : ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح. فإذا كانت ممنوعة من الصّرف فيراد بها القبيلة ، وإذا صرفت يراد بها الحي ، أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر.

أَخاهُمْ صالِحاً هو نبيّهم ، وكان من أشرفهم نسبا وأعلاهم حسبا ، وأخوته لثمود كأخوة

هود لقومه : أخوة في القبيلة أو الجنس ، أي من بني آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة ، فهي أخوة في النّسب لا في الدّين.

بَيِّنَةٌ معجزة ظاهرة الدّلالة من اللّه على صدقه. وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ بعقر أو ضرب.

وَ اذْكُرُوا تذكّروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ أي في الأرض. وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أسكنكم فيها أو أنزلكم فيها ، والأرض : أرض الحجر بين الحجاز والشام. مِنْ سُهُولِها قُصُوراً تسكنونها في الصيف. وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً تسكنونها في الشتاء. والنّحت : نحر الشيء الصّلب.

فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ تذكّروا نعم اللّه الكثيرة. وَلا تَعْثَوْا من العثيّ والعثو : الفساد.

اسْتَكْبَرُوا تكبّروا عن الإيمان به.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ نحروها بالذّبح ، وأصل العقر : الجرح ، وعقر الإبل : قطع قوائمها ، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت في مكانها ولا تنتقل. والذي عقرها هو : « قدار بن سالف » حيث قتلها بأمرهم بالسّيف ، وإنّما نسب الفعل إليهم جميعا لأن العقر كان برضاهم وأمرهم ، والآمر والرّاضي بالفعل : شريك في الجريمة.

وَعَتَوْا تمرّدوا مستكبرين. الرَّجْفَةُ الزّلزلة الشديدة من الأرض أو الحركة والاضطراب ، والصّيحة من السّماء. جاثِمِينَ باركين على الرّكب ، أو قاعدين لا حراك بهم ، والمراد : أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة لا تتحرّك.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه في أوّل السّورة قصة آدم الدّالة على قدرته وتوحيده وربوبيته ، وأقام الأدلّة الدّامغة على صحّة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وموقف أقوامهم المعاندين لهم ، فذكر قصة نوح ثمّ قصة هود ، ثم قصة ثمود ، وكان قوم ثمود يتلون قوم عاد في الوجود والظّهور بين الأمم ، كما قال تعالى على لسان صالح عليه السّلام : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ.

أضواء من التاريخ :

ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح ، وهو أخو جديس بن عائز ، وكذلك قبيلة طسم ، كلّ هؤلاء من العرب العاربة البائدة قبل إبراهيم الخليل عليه السّلام.

ج ٨ ، ص : ٢٧٠

(٢٧٤/٨)

و كانت ثمود– قوم صالح– بعد عاد ، ورثوا أرضهم وديارهم ، وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشّام ، إلى وادي القرى وما حوله. ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم ، تعرف ب « فجّ النّاقة » . وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين ، وهي مصاقبة لخليج العقبة. وقد كان يقال لعاد : عاد إرم ، إلى أن هلكوا ، فقالوا : ثمود إرم.

وقد مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ديارهم ومساكنهم ، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع ، قال الإمام أحمد عن ابن عمر قال : لما نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها النّاقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال :

« إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم » .

و

روى أحمد أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل

ما أصابهم »

وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

وكانت قبيلة ثمود مثل قوم نوح وعاد تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع اللّه في العبادة ، وآتاهم اللّه نعما كثيرة ، فأرسل اللّه إليهم صالحا نبيّا عليه السّلام ، واعظا لهم ومذكّرا لهم بنعم اللّه وآياته الدّالة على توحيده وأنه لا شريك له ، وأنه يجب إفراده بالعبادة دون سواه.

(٢٧٥/٨)

فآمن به المستضعفون من قومه ، وكفر الملأ (السّادة والأشراف والقادة) ولم يؤمنوا به ، وعصوا وتكبروا وكفروا ، وأنكروا نبوته : أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ [القمر ٥٤/ ٢٥] ، وقالوا للمستضعفين : أَتَعْلَمُونَ

ج ٨ ، ص : ٢٧١

أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ [الأعراف ٧/ ٧٥] ، فأجاب المستكبرون : إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ [الأعراف ٧/ ٧٦].

وطلب المستكبرون منه آية على صدقه ، فأيّده اللّه بالنّاقة وقال لهم : لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الشعراء ٢٦/ ١٥٥] ، إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [القمر ٥٤/ ٢٧- ٢٨] ، فكانت تشرب ماء البئر أو النّهر الصغير في يوم ، ويشربون منه في اليوم التالي ، ويحلبون منها ما شاؤوا فلا ينضب حليبها.

وأمرهم ألا يمسّوها بسوء ، وأن يذروها تأكل في أرض اللّه ، وبذل صالح عليه السّلام قصارى جهده في تذكير قومه بنعم اللّه تعالى عليهم ، ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين.

فتكبّروا عن الإيمان به ، واستخفّوا به ، وعاندوه ، وعتوا عن أمر ربّهم ، وعقروا النّاقة ، عقرها قدار بن سالف بأمرهم : فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقالُوا : يا صالِحُ : ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [الأعراف ٧/ ٧٧] ، فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ [القمر ٥٤/ ٢٩].

(٢٧٦/٨)

فقال لهم : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ [هود ١١/ ٦٥] ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقالَ : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ [الأعراف ٧/ ٧٩] ، ثم نزل عليهم العذاب عذاب الرّجفة (الواقعة الشديدة من صوت الرّعد ، المصحوبة بقطعة من نار تحرق ما أتت عليه) أو

عذاب الصيحة : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ [الأعراف ٧/ ٧٨] ، وقال تعالى : فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً ، فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [القمر ٥٤/ ٣٠- ٣١] ، وعبّر تعالى عنها أيضا بالصاعقة ، وتارة بالطاغية. وكلّ ذلك صحيح لأن الصاعقة تكون

ج ٨ ، ص : ٢٧٢

مصحوبة بصوت شديد ، وقد تصحب برجفة أشبه بالزّلزال ، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها إلى مكان آخر.

ونجّى اللّه صالحا والذين آمنوا معه من العذاب ، فذهبوا إلى الرّملة بنواحي فلسطين لأنها بلاد خصبة. وكان عددهم كما ذكر الألوسي مائة وعشرين ، وأما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت : أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلا بُعْداً لِثَمُودَ [هود ١١/ ٦٨].

وذكر اسم صالح في القرآن تسع مرّات ، في سورة الأعراف في الآيات : (٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧) ، وفي سورة هود في الآيات : (٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩) ، وفي سورة الشعراء في الآية (٤٢). وصالح كما ذكر البغوي : هو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

التفسير والبيان :

ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، ليس أخا في الدين ، وإنما من القبيلة أو من جنسهم البشري لا من الملائكة.

فقال صالح ثمود : يا قوم اعبدوا اللّه وحده لا شريك له ، فما لكم من إله تعبدونه غيره ، وهكذا جميع الرسل يدعون إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١/ ٢٥] وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦].

قد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما جئتكم به ، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاتبة. فأخذ عليهم العهود والمواثيق : لئن أجابهم اللّه إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنّه ، فلما أعطوه على

ج ٨ ، ص : ٢٧٣

ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا اللّه عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا ، واللّه على كل شيء قدير.

فآمن عندئذ رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلهس.

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما ، وتدعه لهم يوما ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبون ، فيملئون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم « ١ » ، كما قال في الآية الأخرى : وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [القمر ٥٤/ ٢٨] وقال أيضا : هذِهِ ناقَةٌ ، لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الشعراء ٢٦/ ١٥٥] قال ابن عباس : كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها.

قال لهم : هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً أي أنها دليل قاطع على صدق نبوتي ، وأضاف الناقة إلى اللّه للتشريف والتكريم وتعظيم شأنها لأنها جاءت من عنده مكونة من غير أم ولا أب ، بل من صخرة عظيمة.

ثم أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض اللّه ما شاءت ، وألا يتعرضوا لها بسوء في نفسها ولا في أكلها ، فإنكم إن فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم.

ثم ذكّرهم بنعم اللّه عليهم وبوجوب شكرها وعبادته تعالى فقال :

وَاذْكُرُوا ... أي تذكروا نعم اللّه وأفضاله وإحسانه عليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران وقوة البأس ، وأورثكم أرضهم وديارهم ، وأسكنكم منازلهم ، تتخذون من سهولها قصورا عالية ، بما ألهمكم من حذق الصناعة

---

(١) تفسير الكشاف : ١/ ٥٥٥- ٥٥٦ ، تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٢٨ [.....]

و الاستفادة من التراب بصنع اللبن والآجر ومن سهولة الأرض ، وتنحتون من الجبال أحجارا تبنون بها بيوتا محصنة ، يسكنونها في الشتاء لقوتها ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون في السهول بقية الفصول للزراعة.

فتذكروا هذه النعم الكثيرة العظيمة ، واشكروا اللّه عليها بتوحيده وإفراده بالعبادة ، وإياكم أن تفسدوا في الأرض ، بأي نوع من أنواع الفساد.

(٢٧٩/٨)

فقال الملأ أي الأشراف والسادة والزعماء للفقراء المستضعفين الذين هم أسرع الناس عادة إلى إجابة دعوة الرسل ، وهم المؤمنون منهم : أتعلمون أن صالحا رسول من عند اللّه ؟ وهو سؤال يراد به التهكم والسخرية والاستهزاء بهم. فأجابهم هؤلاء : نحن نعلم يقينا أنه رسول من عند ربه بلا ريب ولا شك ، وإنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مؤمنون مصدّقون ومقرون بأنه من عند اللّه. سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمرا معلوما لا شك فيه ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون. وقوله : لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من الذين استضعفوا ، كما بينا لأن المستضعفين هم المؤمنون ، وهو بدل البعض من الكل ، وهو الراجح.

فأجاب الكفرة الذين استكبروا عن الإيمان برسالة صالح : إنا بالذي صدقتم وآمنتم به من نبوة صالح جاحدون منكرون.

وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به صالح كافرون لأن ذلك يتضمن شهادتهم على أنفسهم بإثبات رسالته ، ثم بإنكارها وجحودها عنادا. وقال الزمخشري :

وضعوا : آمَنْتُمْ بِهِ موضع : أرسل به ردّا لما جعله المؤمنون معلوما وجعلوه مسلّما.

ولما اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتل الناقة ، ليستأثروا بالماء كل يوم ، فاتفقوا على قتلها ، وعقروا الناقة أي نحروها ، ونسب

ج ٨ ، ص : ٢٧٥

الفعل إليهم جميعا مع أن قاتلها واحد ، كما جاء في سورة القمر فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ [٢٩] لرضاهم جميعا بفعله ، وكما قال تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها ، وَلا يَخافُ عُقْباها [الشمس ٩١/ ١٤- ١٥] و

جاء في صحيح البخاري مرفوعا : « فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبي زمعة » .

(٢٨٠/٨)

و عتوا عن أمر ربهم أي تمردوا عن اتباع رسالة صالح وأعرضوا عن امتثال أمر ربهم ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام ، من قوله :

فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ... أو شأن ربهم وهو دينه. وقالوا : يا صالح ، ائتنا بما وعدتنا به من العذاب والانتقام ، إن كنت رسولا ، وتدعي الصدق فيما تبلغ به عن اللّه ، وهذه سمة الحمقى والسفهاء والأغرار.

روى الإمام أحمد والحاكم عن جابر قال : لما مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت- يعني الناقة- ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوما ، ويشربون لبنها يوما ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة ، أخمدهم اللّه بها من تحت أديم السماء ، إلا رجلا واحدا كان في حرم اللّه ، فقالوا : من هو يا رسول اللّه ؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » .

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وفي سورة هود : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وفي سورة فصلت : فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ وفي سورة الذاريات : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ والمراد بالجميع واحد : وهو الصيحة الشديدة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها. وسببها اصطكاك الأجرام السماوية.

فأصبحوا في دارهم أي في بلادهم أو في مساكنهم جثثا هامدة موتى لا يتحركون.

ج ٨ ، ص : ٢٧٦

فتولى عنهم صالح عليه السلام ، والظاهر أنه كان مشاهدا لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولّي مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم ، حزنا عليهم.

(٢٨١/٨)

و قال : يا قوم ، لقد بذلت فيكم منتهى وسعي وجهدي في إبلاغكم النصيحة لكم ، ولكنكم لا تحبون الناصحين ، فوجبت عليكم كلمة العذاب. وهذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه ، لما أهلكهم اللّه بمخالفتهم إياه ، وتمردهم على اللّه ، وإبائهم عن قبول الحق.

روي أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ، ونزل بهم العذاب يوم السبت.

وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي ، فالتفت فرأى الدخان ساطعا ، فعلم أنهم قد هلكوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة دار ، وروي غير ذلك.

ونداء صالح عليه السلام لقومه بعد الموت

كنداء النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعض قتلى قريش ببدر ، بعد دفنهم في القليب (البئر غير المطوية أو غير المبنية) : « يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان ، أيسرّكم أنكم أطعتم اللّه ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ ! » .

قال راوي الحديث أبو طلحة الأنصاري- فيما أخرجه البخاري وغيره- قال عمر : يا رسول اللّه ، ما تكلم من أقوام قد جيّفوا ؟ - أي أجساد لا أرواح لها أو فيها وقد أنتنوا- فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و الذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون.

ج ٨ ، ص : ٢٧٧

فقه الحياة أو الأحكام :

ثمود « ١ » مثل عاد من القبائل العربية العاربة ، بعث اللّه إليهم صالحا نبيا ، فهم قوم صالح عليه السلام ، وكان صالح من أوسطهم نسبا ، وأفضلهم حسبا ، فدعاهم إلى اللّه تعالى حتى شاب ، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون. وقال المستكبرون : نحن كافرون بما جاء به صالح.

(٢٨٢/٨)

قال الرازي : وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى ، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه ، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما ، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد ، والإباء ، والإنكار ، والكفر. وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان ، والتصديق والانقياد ، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى « ٢ » .

واستدل بقوله تعالى : تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أي تنبون القصور بكل موضع ، وقوله : وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها. وبقوله : قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ [الأعراف ٧/ ٣٢] و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه ابن أبي الدنيا عن علي بن زيد بن جدعان مرسلا : « إن اللّه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه » .

ومن آثار النعمة : البناء الحسن ، والثياب الحسنة.

وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصري وغيره. واحتجوا

بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الطبراني والخطيب عن جابر وهو ضعيف : « إذا أراد اللّه بعبد شرا ، خضر

---

(١) ثمود : لم ينصرف لأنه جعل اسما للقبيلة كما ذكر سابقا ، وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه اسم أعجمي ، قال النحاس : وهذا غلط لأنه مشتق من الثّمد : وهو الماء القليل.

(٢) تفسير الرازي : ١٤/ ١٦٥

ج ٨ ، ص : ٢٧٨

له في الطين واللّبن حتى يبنى »

و

في خبر آخر أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال فيما رواه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود : « من بنى فوق ما يكفيه ، كلّف يوم القيامة أن يحمله على عنقه »

و

(٢٨٣/٨)

أخرج الدار قطني عن جابر بن عبد اللّه قال : قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « و ما أنفق المؤمن من نفقة ، فإن خلفها على اللّه عز وجل ، إلا ما كان في بنيان أو معصية » .

ودل قوله تعالى : فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ على أن الكفار منعم عليهم.

وفي قوله : قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ..

دلالة على أن السادة والزعماء هم الذين تكبروا عن الإيمان ، شأنهم في ذلك أمثالهم مع كل نبي ومصلح يتمردون ويستعلون عليه. وفيه دلالة أيضا على أن المستضعفين هم الذين آمنوا برسالة صالح عليه السلام ، وهو الشأن الغالب أيضا مع كل نبي ، يبادر الضعفاء والفقراء إلى الإصغاء لكلمة الحق والهدى والإيمان ، فيكونون أهل الجنة ، وأولئك المتكبرون هم أهل النار والعذاب في الدنيا.

وأما قول صالح : وَقالَ : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ...

فيحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم ، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ،

كقوله صلّى اللّه عليه وسلّم لقتلى بدر : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فقيل : أتكلم هؤلاء الجيف ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يقدرون على الجواب » .

قال القرطبي : والأول أظهر ، يدل عليه : وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ أي لم تقبلوا نصحي. وذكر ابن كثير وغيره :

أن صالحا قال لهم ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا.

وقوله تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ والفاء للتعقيب : يدل على أن الرجفة أخذتهم عقيب ما ذكروا ذلك الكلام ، لكن ليس الأمر كذلك لأنه تعالى قال في آية أخرى : فَقالَ : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ [هود ١١/ ٦٥].

ولا تناقض بين تعبير الرجفة هنا ، والطاغية والصيحة والصاعقة ، كما ذكرنا

ج ٨ ، ص : ٢٧٩

في آيات أخرى ، لأن الرجفة هي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها. والطاغية : اسم لكل ما تجاوز حده ، والهاء للمبالغة. وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة : فالغالب أنها الزلزلة ، وكذلك الزجرة ، قال تعالى : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ٧٩/ ١٣- ١٤].

وفي هذه القصة معجزات هي : أن القوم قد شاهدوا خروج الناقة من الصخرة ، وشاهدوا أن الماء الذي كان شربا لكل أولئك الأقوام في أحد اليومين ، كان شربا لتلك الناقة الواحدة في اليوم الثاني ، ثم إن القوم لما نحروها ، وكان صالح عليه السلام قد توعدهم بالعذاب الشديد إن نحروها ، فلما شاهدوا بعد إقدامهم على نحرها آثار العذاب ، اقتضاهم العدول عن إصرارهم على الكفر والتوبة منه. روي أنهم احمروا في اليوم الأول ، ثم اصفروا في اليوم الثاني ، ثم اسودوا في اليوم الثالث.

وأما الناقة فكانت تسرح في الأودية ، ترد من فج (طريق) وتصدر (تعود) من غيره ، ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ، ومنظرا رائعا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها.

قصة لوط عليه السلام [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨(١) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨(٢) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨(٣) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

ج ٨ ، ص : ٢٨٠

الإعراب :

وَلُوطاً منصوب بتقدير فعل ، تقديره : واذكروا لوطا ، أو أرسلنا لوطا. إِذْ قالَ بدل مما سبق. قال النحويون : إنما صرف لوط ونوح لخفته ، فإنه مركب من ثلاثة أحرف ، وهو ساكن الوسط.

أ إِنَّكُمْ الهمزة الأولى همزة الاستفهام ، والثانية همزة : « إن » .

شَهْوَةً منصوب على المصدر ، أي تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال.

البلاغة :

أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ استفهام إنكار وتوبيخ.

إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ هذا تعريض بما يوهم الذم ، قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به.

المفردات اللغوية :

وَلُوطاً لوط : هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، ولد في « أور الكلدانيين » في الطرف الشرقي من جنوب العراق ، وكانت تسمى أرض بابل. هاجر بعد موت والده مع عمه إبراهيم إلى ما بين النهرين إلى جزيرة قورا ، حيث توجد مملكة آشور ، ثم ذهب معه إلى الأرض الشام ، حيث أسكنه إبراهيم شرقي الأردن ، وعاش في المكان المسمى بعمق السديم قرب البحر الميت (أو بحر لوط) وهي قرى خمس ، سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، ثم بعثه اللّه إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى اللّه عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر وما يرتكبونه من الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، حتى صنع ذلك أهل سدوم. لَتَأْتُونَ الرِّجالَ يقال : أتى المرأة : غشيها. مُسْرِفُونَ متجاوزون الحلال إلى الحرام. أَخْرِجُوهُمْ أي لوطا وأتباعه.

يَتَطَهَّرُونَ من أدبار الرجال. الْغابِرِينَ الباقين في العذاب.

ج ٨ ، ص : ٢٨١

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة : قصة لوط مع قومه : أهل سدوم ، ذكرت بعد قصة نوح ، وهود ، وصالح عليهم السلام ، لبيان ما حلّ بهم من العذاب والنكال حينما أعرضوا عن نصح الأنبياء ، وعتوا عن أوامر اللّه.

أضواء من التاريخ :

لوط : هو لوط بن هاران– أخي إبراهيم بن تارح ، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه ، كما قال تعالى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقالَ : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي [العنكبوت ٢٩/ ٢٦] وتبع إبراهيم في رحلاته ، فكان معه فيما بين النهرين ، ثم بمصر ، ثم ببلاد الشام ، حيث سكن في سدوم في شرقي الأردن.

وذكرت قصة لوط في عدة سور باختلاف يسير ، وبعضها يكمل بعضا.

وكان أهل سدوم يعملون الخبائث دون حياء ولا عفة ، وأمام الناس ، ويقطعون الطريق على التجار ، ويأخذون بضائعهم ، كما قال تعالى على لسان لوط : أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ [العنكبوت ٢٩/ ٢٩].

وقد وعظهم لوط عليه السلام ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس اللّه تعالى ، فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا ، فلما ألح عليهم بالموعظة هددوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج ، إلى أن جاء لوط الملائكة ، بعد أن مرّوا بإبراهيم وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط ، وهم أهل سدوم وعامورة ، فخاف أن يمس لوط بأذى ، فأخبروه بأنه ناج هو ومن آمن معه ، وأخبروه بأن العذاب بالقوم أمر حتم :

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ [هود ١١/ ٧٦].

ج ٨ ، ص : ٢٨٢

جاء هؤلاء الملائكة إلى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه ، فجاء جماعة من سدوم إلى لوط ، طالبين ضيوفه ، ليفعلوا فيهم الفاحشة ، فحاول لوط جاهدا في ردهم ، وبالغ في ذلك حتى طلب إليهم أن يأخذوا بناته بطريق العرض غير المؤكد وبالزواج المشروع ، اعتمادا على استحيائهم منه ، ليحمي ضيوفه. فلم يرضوا. ثم قال لوط للملائكة الذين لم يعلم أنهم ملائكة : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ [هود ١١/ ٨٠] أي لجاهدتهم بكم وعاقبتهم بما يستحقون ، وحينئذ أعلموه بحقيقة أمرهم ، وأنهم جاؤوا للتنكيل بأولئك القوم.

ولما حاول أهل القرية أخذ هؤلاء المردان بالقوة ، وهجموا على بيت لوط ، طمس اللّه أعينهم ، فلم يبصروا ، ولم يهتدوا إلى مكان الاقتحام. ثم أخرج الملائكة لوطا وابنتيه وزوجه من القرية ، وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد ، وأن يحضروا حيث يؤمرون ، فصدعوا بالأمر إلا امرأته فإنها التفتت إلى القرية لترى ما يحل بها ، وكانت متعلقة بهم ، وكانت كافرة ، فحل بها من العذاب ما حل بهم ، وأمطر اللّه عليهم حجارة من سجيل ، وقلبت ديار القوم ، وكانوا ألفا أو أكثر « ١ » .

قال تعالى : قالُوا : يا لُوطُ ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ... [هود ١١/ ٨١- ٨٢].

التفسير والبيان :

واذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون الفعلة الفاحشة التي ما فعلها أحد قبلكم في أي زمان ، بل هي مبتدعة منكم ، وعليكم وزر كل من

)

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار : ١١٣ ، ط الرابعة.

ج ٨ ، ص : ٢٨٣

يفعلها. وهذا يدل على أنها أمر مناقض للفطرة. وقوله : ما سَبَقَكُمْ بِها الباء للتعدية. وقوله مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق ، والثانية للتبعيض.

إنكم تأتون الرجال في أدبارهم وتدعون الزواج بالنساء في أقبالهن ، أي إنكم عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن ، إلى إتيان الرجال ، وهذا شذوذ وإسراف منكم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ [الحجر ١٥/ ٧١]. فأرشدهم إلى جنس النساء ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن.

وقوله : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ بيان لقوله : تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ.

وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ شديد ، وقوله : مِنْ دُونِ النِّساءِ إشارة إلى أنهم تجاوزوا النساء ، وهن محل قضاء الشهوة عند ذوي الفطر السليمة.

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أي إنكم لا تأتون الفاحشة ثم تندمون على فعلها ، بل إنكم قوم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في حال قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ، ونحوه قوله تعالى : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ [الشعراء ٢٦/ ١٦٦] أي في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة.

ووصفهم بصفة أخرى في سورة النمل : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [٥٥].

وفي هذا دليل على إسرافهم في اللذات ، وتجاوزهم حدود العقل والفطرة ، وجهالتهم عواقب الأمور إذ أنهم لا يقدرون ضرر ذلك على الصحة ، وما يحدثه من مرضثبت في العصر الحديث أنه مميت.

وما كان جوابهم عن هذا الإنكار والنصح شيئا مقنعا ، أو رجوعا عن الخطأ والضلال وإنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، وإنما هموا بإخراج لوط ونفيه ومن معه

ج ٨ ، ص : ٢٨٤

من المؤمنين من قريتهم تضجرا منهم وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم وقولهم ، فهم لم يجيبوه بما يناسب كلامه ، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته بالأمر بإخراجه. وقوله : أَخْرِجُوهُمْ أي لوطا وأتباعه.

وقالوا لبعضهم : إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتكم في فعلكم وعن الفواحش وعن أدبار الرجال والنساء. وهذا صادر منهم على سبيل السخرية بهم والتهكم ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد.

فقوله : يَتَطَهَّرُونَ أي الإتيان في هذا المأتى.

وكانت نتيجة الأمر أن اللّه تعالى أنجى لوطا وأهل بيته الذين آمنوا معه ، إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن ، فكانت من جماعة الهالكين الباقين مع قومها في العذاب لأنها كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، وهذا كقوله تعالى : فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات ٥١/ ٣٥- ٣٦] أي لم يكن آمن به أحد من قومه سوى أهل بيته فقط.

وأمطر عليهم مطرا كثيرا عجيبا أمره وهو الحجارة التي رموا بها ، وقد فسرتها آية أخرى : وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [هود ١١/ ٨٢- ٨٣] وآية : فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [الحجر ١٥/ ٧٤] ومعنى قوله : مسومة أي معلمة ببياض في حمرة ، والسّجيل : طين طبخ بالنار كالفخّار.

وربما تكون تلك الحجارة محمولة بإعصار من الريح العاتية ، أو من النيازك وهي الحجارة المنفصلة من بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها.

فانظر يا محمد وكل معتبر بهذا القصص للانزجار ، كيف كان عاقبة المجترئ

على معاصي اللّه عزّ وجلّ ، ويكذب رسله ، لتعلم عقاب الأمة على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن تحريم اللواط لأسباب كثيرة :

١- الضرر بالمفعول به ، فإنه يحدث مرضا ثبت أنه مميت وهو المسمى « الإيدز » أي فقد المناعة لأنه تعالى أودع في الرحم جاذبية شديدة لامتصاص المني ، وليس في عضو المفعول به قوة جاذبية للمني ، فيتسمم الدم ويحدث الضرر.

٢- إفساد خلق اللائط وإسرافه في الشهوة ، إذ لا يقدر آنيا المخاطر.

٣- إلحاق العار والعيب بكل من الفاعل والمفعول به ، واستحكام العداوة بينهما.

٤– إفساد النساء بالإعراض عنهن إلى الرجال.

٥– إقلال النسل ، لما في الفاحشة من رغبة عن الزواج ، والرغبة عن الزوجات في غير محل الإنجاب. أما الإتيان في محل الحرث فيحقق الإنجاب ، شاء الرجل أم أبى.

لهذا كان عذاب القوم هو الاستئصال في الدنيا ، ثم إن عذاب الآخرة أعظم وأدوم من ذلك.

أما مذاهب العلماء المسلمين في عقاب اللواط فهي ما يأتي :

١– قال أبو حنيفة : يعزر اللوطي فقط ، سواء كان محصنا أو غيره إذ ليس في اللواط اختلاط أنساب ، ولا يترتب عليه غالبا حدوث منازعات تؤدي إلى قتل اللائط ، وليس هو زنى.

ج ٨ ، ص : ٢٨٦

٢– وقال الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) : إن اللواط يوجب الحد لأن اللّه سبحانه غلّظ عقوبة فاعله في كتابه المجيد ، فيجب فيه حد الزنى ، لوجود معنى الزنى فيه.

وحد اللائط عند المالكية ، والحنابلة في أظهر الروايتين عن أحمد : هو الرجم بكل حال ، سواء أحصن (تزوج) أو لم يحصن ، أي سواء أكان ثيبا أم بكرا

(٢٩١/٨)

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم– فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم– : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وفي لفظ : « فارجموا الأعلى والأسفل » .

وحد اللائط عند الشافعية هو حد الزنى ، فإن كان اللائط محصنا (متزوجا) وجب عليه الرجم ، وإن كان غير محصن ، وجب عليه الجلد والتغريب ،

لما روى أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا جاء الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان »

ولأنه حد يجب بالوطء ، فاختلف فيه البكر (غير المتزوج) والثيّب (المتزوج) قياسا على حد الزنى ، بجامع أن كلا منهما إيلاج محرم في فرج محرم « ١ » .

أما إتيان البهيمة : فاتفق أئمة المذاهب الأربعة على أن واطئ البهيمة يعزره الحاكم بما يردعه لأن الطبع السليم يأبى هذا الوطء ، فلم يحتج إلى زاجر بحد ، بل يعزر. وفي سنن النسائي وأبي داود عن ابن عباس رضي اللّه عنهما : « ليس على الذي يأتي بهيمة حد » « ٢ » .

وأما حديث أبي داود والدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه »

فلم يثبت ،

(١) كتابي موسوعة الفقه الإسلامي « الفقه الإسلامي وأدلته » : ٦/ ٦٦

(٢) المرجع والمكان السابق.

ج ٨ ، ص : ٢٨٧

بدليل قول ابن عباس : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها بعد ذلك العمل « ١ » .

قصة شعيب عليه السلام [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٥ الى ٨٧]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٧)

الإعراب :

بَعْدَ إِصْلاحِها على حذف مضاف أي بعد إصلاح أهلها.

تُوعِدُونَ محل الجملة وما عطف عليها النصب على الحال ، أي ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل اللّه وباغيها عوجا. وضمير مَنْ آمَنَ بِهِ يرجع إلى كل صراط ، وتقديره :

توعدون من آمن به وتصدون عنه ، فوضع الظاهر الذي هو سَبِيلِ اللَّهِ موضع الضمير : زيادة في تقبيح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه.

(١) قال ابن العربي في أحكام القرآن : ٢/ ٧٧٧ : هذا الحديث متروك بالإجماع ، فلا يلتفت إليه.

ج ٨ ، ص : ٢٨٨

المفردات اللغوية :

وَ إِلى مَدْيَنَ أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين قبيلة عربية كانت تسكن أرض معان في شرقي الأردن ، من طريق الحجاز ، وهم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وكانوا يكفرون باللّه ، وعبدوا الملائكة من دونه ،

وكانوا يبخسون الناس في الكيل والوزن. وكما تطلق مدين على القبيلة ، تطلق- كما ذكر ابن كثير- على المدينة المعروفة قرب معان ، بدليل قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ [القصص ٢٨/ ٢٣] وهم أصحاب الأيكة ، كما ذكر ابن كثير.

أَخاهُمْ شُعَيْباً أي ليس أخا في الدين ، وإنما هو من قبيلتهم أو من جنسهم البشري ، لا من جنس الملائكة ، فهي أخوة في النسب لا في الدين ، وشعيب : هو ابن ميكيل بن يشجر ، واسمه بالسريانية « يثرون » بعثه اللّه إلى أهل مدين.

بَيِّنَةٌ حجة ظاهرة أو معجزة. مِنْ رَبِّكُمْ على صدقي. فَأَوْفُوا الْكَيْلَ أتموه.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ لا تنقصوهم حقهم. وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ شامل لإفساد نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق ، بارتكاب الفواحش ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام. بَعْدَ إِصْلاحِها إصلاح الأرض : هو إصلاح أهلها وما فيها بغرس العقيدة الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، وإعمارها بما يرقي الحالة المعيشية.

بِكُلِّ صِراطٍ طريق. تُوعِدُونَ تخوفون الناس بأخذ ثيابهم وأموالهم أو أخذ المكس منهم. وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تصرفون عن دين اللّه من آمن به بتوعدكم إياه بالقتل.

وَتَبْغُونَها عِوَجاً تطلبون الطريق معوجة. فَكَثَّرَكُمْ أي بارك في نسلكم. عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أي من كان قبلكم بتكذيب رسلهم ، كان آخر أمرهم الهلاك.

أضواء من التاريخ :

هذه هي القصة الخامسة من قصص الأنبياء بعد نوح وهود وثمود ولوط عليهم السلام ، وهي قصة شعيب عليه السلام مع قومه شعب مدين.

أما شعيب فهو ابن ميكيل بن يشجر ، وهو من أنبياء العرب ، وذكر في القرآن عشر مرات : في سورة الأعراف في الآيات ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ وفي سورة هود في الآيات ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، وفي سورة الشعراء في الآية ١٧٧ ، وفي سورة العنكبوت في الآية ٣٦. وكانت بعثته قبل زمن موسى عليه السلام لأن

اللّه تعالى قال بعد ذكر قصص هؤلاء الأنبياء الخمسة : ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ [الأعراف ٧/ ١٠٣].

وأما مدين أو مديان فهم من سلالة مدين بن إبراهيم عليه السلام ، كانوا يسكنون مدينة مدين قرب

معان جنوب شرقي الأردن على طريق الحجاز.

وكانوا يعبدون غير اللّه تعالى ، ويبخسون المكيال والميزان ، فنهاهم شعيب عن كل ذلك ، وحذرهم بأس اللّه ، بما أوتي من قوة البيان والبراعة في إيراد الحجة عليهم ، حتى إنه يسمى « خطيب الأنبياء » وهم أصحاب الأيكة في رأي ابن كثير.

وكانوا يقعدون على الطرق يصدون الناس عن دين اللّه ، قال ابن عباس :

كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون لمن أتى إليهم : إن شعيبا كذاب ، فلا يفتننّكم عن دينكم.

ويقولون أيضا : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ [الأعراف ٧/ ٩٠].

وقد حاولوا إبطال دعوته ، وإلحاق الأذى به ، واحتقار شأنه ، وتهديده :

قالُوا : يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ، وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ، وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ [هود ١١/ ٩١]. بل عابوا عليه صلاته التي تأمره بنهيهم عن عبادة غير اللّه ، والعدل في الكيل والميزان : قالُوا : يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ [هود ١١/ ٨٧].

و لما أفحمهم بدعائهم إلى الإيمان باللّه وحسن المعاملة ، هدده الملأ (السادة) من قومه بإخراجه ومن معه من المؤمنين من القرية إذا لم يعتنقوا دين قومهم ، فعاتبهم بقوله : أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ ؟ ! [الأعراف ٧/ ٨٨].

ولما أصروا على كفرهم ، واشتطوا في مجادلة شعيب وإيذائه بالقول والفعل ، أهلكهم اللّه بالرجفة وهي الزلزال مثل قبيلة ثمود ، فبادوا جميعا : فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

[العنكبوت ٢٩/ ٣٧].

وبعد أن نجّى اللّه شعيبا والذين آمنوا معه ، أرسله إلى أصحاب الأيكة :

وهي غيضة من الأشجار قرب مدين ، وكانوا على منهج أهل مدين ، فلما نهاهم عما هم عليه اتهموه بالكذب والسحر ، ولم يصدقوا بنبوته لأنه بشر مثلهم :

قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ [الشعراء ٢٦/ ١٨٥- ١٨٦].

ثم طلبوا من شعيب أن يسقط عليهم كسفا من السماء ، أي قطعة منها ، إن كان من الصادقين ، وأمعنوا

في الإعراض عن الحق ، فأخذهم عذاب يوم الظّلّة :

بأن سلط اللّه عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا :

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء ٢٦/ ١٨٩].

التفسير والبيان :

وأرسل اللّه إلى مدين أخاهم شعيبا ، وهي أخوة نسب لا أخوة دين ، وأمرهم بتكاليف خمسة ترجع إلى أصلين : تعظيم أمر اللّه ، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة ، والشفقة على خلق اللّه ، ويدخل فيه ترك البخس ، وترك الإفساد ، ويجمعهما ترك الإيذاء.

وتلك التكاليف هي :

١- الأمر بعبادة اللّه والنهي عن عبادة غير اللّه : اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء ، ودعوة الرسل كلهم.

٢- ادعاؤه النبوة فقال : قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أي قد أقام اللّه

ج ٨ ، ص : ٢٩١

الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، والبينة تشمل المعجزة الكونية ، والبرهان العقلي ، وخوارق العادات. وهذا مثل قول صالح عليه السلام ، إلا أنه تعالى ذكر الآية له وهي الناقة ، ولم يذكر آية شعيب ، ولا بد من آية تصدقه

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه اللّه إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

قال الزمخشري : ومن معجزات شعيب : أنه دفع إلى موسى عصاه ، وتلك العصا حاربت التنّين (ضرب من الحيات) وأيضا قال لموسى : إن هذه الأغنام تلد أولادا فيها سواد وبياض ، وقد وهبتها منك ، فكان الأمر كما أخبر عنه.

وهذه الأحوال كانت معجزات لشعيب عليه السلام لأن موسى في ذلك الوقت ما ادعى الرسالة « ١ » .

وهذا على رأي المعتزلة : وهو عدم ظهور المعجزة قبل النبوة ، وأما على رأي أهل السنة ، فيجوز أن

يظهر اللّه على يد من يصير نبيا ورسولا بعد ذلك أنواع المعجزات قبل إيصال الوحي ، ويسمى ذلك إرهاصا للنبوة ، فتكون هذه الأحوال التي ذكرها الزمخشري إرهاصات لموسى عليه السلام « ٢ » .

٣- إيفاء الكيل والميزان ، فقال : فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وهذا مرتب على ما سبق : قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ على تحريم الخيانة بالشيء القليل ، والمعنى : أتموا الكيل والميزان إذا بعتم. وهذا وعظ لإحسان معاملتهم الناس ، نابع من العدل الذي يجب أن تكون عليه المعاملة بين المبيع والثمن. وقد عني شعيب بعلاج هذه المفسدة أو الانحراف ، لشغف أهل مدين بنقص المكيال والميزان ،

---

(١) الكشاف : ١/ ٥٥٩

(٢) تفسير الرازي : ١٤/ ١٧٣

ج ٨ ، ص : ٢٩٢

و أراد بالكيل هنا : آلة الكيل وهو المكيال ، كما قال في سورة هود : أَوْفُوا الْمِكْيالَ.

٤- منع الخيانة للناس في أموالهم وأخذها دون حق ، قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له : « خطيب الأنبياء » لفصاحة عبارته وجزالة موعظته :

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ، أي لا تنقصوهم شيئا في البيع خفية تدليسا ، كما قال تعالى في تهديده ووعيده : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ- إلى قوله- لِرَبِّ الْعالَمِينَ [المطففين ٨٣/ ١- ٦] والبخس : النقص بالتعييب والتزهيد ، أو المخادعة عن القيمة ، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقص منه.

والمراد أنه لما منع قومه من بخس (أي نقص) في الكيل والوزن في البيع ، منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه ، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة ، وأخذ الرشوة ، وقطع الطريق ، وسلب الأموال بطرق الاحتيال ، ونحو ذلك من المساومات ، والغش ولو في غير البيع ، ويشمل أيضا هضم الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل ، فلا يجوز لإنسان نقص آخر حقه في علم أو خلق أو فضيلة أو أدب ، وادعاء التفوق عليه حسدا وبغيا وكراهية. روي عن قوم شعيب أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم ، أخذوا دراهمه الجياد ، وقالوا :

هي زيوف ، فيقطعونها قطعا ، ثم يأخذونها منه بنقصان ظاهر ، أو أعطوه بدلها زيوفا.

٥- منع الإفساد ، قال : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها أي لا تفسدوا في الأرض بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائهم ، وهو على حذف مضاف أي بعد إصلاح أهلها.

والإصلاح عام يشمل العقيدة والسلوك والأخلاق ونظام المجتمع والحضارة والعمران وسائر وجوه التقدم الزراعي والصناعي والتجاري.

ج ٨ ، ص : ٢٩٣

و يلاحظ أن قوله : وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ منع عن مفاسد الدنيا ، وقوله : وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ منع من مفاسد الدين ، حتى تكون الآية جامعة للنهي عن مفاسد الدنيا والدين.

ذلِكُمْ إشارة إلى هذه التكاليف الخمسة من عبادة اللّه ، والتصديق بنبوتي ، والوفاء بالكيل والميزان ، وترك البخس والإفساد في الأرض. والمعنى :

كل ما ذكر خير لكم في الإنسانية وحسن السمعة وما تطلبونه من الربح المادي ، لأن الناس أرغب في معاملتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والعدل. وخير لكم في الآخرة بالثواب والرضا الإلهي ، إن كنتم مؤمنين بوحدانية اللّه وبرسوله وبشرعه وهداه وبالآخرة ، فالإيمان يقتضي الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند اللّه.

ويجوز أن يكون ذلِكُمْ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فإن اللّه لا يأمر إلا بالنافع ، ولا ينهى إلا عن الضارّ.

وفي هذا دلالة واضحة على أن العلم وحده لا يكفي للإصلاح ، وإنما لا بد في إصلاح الأمم والشعوب من تربية دينية ، تقنع الأجيال بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وبمضار الانحراف والرذائل لأن الوازع النفسي أقوى من أي ردع أو وازع خارجي.

ثم نهاهم شعيب عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله : وَلا تَقْعُدُوا ...

أي ولا تقعدوا في مفارق الطرقات تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ، أو تخوفون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال : بِكُلِّ صِراطٍ وهو الطريق. أما المعنى الثاني فهو مستفاد من قوله : وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ. أي تصرفون من يريد الإيمان عن دين اللّه ، وتودون أن تكون سبيل اللّه عوجا مائلة ، ففي هذه الآية نهاهم

ج ٨ ، ص : ٢٩٤

عن ثلاثة أمور : قطع الطريق على المارّة لأخذ الأموال ، والصد عن دين اللّه ، وطلب جعل سبيل اللّه

المستقيمة معوجّة مائلة بالأكاذيب والضلالات وتشوية الحقائق والشبهات والشكوك الملقاة منكم.
والمراد من الآية أن شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاث.
ويلاحظ أن شعيبا ركّز في دعوته أولا على الإصلاح الداخلي بإيفاء المكيال والميزان وعدم الإفساد في البلد ، ثم انتقل إلى الإصلاح الخارجي بإزالة الموانع والعقبات أمام نشر دعوته للذين يزورون أرضهم.
وبعد قمع الفساد وتطهير البلد من المنكرات انتقل إلى النواحي الإيجابية الملازمة لهم وهي تذكر النعم ، فقال : وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ .. أي وتذكروا كثرة إنعام اللّه عليكم ، ليحملهم على الطاعة ويبعدهم عن المعصية ، ومن تلك النعم أنكم كنتم مستضعفين قليلي العدد ، فصرتم أعزة كثيري العدد بما بارك اللّه في نسلكم ، واشكروا له نعمه بعبادته وحده.
روي أن مدين بن إبراهيم تزوج رئيا بنت لوط ، فولدت أولادا كثيرين ، حتى كثر عددهم ، لأن اللّه بارك في نسلها.
ويجوز أن يكون المعنى أنكم كنتم فقراء ضعفاء ، فجعلكم موسرين أقوياء.

(٣٠٠/٨)

و تأملوا واعتبروا بمصير السابقين من الأمم الخالية والقرون الماضية والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، كيف أهلكهم اللّه بفسادهم وبغيهم في الأرض ، واجترائهم على معاصي اللّه ، وتكذيب رسله ، فتذكروا عاقبة فسادهم وما لحقهم من الخزي والنكال.
والمقصود من تذكر نعم اللّه ، والتأمل في عقاب المفسدين ، حملهم على
ج ٨ ، ص : ٢٩٥
الطاعة وترك المعصية بطريق الترغيب أولا ، والترهيب ثانيا.
وإن كان طائفة « ١ » منكم آمنوا بما أرسلت به ، ولم تؤمن طائفة أخرى ، أي قد اختلفتم علي فاصبروا أي فتربصوا وانتظروا حكم اللّه الذي يفصل بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد وتهديد للكافرين بانتقام اللّه منهم ، كقوله تعالى : فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ [التوبة ٩/ ٥٢] أو هو عظة للمؤمنين وتسلية لقلوبهم وحث على الصبر واحتمال ما يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم اللّه بينهم ، وينتقم لهم منهم. والظاهر أنه خطاب للفريقين يراد منه حمل المؤمنين على الصبر على أذى الكفار ، وزجر من لم يؤمن ، حتى يحكم اللّه ، فيميز الخبيث من الطيب.
وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين لأن حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف أو الظلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

ما ذا يفعل الأنبياء ؟ إنهم لا يملكون غير الدعوة إلى اللّه بالكلمة الحسنة ، والإقناع والإتيان بالبراهين الكونية والعقلية ، ثم النهي عن الفساد والإفساد ، ثم التذكير بنعم اللّه تعالى على البشر ، ثم حملهم على الطاعة والانقياد لأوامر اللّه بدعوتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بتدمير الأمم والشعوب المفسدة ، وانتظار الحكم الفاصل النهائي للّه رب العالمين ، وحكمه حق وعدل لا جور فيه.

(٣٠١/٨)

هذا ما فعله شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء مع أقوامهم ، دعاهم إلى أصلين : تعظيم أمر اللّه ويشمل الإقرار بالتوحيد وتصديق النبوة ، والشفقة على خلق اللّه ويشمل ترك البخس وترك الإفساد وكل أنواع الإيذاء ، وتلك هي التكاليف الخمسة.

---

(١) ذكّر لفظ الفعل وهو « كان » مراعاة للمعنى ، ولو راعى اللفظ قال : « كانت » .

ج ٨ ، ص : ٢٩٦

و كان يقال لشعيب خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعة قومه. وكان قومه أهل كفر باللّه وبخس للمكيال والميزان. والكفر جرم عظيم لا يتفق مع إنعام اللّه ، والبخس وهو النقص في آلة الكيل والوزن جرم اجتماعي ، يشمل تعييب السلعة ، والمخادعة في القيمة ، والاحتيال في زيادة الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وهو منهي عنه في الأمم جميعها على لسان الرسل عليهم السلام. والإفساد في الأرض بعد الإصلاح جرم اجتماعي آخر في حق الإنسانية ، لأن صلاح الأرض بالعقيدة والأخلاق فيه خير للجميع ، وإفساد الأرض عدوان على الناس. قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث اللّه شعيبا رسولا يعمل فيها بالمعاصي ، وتستحلّ فيها المحارم ، وتسفك فيها الدماء ، فذلك فسادها ، فلما بعث اللّه شعيبا ودعاهم إلى اللّه صلحت الأرض. وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم.

وحرم شعيب عليهم القعود على الطرقات لأخذ أموال الناس بالباطل ، فقد كانوا عشّارين ، ومثلهم اليوم المكّاسون (موظفوا الجمرك) الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الرسوم الجمركية بالقهر والجبر ، وذلك غصب وظلم وعسف على الناس وعمل للمنكر. وهذا يشبه عمل قطاع الطرق والمحاربين.

ومنعهم شعيب من محاولة ثني الناس عن قبول دعوته بالتهديد والوعيد والإنذار بقتل من يؤمن به ، وبإلقاء الشكوك والشبهات في دعوته ، وافتراء الكذب عليه.

و ذكّرهم بنعم اللّه عليهم إذ كانوا قلة فكثروا ، وفقراء فاغتنوا ، وضعفاء فتقووا. ولفت نظرهم إلى ضرورة الاتعاظ بأحوال من سبقهم أو جاورهم من

ج ٨ ، ص : ٢٩٧

الأمم والشعوب الخالية ، فإنهم حين كذبوا الرسل وكفروا باللّه ، دمّرهم اللّه واستأصلهم وأبادهم.

ثم حسم شعيب عليه السلام الموقف بانتظار حكم اللّه والتهديد والوعيد بهذا الحكم لأن انقسام الناس بسبب دعوته إلى فريقين : فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، يتطلب قضاء اللّه الفاصل النهائي بين الطرفين ، واللّه خير من يفصل ، وأعدل من يقضي.

وحكم اللّه بين عباده نوعان : حكم يوحي به إلى رسله ، كما في قوله تعالى في أول سورة المائدة : : إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ ، وحكم يفصل فيه بين الخلائق إما في الدنيا وإما في الآخرة ، كما في قوله تعالى في آخر سورة يونس : وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ » .

والمقصود من كل هذه الأوامر والنواهي بالترغيب أولا ، والترهيب ثانيا هو حمل القوم على الإيمان والطاعة والعمل الصالح. والناس جميعا الذين يسمعون هذه القصة مطالبون بما طولب به هؤلاء ، فإن العاقل يتعظ بالأمثال والنظائر والأشباه ، وهو مدرك تماما أن ما جرى على النظير يجري على نظيره ، فالمؤمن يخصه اللّه بالدرجات العالية ، والكافر الشقي بأنواع العقوبات : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ [ص ٣٨/ ٢٨].

ج ٩ ، ص : ٥

[الجزء التاسع]

[تتمة سورة الأعراف]

بقية قصة شعيب مع قومه محاورته الملأ وعقابهم بالزلزلة [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٨ الى ٩٣]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩) وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا

فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢)
فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)
الإعراب :
أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ الهمزة للاستفهام ، والاستفهام هنا للإنكار ، والواو واو الحال ، تقديره : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ؟ .
إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ : أن وصلتها في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، تقديره : وما يكون لنا أن نعود فيها إلا بمشيئة اللّه. وقوله : نعود فيها : أي نصير ، ولا يريد به أن يرجع لأنه لم يكن في ملة الكفر ، فخرج منها حتى يعود عِلْماً تمييز منصوب لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ اللام لام القسم.
ج ٩ ، ص : ٦

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً الذين : في موضع رفع لأنه صفة أو بدل من الذين كفروا في قوله تعالى : وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا .... ويجوز أن يكون في موضع مبتدأ مرفوع ، وخبره جملة كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا واسمها محذوف أي كأنهم ويجوز أن يكون خبره جملة الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ وكَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا في موضع نصب على الحال.
البلاغة :
عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا : تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع.
المفردات اللغوية :
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ترجعن إلى ديننا ، وغلبوا في الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبا لم يكن في ملتهم قط. وعلى نحوه أجاب بقوله : أنعود فيها ولو كنا كارهين ؟ والاستفهام للإنكار.
وما يكون لنا ينبغي وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي وسع علمه كل شيء ، ومنه حالي وحالكم رَبَّنَا افْتَحْ احكم ، والفاتح : الحاكم الْفاتِحِينَ الحاكمين. والفتاح : الحاكم ، بطريق المبالغة. وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أي قال بعضهم لبعض.
الرَّجْفَةُ الزلزلة الشديدة ، وأصل معنى الرجفة : الحركة والاضطراب جاثِمِينَ باركين على الركب ، ميتين لم يغنوا فيها يقيموا في ديارهم.
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ التأكيد بإعادة الموصول وغيره للرد عليهم في قولهم السابق : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ.
فَتَوَلَّى أعرض وَنَصَحْتُ لَكُمْ فلم تؤمنوا فَكَيْفَ آسى أحزن عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ استفهام بمعنى النفي.

التفسير والبيان :

هذه تتمة قصة شعيب مع قومه تضمنت موضوعين : الأول- محاورة شعيب لأشراف قومه ، وبيان عاقبة الكافرين بإنزال العذاب العام عليهم.

أما المحاورة : فقال زعماء القوم الذين تكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم

به وما نهاهم عنه من عبادة اللّه وحده ، وإيفاء الكيل والميزان ، وعدم الفساد في الأرض ، وإنذارهم بالعذاب بقوله : فاصبروا ، قالوا في توعدهم شعيبا ومن معه من المؤمنين : قسما لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ ومن آمن معك من بلادنا كلها ، أو لترجعن إلى ملتنا وديننا الموروث عن الآباء.

وهذا تهديد منهم بأحد أمرين : إما النفي والطرد من القرية ، وإما الإكراه والقهر على الرجوع في ملتهم.

وهذا الخطاب مع الرسول شعيب ، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

قال شعيب مستفهما استفهاما إنكاريا ومتعجبا : أتفعلون ذلك وتأمروننا بالعود في ملتكم ، ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه من أحد الأمرين ؟ .

إنكم تجهلون ما نحن عليه من ثبات العقيدة في القلب ، فلا ينزعها أحد ، وتجهلون أن حب الوطن لا يزعزع العقيدة ، ولا يجعلنا نؤثر الإقامة في بلادنا على مرضاة اللّه بتوحيده وعبادته واتباع أوامره.

ثم أعلن رفضه التام العودة إلى ملة الكفر قائلا : إنا إذا رجعنا إلى ملتكم واتبعنا دينكم القائم على الشرك ، فقد أعظمنا الفرية على اللّه في جعل الشركاء معه أندادا ، بعد أن نجانا اللّه من تلك الملة الباطلة ، وهدانا إلى ملة التوحيد واتباع الصراط المستقيم.

إن هذا لأمر عجيب. وهذا تنفير من شعيب عن اتباعهم.

وقوله : إِذْ نَجَّانَا أي نجّى أصحابنا منها ، من طريق التغليب بإدخال نفسه في زمرتهم ، مع أن الأنبياء معصومون من الكفر.

وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها ... أي ما ينبغي لنا وليس من شأننا أن نعود في ملتكم أبدا ، ولن يحوّلنا أحد عما نحن فيه من الاستقامة ، لاعتقادنا الجازم أننا على الحق الأبلج ، وأنتم على الملة الباطلة- ملة الكفر والشرك. لكن إيمانا منا بمشيئة اللّه يجعلنا نفوض الأمر للّه ، فإن شاء اللّه الذي يعلم كل

شيء ، وله

ج ٩ ، ص : ٨

الحكمة البالغة في كل شيء ، أن يفعل شيئا ، فذلك مرجعه إلى اللّه لأنه المتصرف في أمورنا كلها.

وهذا تأكيد لرفض العود إلى ملتهم بأبلغ التأكيد. ولا طمع لكم في مشيئة اللّه الذي يثبّت عباده المخلصين على الإيمان والقول الثابت في الحياة الدنيا أن يعيدنا إلى الضلال لأن اللّه متعال عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر ، فذلك خارج عن الحكمة.

إن الله تعالى أحاط علمه بكل شيء ، فهو واسع العلم ، كثير الفضل ، يتصرف بحكمة ، ومشيئته تكون بحسب الحكمة ، ولا يشاء إلا الخير للناس. ومعنى الآية : أنه عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان.

وعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا في أمورنا ، مع القيام بما يجب علينا من الحفاظ على شرعه ودينه ، وتوكلنا في أن يثبتنا على الإيمان ، ويوفقنا لازدياد اليقين : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق ٦٥/ ٣] ومن شروط التوكل الصحيح تنفيذ الأحكام الشرعية ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى اللّه تعالى.

سأل أعرابي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أيعقل ناقته أم يتركها سائبة ويتوكل على الله ؟ فأجابه فيما روى الترمذي : « اعقلها وتوكل » .

وهذا رفض آخر للمساومة ومحاولة إعادتهم إلى ملتهم بالدليل.

ثم دعا شعيب على قومه لما يئس منهم فقال : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وانصرنا عليهم ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ مثل قوله : وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ [الأعراف ٧/ ٨٧] أي إنك العادل الذي لا يجور أبدا ، تحكم بالحق في النزاع بين المرسلين والكافرين ، وبين المحقين والمبطلين.

ثم بعد أن يئس الكفار من عودة المؤمنين برسالة شعيب إلى ملتهم ، لجؤوا إلى

ج ٩ ، ص : ٩

استخدام التهديد والوعيد ، فقال أشرافهم لمن دونهم من المستضعفين المؤمنين ، لتثبيطهم عن الإيمان : تاللّه لئن اتبعتم شعيبا فيما يقول وآمنتم به إنكم لخاسرون خسارة معنوية في فعلكم بترككم ملة الآباء والأجداد العريقين إلى دين جديد يدعوكم إليه ، لم تألفوه ، ولم تعرفوا مصداقيته ، وخاسرون خسارة مادية إذ لم تزيدوا ثروتكم بتطفيف الكيل والميزان وأخذ أموال الآخرين وتخسرون باتباع شعيب فوائد

البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ، ويحملكم على الإيفاء والتسوية.
ويلاحظ أن القرآن وصف الأشراف والسادة أولا بالاستكبار عن الإيمان باللّه وبرسالة شعيب عليه السلام ، ثم وصفهم بالإغواء والإضلال ومحاولة تكفير المؤمنين بشعيب ، ثم وصفهم بالكفر والإرهاب ثم أعقب ذلك ببيان عاقبة أمرهم وتعذيبهم فقال : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ... أي إنهم أبيدوا وأهلكوا بالزلزلة الشديدة ، والصيحة المرعبة ، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالطرد والإجلاء ، فأصبحوا منكبين على وجوههم ميتين. وقد عبر عن عذابهم هنا بالرجفة ، وفي سورة هود بالصيحة كعذاب ثمود لأن الرجفة أي الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة : كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ [هود ١١/ ٩٥].

و في سورة الشعراء بيّن سبحانه أنه أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب ، والأيكة : الغيضة بين ساحل البحر ومدين ، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها. وعذاب أصحاب الأيكة بالسّموم والحر الشديد بعد أن تجمعوا تحت ظلّة من السحاب يتفيئون بظلها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا. فالظلة : هي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم. والخلاصة : لقد اجتمع على قوم شعيب ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من

أسفل منهم ، فزهقت أرواحهم وجمدت أجسامهم « ١ » .
فمن الخاسر إذن ؟ الحقيقة أن الذين كذبوا شعيبا هم الخاسرون على سبيل الحصر ، وهم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا في دارهم ، وهو رد على قولهم السابق : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ والمراد من هذا الرد :
المبالغة في الذم والتوبيخ ، وأما الإعادة فهي لتعظيم الأمر وتفخيمه وتهويل ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، لذا كرر قوله : الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً.
الحق أن الكافرين هم الذين خسروا خسرانا عظيما في الدنيا والآخرة ، دون المؤمنين لأن الذين اتبعوا شعيبا قد أنجاهم اللّه ، فهم الرابحون. كما قال تعالى :
وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ [هود ١١/ ٩٤].

وفي هذا دلالة واضحة على أن العاقبة للمتقين ، والربح الحقيقي لمن يأكل الحلال ، ويترفع عن الحرام ، وأن الدمار والهلاك والإفلاس للكافرين الذين ينغمسون في الحرام ، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

و أما شعيب فقد أدبر عنهم وتولى عنهم بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال موبخا لهم ومقرعا : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به ، فلا آسف عليكم ، وقد كفرتم بما جئتكم به ، كما قال : فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ ؟ ! أي فكيف أحزن على قوم أنكروا وحدانية اللّه ، وكذبوا رسوله ، ولقد أعذر من أنذر. قال الكلبي :

خرج من بين أظهرهم ، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٢.

ج ٩ ، ص : ١١

فقه الحياة أو الأحكام :

كان من أثر دعوة شعيب خطيب الأنبياء قومه إلى عبادة اللّه وترك أكل أموال الناس بالباطل ، أنهم واجهوه بالتخيير بين أمرين خطيرين : إما الطرد والجلاء ، وإما الصيرورة إلى ملتهم ، وهذا هو المقصود بقولهم : أَوْ لَتَعُودُنَّ أي لتصيرن إلى ملتنا ، فوقع العود بمعنى الابتداء ، تقول العرب : قد عاد إليّ من فلان مكروه ، يريدون قد صار إلي منه المكروه ، ولا يعني ذلك أن شعيبا كان قبل النبوة على ملتهم ، فهو معصوم من الكفر ، وكذلك كان خطاب شعيب من قبيل التغليب ، فإنهم خاطبوه بخطاب أتباعه ، وأجروا عليه أحكامهم.

والحزم يقابله الحزم والإصرار ، فكان رد شعيب حاسما وقاطعا بأنه لن يفعل ما يريدون ، ولن يعود أي يصير إلى ملتهم ، فإنه إن فعل ذلك بعد أن تبين له الحق ، فقد افترى على الله ، وكذلك كان أتباعه صريحين صارمين ، وجوابه جوابهم. وهذا نابع من أصل النبوة والرسالة ، فإنها تتميز بصدق اللهجة ، والبراءة عن الكذب ، فالعود في ملتهم يبطل النبوة ، ويزيل الرسالة.

و قد نظم شعيب نفسه مع قومه بقوله : إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها أي من الملة ، وإن كان بريئا منها ، إجراء للكلام على حكم التغليب ، كما ذكروا في كلامهم : أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا.

وتمسك الأشاعرة بقوله تعالى : إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ على أنه تعالى قد يشاء الكفر لأن المعنى : إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم ، وكانت تلك الملة كفرا. وقال المعتزلة : لا يشاء تعالى إلا الخير والصلاح لأن هذا الاستثناء وهو : إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم قضية شرطية ، وليس فيها بيان أنه تعالى شاء ذلك أو ما شاء ، وهذا أيضا مذكور على سبيل التبعيد ، كما يقال :

لا أفعل ذلك إلا إذا ابيضّ القار (الزفت) وشاب الغراب.

ج ٩ ، ص : ١٢

و وجه تعلق قوله تعالى : وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً بما قبله : أنه ربما كان في علمه تعالى حصول أمر ثالث غير الإخراج والعود إلى الملة ، وهو البقاء في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملتكم ، ويجعلكم مقهورين تحت أمرنا ، خاضعين تحت حكمنا.

ودل قوله تعالى : وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً على أنه تعالى كان عالما في الأزل بجميع الأشياء لأن قوله : وسع فعل ماض ، فيتناول كل ماض ، بل إنه يتناول علم الحاضر والمستقبل وعلم المعدوم لأن التعبير بالماضي يفيد الجزم بحصول العلم بكل الأشياء.

ودل قوله تعالى : عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا ، رَبَّنَا افْتَحْ ... على أن النبي وكل مؤمن ينبغي أن يظل على صلة باللّه وتفويض كامل في أموره له ، فقوله :

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا يفيد الحصر ، أي عليه توكلنا لا على غيره ، وقوله : رَبَّنَا افْتَحْ ... يراد به تفويض الحكم إلى اللّه والدعاء له واللجوء إليه ، وقوله :

وأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ يراد به الثناء على اللّه تعالى.

و استدل الأشاعرة بقوله : وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ على أنه تعالى هو الذي يخلق الإيمان في العبد.

ودلت آية لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً على أن قوم شعيب استحقوا عذاب الإهلاك أو الاستئصال بأمرين : الكفر أو الضلال ، والإضلال لغيرهم أو الإغواء.

وتعذيبهم كان بالرجفة (و هي الزلزلة الشديدة المهلكة) وبالصيحة (و هي الصوت الشديد المهلك) معا التي تلازم الرجفة ولا تنفك عنها. وذلك العذاب كان مختصا بأولئك المكذبين ، ونجّى اللّه المؤمنين ، وذلك يدل على ثلاثة أمور :

أن ذلك العذاب إنما حدث بخلق فاعل مختار ، وليس أثر الكواكب والطبيعة ، وإلا لعم أتباع شعيب ، وذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه

ج ٩ ، ص : ١٣

التمييز بين المطيع والعاصي ، واختصاص العذاب بقوم دون قوم من أعظم المعجزات لشعيب عليه السلام.

سنة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩(٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)

البلاغة :

مِنْ نَبِيٍّ فيه حذف وإضمار ، والتقدير : من نبي فكذّب أو كذبه أهلها.

مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ وبِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

قَرْيَةٍ مدينة جامعة تجمع الزعماء كالعاصمة ، وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين يبعث الرسل إليهم ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام من نبي أي فكذبوه أَخَذْنا عاقبنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ البأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر ، والضراء : ما يضر الإنسان في نفسه أو معيشته كالمرض ، وقيل : في كل بالعكس. لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ يتذللون فيؤمنوا. وقوله لعلهم لا يمكن حمله على الشك في حق اللّه تعالى ، فيحمل على أن المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. والتضرع : إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع.

ثُمَّ بَدَّلْنا أعطيناهم مَكانَ السَّيِّئَةِ العذاب الْحَسَنَةَ الغنى والصحة حَتَّى عَفَوْا كثروا ونموا ، من قولهم : عفا النبات والشعر : إذا كثر وَقالُوا كفرا للنعمة قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ كما مسنا ، وهذه عادة الدهر ، وليست بعقوبة من اللّه ، فكونوا على ما أنتم عليه فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أخذناهم بالعذاب فجأة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بوقت مجيئه قبله.

ج ٩ ، ص : ١٤

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى أحوال الأنبياء مع أقوامهم ، وما حلّ بهم من العذاب ، بيّن في هذه الآية أن جنس هذا الهلاك أو الاستئصال لم يقتصر على زمن هؤلاء الأنبياء فقط ، وإنما قد فعله بغيرهم ، وبيّن أيضا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذّب الأنبياء ، وهي التدرج بهم من التضييق عليهم بالبأساء (شدة الفقر) والضراء (المرض ونحوه) ثم إلى السعة والرخاء والرفاه ، ثم يأتي إنزال العذاب فجأة من غير شعور بمجيئه. وفي ذلك تحذير لقريش وأمثالهم وتخويفهم ، وحمل لهم على الإيمان برسالة المصطفى عليه

الصلاة والسلام.

التفسير والبيان :

(٩/١٠)

يخبر اللّه تعالى عن سنته المتبعة في تعذيب الأمم والشعوب الضالة ، سواء في زمن الأنبياء أو في غير زمنهم ، وتلك السنة فيها إنذار وإعذار ، ومقدمات توحي بضرورة تغيير الأوضاع ، والانتقال من الكفر والضلال إلى الإيمان والهدى.

والمعنى : إننا إذا أرسلنا نبيا إلى قوم ، فكذبوه ، فلا نعاجلهم بالعذاب ، وإنما نتدرج في إمهالهم وتذكيرهم بتقليب الأحوال ، فنبدؤهم بالعقاب بإنزال شيء من الشدة والمكروه ، بتعريضهم لسوء الحال المادية وإفقارهم ، ثم بتسليط الأمراض والبلايا والأسقام عليهم ، أو بالعكس ، المرض أولا ، ثم الفقر ، لكي يتضرعوا أي يدعوا اللّه ويخشعوا ويبتهلوا إلى اللّه تعالى في كشف ما نزل بهم.

ثُمَّ بَدَّلْنا ... : ثم حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن فقر إلى غنى ، ومن مرض إلى صحة وعافية ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا. فالسيئة : كل ما يسوء صاحبه ، والحسنة : ما يستحسنه الطبع والعقل.

ج ٩ ، ص : ١٥

حَتَّى عَفَوْا أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشي ء : إذا كثر ، وذلك لأن الرخاء يكون عادة سببا في كثرة النسل.

وَقالُوا : قَدْ مَسَّ ... أي ابتليناهم بالشدة والرخاء ليتضرعوا وينيبوا إلى اللّه ، فما أفاد هذا ولا هذا ، وقالوا غير معتبرين بالأحداث : قد مسّنا من البأساء والضراء ، وما بعده من الرخاء ، مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان ، ولم يتفهموا سنن اللّه في تهيئة الأسباب للسعادة والشقاء في البشر. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون اللّه على السراء ويصبرون على الضراء ،

كما ثبت في الصحيحين : « عجبا لأمر المؤمن ، لا يقضي اللّه له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له »

فالمؤمن يتنبه لما ابتلاه للّه به من الضراء والسراء ،

(٩/١١)

كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد : « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه » .

وتغيير الحال من سوء إلى حسن أمر ضروري للتخلص من البلاء ، كما قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد ١٣/ ١١].

أما مصير غير المعتبرين بأحداث الزمان وتقلباته فكما ذكر تعالى :

فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً .. أي فكان عاقبة أمرهم أنا أخذناهم أي عاقبناهم بالعقوبة على بغتة ، أي فجأة ، من غير شعور منهم بما سينزل بهم من العقاب ، ليكون أكثر حسرة ، كما في قوله تعالى : فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ، فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا ، أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام ٦/ ٤٤]

و كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبيهقي عن عائشة : « موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر » .

فما على الناس مؤمنين وكفارا إلا الاتعاظ بما حل بغيرهم ، فالمؤمن باللّه

ج ٩ ، ص : ١٦

لا يغتر بالزمان ، وتكون الشدائد والمصائب صقلا له ، وتمحيصا لنفسه ، وتربية لها ، والكافر إذا مسه الشر يئس ، وإذا مسه الخير بطر واستكبر وبغى في الأرض ، فكانت عاقبته الدمار.

فقه الحياة أو الأحكام :

الحلم والإمهال من خصائص صنع اللّه وسنته الدائمة في خلقه ، لكي يتعظوا بالأحداث ويصححوا مسيرتهم في الحياة ، ويقلعوا عما هم عليه من معاص وموبقات. والابتلاء يكون بالشر وبالخير : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ [الأنبياء ٢١/ ٣٥] والعاقل المفكر المتدبر أحوال الماضي وتقلبات المستقبل هو الذي يستفيد من دروس الحياة : وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف ٧/ ١٦٨].

ودل قوله تعالى : لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ في رأي المعتزلة : على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أهل السنة : إن اللّه يدبر أهل القرى بما يكون إلى الإيمان أقرب ، لقوله تعالى : ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء ، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر.

ولكن الناس لا يعتبرون ، فبالرغم من أنه تعالى أخذهم بالشدة والرخاء ، فلم يزدجروا ولم يشكروا ، وهذا يدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم اللّه عليه من رخاء بعد شدة ، وأمن بعد خوف ، بل رأوا أن هذه عادة الزمان في أهله ، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد ، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة.

أما الحق تعالى فقد أزال عذرهم وأمهلهم ، لكنهم لم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال.

ج ٩ ، ص : ١٧

الترغيب بالإيمان لزيادة الخير والترهيب من الكفر بالعذاب المبكّر [سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

الإعراب :

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى ... بفتح الواو ، تكون الهمزة للاستفهام ، والواو حرف عطف.

وبإسكان الواو : تكون أو التي يراد بها أحد الشيئين ، والمعنى : أو كان الأمر من أحد هذين الشيئين من إتيان العذاب ليلا أو ضحى. أَنْ لَوْ نَشاءُ أن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنه ، والجملة فاعل يَهْدِ. والهمزة في المواضع الأربعة في الآيات للتوبيخ ، والفاء والواو الداخلة عليها للعطف.

البلاغة :

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى تكرار الجملة للإنذار ، ويسمى هذا في البلاغة إطنابا.

أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ، فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ هذا تكرير لقوله : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى وتكرار الإنكار للتأكيد وزيادة التقرير ، ومكر اللّه : استعارة لاستدراج العبد والتمهيد لعقابه. قال الزمخشري في الكشاف : ٢/ ٥٦٣ ، مكر اللّه : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر اللّه كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة.

ج ٩ ، ص : ١٨

المفردات اللغوية :

أَهْلَ الْقُرى الذين أرسل إليهم الرسل فكذبوا آمَنُوا باللّه ورسلهم وَاتَّقَوْا الكفر والمعاصي لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ لسهلنا عليهم بركات من السماء بالمطر ونحوه من حرارة الشمس لتوفير الخصب في الأرض وَالْأَرْضِ بالنبات والمعادن ونحوها وَلكِنْ كَذَّبُوا الرسل فَأَخَذْناهُمْ عاقبناهم.

أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى المكذبون بَأْسُنا عذابنا بَياتاً ليلا وَهُمْ نائِمُونَ غافلون عنه ضُحًى نهارا ، وأصل معنى الضحى : وقت ارتفاع الشمس وإضاءة الدنيا أول النهار يَلْعَبُونَ يلهون أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ استدراجه إياهم بالنعمة وأخذهم بغتة. والمكر : التدبير الخفي الذي يؤدي إلى ما لا يحتسبه الإنسان.

أَ وَلَمْ يَهْدِ يتبين ، يقال : هداه السبيل ، وهداه له وإليه ، أي دلّه عليه وبيّنه له يَرِثُونَ الْأَرْضَ بالسكنى مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أي بعد هلاك أهلها أَصَبْناهُمْ بالعذاب وَنَطْبَعُ نختم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ الموعظة سماع تدبر.

المناسبة :

لما أبان اللّه تعالى في الآية السابقة أن الذين عصوا وتمردوا من أهل القرى أخذهم اللّه بغتة ، أبان في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح اللّه عليهم أبواب الخير ، ثم أنذرهم بالعذاب المبكّر ليلا أو نهارا ، إذا كذبوا الرسل ، تأكيدا لما سبق.

التفسير والبيان :

هذا إخبار عن سنة أخرى من سنن اللّه في عباده ، وتلك السنة أنه لو آمن أهل القرى كأهل مكة وغيرهم باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واتقوا ما نهى اللّه عنه وحرمه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام ، لأنزل عليهم الخيرات الكثيرة من السماء كالمطر ، وأخرج لهم خير الأرض من نبات ومعادن وكنوز ، وآتاهم من العلوم والمعارف والإلهامات الربّانية لفهم سنن الكون.

ج ٩ ، ص : ١٩

أي فلو آمنوا ليسّر اللّه لهم كل خير من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن ذواتهم وأفكارهم.

وفي هذا دلالة على أن الإيمان الصحيح سبب للسعادة والرخاء.

ولكنهم كذبوا رسلهم ولم يؤمنوا ولم يتقوا ، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم والشرك المفسد نظام الحياة.

وفيه دلالة على أن العقاب نتيجة لازمة لكسب المعاصي.

ثم إنه تعالى أعاد التهديد والتخويف بعذاب الاستئصال ، والتحذير من مخالفة أوامره ، والتجرؤ على زواجره فقال : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم ، والمقصود التعجب من حالهم وغفلتهم ، والمراد : أبعد ذلك أمن أهل القرى الكافرة كأهل مكة وأمثالهم نزول العذاب والنكال بهم

في حال الغفلة وهو النوم ليلا.

أو هل أمنوا أن ينزل بهم العذاب في حال شغلهم وغفلتهم وهو أثناء اللعب واللهو في النهار. ويلاحظ أن انشغالهم في أعمالهم التي لا فائدة منها كأنها ألعاب أطفال.

وذلك في الحالين تخويف من نزول العذاب بهم في أوقات الغفلة : وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار لأنه يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه. والمعنى المراد : فإن أمنتم حالا لم تأمنوا الحال الآخر.

قال الرازي : قوله : وَهُمْ يَلْعَبُونَ يحتمل التشاغل بأمور الدنيا ، فهي لعب ولهو ، ويحتمل خوضهم في كفرهم لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع « ١ » .

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ١٤/ ١٨٥.

ج ٩ ، ص : ٢٠

ثم كرر اللّه تعالى الاستفهام الإنكاري لزيادة التوبيخ ، بعد قوله : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى وعطف عليه بالفاء ، فقال : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم. ومكر اللّه : جزاؤه وأخذه العبد من حيث لا يشعر ، مع استدراجه. إن كانوا أمنوا مكر اللّه وعقابه ، فلا يأمن مكر الله إلا الذين خسروا أنفسهم ، قال الحسن البصري رحمه اللّه : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

ومجموع معنى الآيتين : أكان سبب أمنهم أن يأتيهم العذاب في وقت غفلتهم ليلا أو نهارا ، أو كان سبب أمنهم غفلتهم عن مكر اللّه بهم ، أي جزاؤه الذي ينزله بهم ؟ إن ظنوا ذلك فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أنفسهم.

وبعد بيان حال الكفار الذين أهلكهم اللّه بالاستئصال ، أبان تعالى أن الهدف من ذكر هذه القصص حصول العبرة لجميع المكلفين في مصالح أديانهم وطاعاتهم ، فقال : أَوَلَمْ يَهْدِ ....

أي أو لم يتبين للناس ، وخصوصا قريشا الذين يخلفون غيرهم في سكنى الأرض ووراثتها مع الديار ، بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها : أن شأننا معهم كشأننا مع من سبقهم ، فلو نشاء أصبناهم وعذبناهم بذنوبهم وأعمالهم السيئة ، كما عذبنا أمثالهم من قبل ، وفعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين.

فإن لم نهلكهم بالعذاب نختم على قلوبهم ، فهم لا يسمعون الموعظة والتذكير سماع تدبر ، ولا يقبلون

ولا يتعظون ولا ينزجرون ، كما قال تعالى : وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ [يونس ١٠/ ١٠١] وأما المؤمنون فشأنهم الاتعاظ والاعتبار بما حدث لمن قبلهم ، كما قال تعالى في آيات كثيرة موضوعها واحد ،

ج ٩ ، ص : ٢١

منها : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى [طه ٢٠/ ١٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ترغيبا للمؤمنين وترهيبا للكافرين. أما ترغيب المؤمنين فهو إفاضته الخيرات والبركات الإلهية من السماء بالمطر والرياح المباركة ، ومن الأرض بالنبات والثمار ، والمعادن والكنوز ، وكثرة المواشي والأنعام ، وحصول الأمن والسلامة ، وإلهام الإنسان رشده وفكره إلى اكتشاف وسائل الراحة والرخاء.

وأما ترهيب الكافرين فهو إنذارهم بتعذيبهم عذاب استئصال ودمار ، كعذاب الأمم الأخرى وأهل القرى والمدن الذين أرسل إليهم الرسل ، فكذبوهم وآذوهم.

وحذرهم تعالى بألا يغتروا بحلم اللّه وإمهاله وتأجيله العقاب ، فربما يأتي العقاب في حال الغفلة ليلا أو نهارا ، ومن اغتر بحلم اللّه وأمن مكره ، أي جزاءه ، فلا يأمن الجزاء إلا الخاسرون.

أولم يتبين لهم أن سنة اللّه واحدة في تعذيب الكافرين ؟ وسنة اللّه لا تتغير ، إنه يعذب العصاة والمتمردين بسبب ذنوبهم وسيئاتهم ، كما عذب الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، وإن لم نهلكهم بالعقاب نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ الموعظة سماع فهم وتدبر.

واستدل أهل السنة بقوله تعالى : وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ على أنه تعالى قد يمنع العبد عن الإيمان ، أي بعد أن علم عدم إيمان ذلك العبد. وقال الجبائي المعتزلي : المراد من هذا الطبع أنه تعالى يسم قلوب الكفار بسمات وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون ، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان.

ج ٩ ، ص : ٢٢

العبرة من قصص أهل القرى [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١) وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢)

الإعراب :

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ تلك : مبتدأ ، القرى : صفة ، ونَقُصُّ عَلَيْكَ خبر المبتدأ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا معنى اللام تأكيد النفي ، وأن الإيمان كان منافيا لحالهم في التصميم على الكفر.

بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ الباء سببية وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ الضمير للناس على الإطلاق ، أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد.

وَإِنْ وَجَدْنا إن مخففة من الثقيلة. قال الزمخشري : وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض.

المفردات اللغوية :

تِلْكَ الْقُرى هي قرى الأقوام الخمسة التي وصفت سابقا ، وهم قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها نذكر لك شيئا من أخبارها كيف أهلكت.

والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله : مِنْ أَنْبائِها أي بعض أخبار أهلها بِالْبَيِّناتِ المعجزات الظاهرات. فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيئهم بِما كَذَّبُوا كفروا به مِنْ قَبْلُ قبل مجيئهم ، بل استمروا على الكفر كَذلِكَ يَطْبَعُ أي مثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا.

لِأَكْثَرِهِمْ أكثر الناس مِنْ عَهْدٍ أي وفاء بعهدهم يوم أخذ الميثاق ، أي أن أكثرهم نقض عهد اللّه وميثاقه في الإيمان والتقوى.

و العهد : قد يكون بين طرفين كالمعاهدة ، أو من طرف واحد بأن يعهد لآخر بشيء ، أو يلزم به.

والميثاق : العهد المؤكد.

لَفاسِقِينَ لخارجين عن الطاعة وعن كل عهد ، إما فطري أو شرعي ، بنقضه ونكثه والغدر بأحكامه. وَما وَجَدْنا أي ألفينا وَإِنْ وَجَدْنا علمنا.

المناسبة :

بعد أن قص اللّه تعالى على نبيه أخبار قرى الأقوام الخمسة (قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وإعذاره إليهم ببيان الحق بالأدلة على ألسنة رسلهم ، أراد اللّه تسلية نبيه ، وتثبيته على الصبر على دعوته ، وتذكيره بالعبرة من قصص الماضين ، وأن ما يلاقيه من قومه ليس جديدا ، وإنما هو طريق قديم سلكه كثير من أقوام الأنبياء.

التفسير والبيان :

تلك القرى : قرى الأقوام الخمسة الذين وصفوا بما سبق نقص عليك يا محمد بعض أخبارها كيف أهلكت ، مما فيه العبرة والعظة لقومك ، والتسلية لك والتثبيت على دعوتك. وإنما خص اللّه أنباء هذه القرى لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم ، فتوهموا أنهم على الحق ، وذكرها اللّه تنبيها لقريش وأمثالهم عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال.

ثم إن هذه القرى كانت في بلاد العرب ، وكان أهل مكة يتناقلون بعض أخبارها ، وهي جميعا متشابهة في تكذيب الرسل ، وعذاب الاستئصال ، فكانت العبرة منها واحدة ، لذا فصلت عن قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به ، وإنما كذب به فرعون وجماعته فعذّبوا.

وسبب عقاب تلك الأقوام هو تكذيب الرسل ، فبالرغم من أنهم أقاموا لهم الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب

تكذيبهم بالحق من قبل مجيء الرسل وأول ما ورد عليهم ، أي في بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ، ومن قبل مجيء المعجزات ، فظلوا على حالهم ، ولم تؤثر فيهم الآيات الدالة على صدق الرسل ، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل ، أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم ، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم ، مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات.

ومثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا أبدا. وبإيجاز : مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

وفي الآية تسلية للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وتثبيت له على دعوته ، وإخباره بأن هذا العناد والتمرد من أهل مكة قد سبقهم إليه أمثالهم من الأمم الغابرة ، فلا تأس ولا تحزن على كفرهم.

وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية عهدا وفوا به ، سواء عهد فطرة الذي عاهدهم اللّه وهم في صلب آدم ، أو عهد شرع بالإيمان وأداء التكاليف ، أو عهد عرف متعارف عليه بأداء الالتزامات واحترام العقود

التي يبرمونها فيما بينهم. ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. وفي التعبير بالأكثر إشارة إلى أن بعضهم قد آمن ، ونفذ كل عهد مع اللّه أو مع الناس. وهذا من دقة القرآن ومصداقيته.
ومخالفة عهد الفطرة السليمة القائم على الإقرار بتوحيد اللّه وأنه لا إله إلا هو ، وعبادة غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، كان كلاهما بتأثير البيئة ،
جاء في صحيح مسلم : « يقول اللّه تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم »
و
في
ج ٩ ، ص : ٢٥
الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » الحديث.

و جاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن مخالفة الفطرة السليمة وعن الشرك ، قال اللّه تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١/ ٢٥]
وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦].
فقه الحياة أو الأحكام :
الكفر عناد وتصميم بالرغم من معرفة الحق والاقتناع بالبرهان. ولقد كان إيراد قصص القرى التي أهلكها اللّه ، وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب للعبرة والاتعاظ ، وما كان أهل تلك القرى ليؤمنوا الآن حقيقة بسبب تكذيبهم السابق قبل مجيء الرسل ، وظلوا إلى آخر أعمارهم مستمرين على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم ، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم.
والختم والطبع على قلوب الكفار القدامى والمعاصرين للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ومن يأتي بعدهم إنما هو بسبب كفرهم وإصرارهم على موقفهم.
وهناك حقيقة أخبرت عنها الآية وهي أن أكثر الناس لا أمانة لهم ولا وفاء لديهم لعهد اللّه وميثاقه ، وعهود الناس ووعودهم ، وأن أكثرهم في الواقع فاسقون مارقون خارجون عن حدود الطاعة المطلوبة منهم نحو ربهم.
ج ٩ ، ص : ٢٦
قصة موسى عليه السلام مع فرعون والملأ من قومه [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٣ الى ١١٦]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠)(٣) وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠)(٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١)(١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١)(٣) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١)(٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)

الإعراب :

حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ أن في موضع جر بعلى بمعنى الباء ، وتقديره : حقيق بأن لا أقول. وقرئ بتشديد الياء في : على ، فيكون : ألا أقول : في موضع رفع بالابتداء ، وما قبله

ج ٩ ، ص : ٢٧

خبره وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ معطوف على محذوف ، سد مسده حرف الإيجاب : نعم ، كأنه قال : نعم إن لكم لأجرا ، وإنكم لمن المقربين.

فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ : إذا للمفاجاة : مبتدأ ، وثعبان : خبره.

إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ : أن فيهما : في موضع نصب بفعل مقدر ، على تقدير : إما أن تفعل الإلقاء ، وإما أن نفعل الإلقاء.

البلاغة :

وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ فيه تأكيد الجملة بمؤكدين : إن واللام ، لإزالة الشك من نفوس السحرة ، ويسمى هذا الخبر إنكاريا.

المفردات اللغوية :

مِنْ بَعْدِهِمْ أي من بعد الرسل المذكورين مُوسى هو كليم اللّه موسى بن عمران أعظم أنبياء بني إسرائيل فِرْعَوْنَ لقب كل ملك لمصر في العهد القديم ، وقيل : كان اسمه منپتاح بن رمسيس ، سنة ١٢٢٥ ق.

م من الأسرة ١٩ ، مثل لقب كسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم بِآياتِنا الآيات هنا : المعجزات الدالة على صدق النبي مثل العصا واليد. وَمَلَائِهِ أشراف قومه ، والمراد هنا قومه فَظَلَمُوا بِها كفروا وجحدوا بها عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ بالكفر وتلك العاقبة هي إهلاكهم حَقِيقٌ جدير أو خليق به عَلى أَنْ لا أَقُولَ أي بأن لا أقول ثُعْبانٌ مُبِينٌ حية عظيمة.

وَنَزَعَ يَدَهُ أخرجها من جيبه بَيْضاءُ ذات شعاع لِلنَّاظِرِينَ خلاف ما كانت عليه من الجلد الهامد لَساحِرٌ عَلِيمٌ فائق في علم السحر. وفي سورة الشعراء : كان هذا من قول فرعون نفسه ، فكأنهم قالوه معه على سبيل التشاور. تَأْمُرُونَ تشيرون علي أَرْجِهْ وَأَخاهُ أخر أمرهما ولا تفصل في شأنهما الآن الْمَدائِنِ أي مدن المملكة حاشِرِينَ جامعين السحرة منها. ساحِرٍ عَلِيمٍ أي ماهر بفنون السحر ، يفضل موسى في علم السحر ، فجمعوا. تُلْقِيَ عصاك نَحْنُ الْمُلْقِينَ ما معنا.

قالَ : أَلْقُوا أمر بالإذن بتقديم إلقائهم توصلا به إلى إظهار الحق فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ صرفوها عن حقيقة إدراكها وَاسْتَرْهَبُوهُمْ خوفوهم حيث تخيلوها حيات تسعى.

ج ٩ ، ص : ٢٨

المناسبة

هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء التي ذكرها اللّه تعالى في هذه السورة ، وفيها من الإيضاح والبيان ما لم يذكر في غيرها من القصص لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات الأنبياء السابقين ، وجهل قوم فرعون الذين أرسل إليهم كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام ، كما أن موسى أرسل أيضا لغير قومه ، أما الأنبياء السابقون فإنهم أرسلوا لأقوامهم.

أضواء من التاريخ :

ذكر اسم موسى في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة ، وله قصص كثيرة مثيرة وعجيبة منذ بداية ولادته حينما كان جماعة فرعون يقتلون أولاد بني إسرائيل ويبقون نساءهم أحياء ، فألقته أمه في النيل في صندوق ، ثم رده اللّه إليها لإرضاعه ، فهذه قصته مع أمه وأخته في سورتي القصص وطه ، ثم قصة خروجه من مصر إلى أرض مدين وهو شاب ، بسبب قتله مصريا إغاثة لعبراني ، وقصته مذكورة في سورة القصص (١٥- ٢(١) وفي سورة طه (الآية ٤٠) ثم سقايته الماشية لابنتي شعيب (القصص ٢٢- ٢٥) ثم مصاهرته لشعيب عليه السلام (القصص ٢٦- ٣٨ ، وطه ٤(١) ثم رعيه ماشية شعيب مهرا لابنته عشر سنين بالوادي المقدس : طوى.

ثم بعثته عليه السلام بينما ذهب لإتيان أهله بنار للاستدفاء وذلك في سورة الإسراء (٢- (٣) وسورة

طه (٩– ٦ و١٧– ٣٦ ، و٤٢– ٤٧) وسورة القصص (٤٥– ٤٦ و٢٩– ٣٥) وسورة الفرقان (٣٥– ٣٦) وسورة الشعراء (١٢– ١٦) وسورة النمل (٧– ١(٢) وسورة السجدة (٢٣– ٢٥) وسورة النازعات (١٥– ١٩).

ثم عودته إلى مصر مع أخيه هارون ودعوته فرعون إلى الإيمان برسالته ،

ج ٩ ، ص : ٢٩

و ذلك في سورة الأعراف (١٠٤– ١٠٥) وسورة الشعراء (١٧ ، ٢٢).

ثم محاورته فرعون في ربوبية اللّه وإظهاره الآيات البينات الدالة على صدق نبوته في سورة طه (٥٥) وسورة الشعراء (٢٤– ٢٨) وموقف فرعون الطاغية بتجاهل ألوهية اللّه وادعائه الألوهية ، وأمره ببناء صرح يصعد به إلى السماء في سورة القصص (٣٨) وسورة غافر (٣٦– ٣٧) التي قال اللّه فيها : وَقالَ فِرْعَوْنُ : يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ....

وإظهاره معجزتي العصا واليد أمام فرعون في سورة الأعراف (١٠٦– ١٢٦) وسورة يونس (٧٥– ٨٩) وسورة طه (٥٧– ٧٦) وسورة الشعراء (٢٩– ٥٢).

ووصف اللّه رد فعل فرعون وقومه وتماديهم في الضلال وإصرارهم على الكفر في سورة الأعراف (١٠٧– ١٢٩) وغافر (٢٣– ٢٧) وائتمار آل فرعون بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه في سورة غافر (٢٨– ٣٥ ، و٣٨– ٤٦) واستخفاف فرعون بموسى في سورة الزخرف (٥١– ٥(٤) والنازعات (٢٢– ٢٦).

وكانت آيات العذاب التسع لفرعون وقومه لما كذبوا موسى هي العقاب الفاصل ، وتلك الآيات : الجدب (السنون) ، ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

أما العصا واليد وفلق البحر وانبجاس الماء لبني إسرائيل فكانت معجزات لموسى عليه السلام.

أما الآيات التسع فهي مذكورة في سورة الأعراف (١٣٠– ١٣٥) وسورة الإسراء (١٠١– ١٠(٢) وسورة طه (٥٩) وسورة النمل (١٣– ١(٤) وسورة القصص (٣٦– ٣٧) وسورة الزخرف (٤٦– ٥٠) وسورة القمر (٤١– ٤(٢) وسورة النازعات (٢٠– ٢١).

ج ٩ ، ص : ٣٠

ج ٩ ، ص : ٣٠

و إغراق فرعون وملئه في البحر الأحمر مذكور في سورة الأعراف (١٣٦- ١٣٧) وسورة يونس (٩٠- ٩٢) وسورة الإسراء (١٠٣- ١٠٤) وسورة طه (٧٧- ٧٩) وسورة الشعراء (٥٢- ٦٨) وسورة القصص (٣٩- ٤٠) وسورة الزخرف (٥٥- ٥٦) وسورة الدخان (١٧- ٣٣) وسورة الذاريات (٣٨- ٤٠).

وأما عقاب فرعون وقومه في الآخرة ففيه عبرة لكل من ادعى الألوهية وتغطرس واستكبر عن قبول دعوة الأنبياء ، وهو مذكور في سورة هود (٩٦- ٩٩) وسورة القصص (٤١- ٤٢) وسورة غافر (٤٥- ٤٥) وسورة الدخان (٤٣- ٥٠).

وقد قلّد بنو إسرائيل في عهد موسى وثنية المصريين ، ولم يؤمن بموسى إلا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون أن يفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الوثنية ، كما قال تعالى : فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وطلبوا من موسى حينما رأوا عباد الأصنام أن يتخذ لهم إلها كما لهؤلاء القوم آلهة ، وكذلك طلبوا الاستبدال بالمن والسلوى الحبوب والبصل والثوم والبقول ، وذلك مذكور في سورة البقرة : لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ (٦١) وفي سورة الأعراف : اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨- ١٤٠) وضرب الحجر وانفجار العيون الاثنتي عشرة في سورة الأعراف (١٥٩- ١٦٠) وإنزال المن والسلوى في سورة طه (٨٠- ٨٢).

ثم ذهب موسى تاركا بني إسرائيل لميقات ربه ، وكتب له الألواح المتضمنة الوصايا التي طلب إلى بني إسرائيل العمل بها ، وذلك مذكور في سورة الأعراف :

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً ... (١٤٢- ١٤٧).

وفي أثناء غيبة موسى في جبل الطور اتخذ السامري عجلا إلها لبني إسرائيل

ج ٩ ، ص : ٣١

يعبدونه ، صنعه من ذهب بعد أن جمعه من حلي النساء ، وجعله بفعل تأثير الرياح والرمال أو أثر قدم فرس جبريل ذا خوار أي كصوت الثور ، وقال لهم : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى . ولم يفلح هارون في ردهم عن عبادة العجل : قالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى [طه ٢٠/ ٩١]. وبعد عودة موسى غضب على أخيه هارون وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه ، وكان فيه حدة ، فاعتذر إليه هارون بأنه بذل أقصى جهده. ثم عاتب موسى النبي ، موسى السامري فقال السامري : بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ،

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي [طه ٢٠/ ٩٦] فعاقبه موسى بالطرد والتشرد وأن يقول في حياته : لا مِساسَ.

وقصة عبادة العجل مذكورة في سورة البقرة (٥٤ ، و٩٢- ٩(٣) وسورة الأعراف (١٤٨- ١٥(٤) وسورة طه (٨٤- ٩٨).

ثم أمر اللّه على لسان موسى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وهي فلسطين أرض الموعد ، فتمردوا ، فحرمت عليهم ، وتاهوا في الأرض أربعين سنة يعيشون في البرية ، من عهد خروجهم من مصر ، إلى أن مات موسى ، وعبروا نهر الأردن ، وملكوا أريحاء وما حولها غرب الأردن أربعين سنة. وتلك القصة مذكورة في سورة المائدة (٢٠- ٢٦).

وفي صحراء التيه ذكر اللّه تعالى في سورتي البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك ، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف. وقصة نتق الجبل مذكورة في سورة البقرة (٦٣- ٦(٤) وسورة الأعراف (١٧١).

وبالرغم من أعجوبة قصة البقرة (البقرة ٦٧- ٧(٤) التي ذكرناها في الجزء الأول ، فإن بني إسرائيل لم يتعظوا بها ، وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة ، ولم تفلح مواعظ موسى فيهم.

ج ٩ ، ص : ٣٢

و لموسى عليه السلام موقف متشدد مع قارون الثري الطاغية ، وقد ذكرت قصته في سورة القصص (٧٦- ٨(٣) كما ذكر ما آل إليه أمر طغيانه بخسف الأرض به وبداره ، وإبادة أعداء موسى المقدر عددهم مائتين وخمسين.

ويلاحظ أن موسى أوذي من بني إسرائيل وأظهر اللّه براءته من عيب اتهموه به وهو الأدرة (ورم في الخصية) أو البرص ، وذلك في سورة الأحزاب (٦٩) وسورة الصف (٥).

ولما رأى بنو إسرائيل اقترافهم الإثم الكبير بعبادة العجل ، اختار موسى من القوم سبعين رجلا يذهبون معه إلى الجبل الذي اعتاد مناجاة اللّه فيه وهو جبل الطور ، ليقدموا الطاعة للّه ويندموا على ما اقترفوا من إثم ، ويتوبوا من عبادة العجل ، فلما كلم اللّه تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله ، عاد جماعة منهم إلى التمرد والعصيان ، ولم يؤمنوا أن اللّه تعالى هو الذي يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم إلى بعض ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم ، بعد تضرع موسى وتذللّه ، وطلبه العفو عما صدر من سفهائهم ، والقصة مذكورة في سورتي البقرة (٥٥- ٥٦) والأعراف

(١٥٥- ١٥٧).

ولموسى قصة طريفة مع العبد الصالح الخضر ، مذكورة في سورة الكهف (٦٠- ٨٢).

وتكرر في القرآن تذكير اللّه تعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم مثل آيات سورة البقرة (٤٧- ٥٧ ، و ٦٠- ٦(١) وفي سورة الأعراف (١٤(١) وسورة إبراهيم (٦- ٨).

وقد مات هارون أولا في جبل « هور » ودفنه موسى ، ثم مات موسى في جبل « نبو » ودفن على الكثيب الأحمر.

ج ٩ ، ص : ٣٣

و بعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل يوشع بن نون من سبط يوسف ، بعد خروجهم من التيه ، أمرهم اللّه أن يدخلوا مدينة بفلسطين هي بيت المقدس أورشليم » أو أريحا ، وذلك بأن يدخلوا باب المدينة سجّدا ، أي خاشعين متذللين ، وأن يقولوا : حطة فخالفوا ودخلوا على هيئة غير التي أمروا بها ، فغضب اللّه عليهم وأنزل عليهم العذاب ، والقصة مذكورة في سورة البقرة (٥٨- ٥٩) وسورة الأعراف (١٦١- ١٦٢).

وأثنى اللّه على موسى وهارون في سورة مريم (٥١- ٥(٣) وسورة الصافات (١١٤- ١٢(٢) وسورة غافر (٥٣- ٥٤).

ما يستفاد من قصة موسى عليه السلام :

شريعة موسى في أصلها الموحى به كشريعة الإسلام في الجملة ، وأمته ذات تاريخ مليء بالاضطرابات والقلاقل والأحداث العنيفة ، وكانت ذات سلطة أحيانا ، وساهمت بشيء من المدنيّة. وكان لقصة موسى مع بني إسرائيل عبر وعظات هي :

١- أنقذ اللّه موسى من القتل وهو طفل رضيع ، وألقته أمه في النيل ، ثم ردّه اللّه إليها لإرضاعه ، وتلك عصمة اللّه ورعايته له ورحمته بأمه.

٢- تربّى موسى في قصور فرعون وكان مؤمنا ونبيا من أولي العزم ، وموسى السامري الذي ربّاه جبريل كافر شقي ابتدع عبادة العجل.

٣- هجرة موسى أو خروجه من أرض مصر بنصيحة رجل من أقصى المدينة بالابتعاد عن مصر ، كانت خيرا كلها ، فإنه صاهر شعيبا عليه السلام ، وأوحى اللّه إليه بالنبوة ، وكانت نصيحة الرجل له من تيسير اللّه له وفضله عليه لأنها كانت سببا في نجاته وبعثته. وهكذا فإن من توكل على اللّه صانه وحماه.

ج ٩ ، ص : ٣٤

٤- لا أثر لقوة البشر وتآمرهم على الإنسان إذا لازمته العناية الإلهية ، فإن بأس فرعون وملأه لم يلحق ضررا بموسى. وانظر إلى هذه المحاورة الحادة ، إذ قال له فرعون : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً [الإسراء ١٧/ ١٠١] فأجابه موسى بعد تلطف كثير وصبر على الجدال بالباطل : لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً [الإسراء ١٧/ ١٠٢].

٥- الفرج الإلهي يأتي بعد الشدة ، ونصرة الحق تأتي عند اشتداد الأزمة ، فقد دافع رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه عن موسى ، وحذر فرعون وآله بطش اللّه ، غير خائف ولا مبال به وبسلطته ، ضاربا الأمثال بالأمم الخالية ، كما جاء في قوله تعالى في سورة غافر : وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ ... [٢٨- ٣٥].

٦- إذا فاضت مشاعر الإيمان في النفس ، هانت أمامها كل الصعاب ، فإن السحرة آمنوا برب موسى ، غير مبالين بفرعون وسطوته.

٧- الصبر مفتاح الفرج وحميد العاقبة ، فإن بني إسرائيل صبروا على أذى فرعون بتقتيل الأبناء واستحياء النساء ثم أعقبهم اللّه الحسنى بما صبروا : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا [الأعراف ٧/ ١٣٧].

وتعرضوا لهجوم الرومان بقيادة « طيطس » الروماني ، فخربوا بيتهم المقدس وهيكلهم الضخم ، بعد سنة ٧١ م فتركوا فلسطين ثم عادوا إليها بعد وفاة موسى وأسسوا مملكة أريحا ، واحتلوا جهات من الحجاز ، كتيماء ووادي القرى وفدك وخيبر ويثرب ، وبنوا فيها المصانع والحصون ، انتظارا لظهور النبي الذي

وعدوا به من العرب الإسماعيليين في يثرب ، وأملا في مؤازرتهم ومناصرتهم ، فأقاموا على الطريق بين يثرب وفلسطين.

٨- حلم موسى على قومه بني إسرائيل ، فبالرغم من غضب الله عليهم بسبب عبادة العجل ، وطلب شيوخهم الذين جاؤوا للتوبة رؤية اللّه تعالى جهلا وتعنتا ، فإن موسى تضرع إلى ربه طالبا العفو عن زلات سفهائهم ، وقال :

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ، تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ [الأعراف ٧/ ١٥٥].

التفسير والبيان :

يذكر اللّه تعالى أنه بعث بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، موسى ، بالآيات أي الحجج والدلائل البينة والمعجزات الدالة على صدقه ورسالته ، إلى فرعون : وهو ملك مصر في زمن موسى ، وملئه أي قومه ، فجحدوا وكفروا بها ، ظلما منهم وعنادا ، فانظر أيها الرسول (أي محمد) كيف كان مصير المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر ، وهم فرعون وملؤه الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله ، أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء اللّه : موسى وقومه المؤمنين به.

ونظير الآية قوله تعالى : وَجَحَدُوا بِها ، وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ، ظُلْماً وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [النمل ٢٧/ ١٤].

وقال : إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ولم يقل : وقومه لأن الذين استعبدهم فرعون وعاضدوه هم أتباع الحكم والسلطان ، وليس سائر الشعب المصري ، وإنما كان الشعب تبعا للحكام ، فلو آمن فرعون لتبعه الشعب كله.

ج ٩ ، ص : ٣٦

و قوله : فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ فيه تشويق واجتذاب الأنظار إلى ما سيذكره تعالى من المصير المشؤوم لفرعون وملئه ، ونجاة موسى وبني إسرائيل.

ثم بدأ اللّه تعالى بعد هذا التشويق ببيان فصول القصة ، وأول فصل منها :

إخباره تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وتغلبه عليه بالحجة والمنطق ، وإظهاره الآيات البيّنات في مجلس فرعون وقومه قبط مصر.

وقال موسى : يا فرعون أي يا ملك مصر ، إني رسول من رب العالمين ، أي مالك كل شيء وخالقه ومدبره ، وجدير بي « ١ » ألا أقول على الله إلا الحق ، فإن الرسول لا يكذب على اللّه الذي بيده ملكوت كل شيء ، لذا فإني لا أخبر عن اللّه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

وهاتان الجملتان تتضمنان عقيدة التوحيد : وهي أن للعوالم كلها إنسها وجنّها ربا واحد ، وعقيدة النوبة والرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ.

ومن المؤيدات قوله : قد جئتكم ببرهان وحجة قاطعة من اللّه أعطانيها دليلا وشاهدا على صدقي فيما أخبرتكم عنه.

وقوله : مِنْ رَبِّكُمْ إشارة إلى أن جميع الناس مربوبون للّه ومخلوقون به ، وأن فرعون ليس ربا ولا إلها ، وإلى أن البينة ليست من صنع موسى.

ثم رتب على إثباته نبوته بالبينة الواضحة طلب موسى من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل من أسره واستعباده وقهره ، وتركهم حتى يذهبوا معه راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم ، ليتفرغوا إلى عبادة ربهم وربه فإنهم من سلالة

---

(١) الباء وعلى يتعاقبان ، فعلى في قوله تعالى : « حَقِيقٌ عَلى » بمعنى الباء ، يقال : رميت بالقوس وعلى القوس ، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة.

ج ٩ ، ص : ٣٧

نبي كريم : إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

و ذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط ، تغلب فرعون على نسل بني إسرائيل واستعبدهم ، فأنقذهم اللّه بموسى عليه السلام ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر ، واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

قال فرعون مجيبا موسى : إن كنت مؤيدا بآية من عند ربك ، فأظهرها لنراها ، إن كنت صادقا فيما ادعيت.

فأجابه موسى على الفور إلى ما طلبه بالفعل لا بالقول : فألقى عصاه من يمينه على الأرض أمام فرعون فإذا هي ثعبان (ذكر الحيات) مبين ، أي ظاهر واضح حقيقي يتحرك ويسير من مكان إلى مكان.

وأخرج يده من جيب قميصه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كالشمس المضيئة ، كما قال تعالى : وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ [النمل ٢٧/ ١٢].

وهذا هو الفصل الثاني من القصة.

ولا داعي للاسترسال في أوصاف الثعبان والعصا واليد ، بأكثر مما دلت عليه الآيات القرآنية إذ ليس لها سند يوثق به ، وإنما هي من الروايات الإسرائيلية التي دسها بعض الدخلاء غير المتورعين ولا المدققين ، مثل كعب الأحبار الإسرائيلي ، ووهب بن منبّه الفارسي الأصل.

ومن المعلوم أن إثارة الفتن السياسية في صدر الإسلام يعود أمرها إلى جماعة السابئيين (أتباع عبد اللّه بن سبأ اليهودي) وجماعات الفرس الذين دخلوا في الإسلام لهدمه من الداخل ، وقد قتل عمر على يد أبي لؤلؤة الفارسي المرسل من جماعة سرية في فارس ، وقتل عثمان بدسائس عبد اللّه بن سبأ.

ج ٩ ، ص : ٣٨

(٣٤/٩)

ثم جاء الفصل الثالث من القصة ومضمونه مقالة ملأ فرعون : قال السادة من قوم فرعون الموافقون له وأهل مشورته : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ أي خبير بفنون السحر وأنواعه ، وله خطره إذ قد يستميل الناس بسحره ، فيكون ذلك سببا لغلبته علينا ، ونزع ملكنا ، وإخراجنا من أرضنا بسحره ، وذلك كله مصرح به في آية أخرى خاطبوا بها موسى وأخاه هارون : قالُوا : أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ [يونس ١٠/ ٧٨] وهو في الواقع صدى لما قاله فرعون وحكاه اللّه عنه بقوله : قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ، فَما ذا تَأْمُرُونَ [الشعراء ٢٦/ ٣٤- ٣٥].

ثم وقع ما خافوا منه ، كما قال تعالى : وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ [القصص ٢٨/ ٦].

وتابع الملأ كلامهم وإبداء رأيهم : قال الملأ لفرعون بعد أن استشارهم بقوله السابق : فَما ذا تَأْمُرُونَ ؟ : أخّر الفصل في أمره وأمر أخيه ، وأرسل في الأقاليم ومدائن ملكك فئة من جندك حاشرين ، أي جامعين لك السحرة من سائر البلاد. وإنما قال : في المدائن لأن السحر ينشط في المدن الجامعة المأهولة بكثرة الناس.

(٣٥/٩)

و كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ، فتوهموا أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل شعوذة الساحرين ، فجمعوا له السحرة ، ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، كما أخبر تعالى فرعون حيث قال : قالَ : أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ ، مَكاناً سُوىً. قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى [طه ٢٠/ ٥٧- ٦٠].

ج ٩ ، ص : ٣٩

يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ أي إن ترسلهم يأتوك بكل ساحر ماهر بفنون السحر. وواضح أن الهدف الإتيان بالمهرة لتحقيق الغلبة والتفوق. قال الزمخشري : وكانت هذه مؤامرة مع القبط.

ثم جاء الفصل الرابع وهو دور السحرة.

وجاء السحرة من كل مكان ، وقالوا لفرعون : هل لنا أجر لقاء الغلبة على موسى ؟ فقال فرعون : نعم لكم أجر عظيم ، وتصبحون من المقرّبين إلى في المركز والمجلس ، وهذا إغراء في الجمع بين المركز المالي والأدبي.

قال السحرة لموسى في اليوم المخصص : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ بسحرك أولا ، وإما أن نلقي ما عندنا ؟ وفي هذا التخيير اعتزاز شديد بأنفسهم ، وثقة بخبرتهم ، وعدم مبالاة بعمله.

(٣٦/٩)

فأجاب موسى جواب الذكي الخبير لأن المتأخر في العمل يكون أدرى بما تقتضيه الحال ، وهو واثق أيضا بشأنه وغلبته عليهم : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، وهذا إذن بتقديم الفعل ، لا أمر يقرهم به على فعل السحر ، وهو بقوله المذكور يريد أن يري الناس صنيعهم ويتأملوه ، ويستفرغ ما عندهم من طاقات ، فإذا فرغوا من زيفهم وشعوذتهم ، جاءهم الحق الواضح ، فيكون أوقع في النفوس. لذا قال تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا ، سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [الأعراف ٧/ ١١٦] أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه ، له حقيقة واقعية ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، كما قال تعالى : قالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى . قُلْنا : لا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى . وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ، إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى [طه ٢٠/ ٦٦- ٦٩].

وتتجلى ثقة موسى بنفسه وبأن ما لديه معجزة إلهية ليست من جنس

ج ٩ ، ص : ٤٠

السحر ، في قوله تعالى : قالَ مُوسى : ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [يونس ١٠/ ٨١- ٨٢].

ومعنى قوله تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... أي لما ألقوا حبالهم وأخشابهم ، سحروا أعين المتفرجين ، ومنهم موسى الذي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وجاؤوا بسحر عظيم المظهر ، كبير التأثير في أعين الناس.

روي أنهم لوّنوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة ، قيل : جعلوا فيها الزئبق.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آيات قصة موسى على ما يأتي :

١- آية ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا دلت على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة يمتاز بها عن غيره إذ لو لم يكن مختصا بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

ودلت أيضا على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ومعجزات كثيرة. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : أول آياته : العصا ثم اليد.

ودلت كذلك على أن فرعون وجماعته ظلموا بالآيات التي جاءتهم ، فاستحقوا العقاب الشامل وهو الإغراق في البحر لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وإنهم وضعوا الإنكار في موضع الإقرار. والكفر في موضع الإيمان ، فكان ذلك ظلما منهم لتلك الآيات.

٢- دل قوله : إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ على وجود الإله لأن العالم

ج ٩ ، ص : ٤١

محتاج إلى إله يوجده ويخلقه ، ومتصف بصفات كالضعف والتغير ونحوها تجعله مفتقرا إلى ربّ يربّيه.

٣- وقوله : حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ يشير إلى أن الرسول لا يقول إلا الحق.

٤- إن طلب موسى عليه السلام إرسال شعب بني إسرائيل معه الذي رتبه على كونه رسولا طلب ليس من السهل على حاكم تلبيته ، لاحتمال تكوين خصوم ضده ، من طريق تبليغهم الحكم الإلهي ، وإعدادهم لمجابهة فرعون.

٥- قوله : قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هو المعجزة الظاهرة القاهرة ، وقد طلب فرعون من موسى إظهار تلك المعجزة : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها .. دليلا على صدقه فيما يدعيه من الرسالة المرسل بها من اللّه. وكانت المعجزة قلب العصا ثعبانا ، وإظهار اليد البيضاء.

٦- اختار الطاغية الكافر : فرعون وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة ، وادعى كون موسى ساحرا ، فتشاور مع كبار رجال دولته ، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة صعيد مصر المهرة وبين موسى.

و تم جمع السحرة من أنحاء المملكة ، قيل : كانوا سبعين رجلا أو ثلاثة وسبعين. ودل قوله : وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

٧- دل قوله : فَأَلْقى عَصاهُ ... وقوله : وَنَزَعَ يَدَهُ على أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان ، فلما كان السحر غالبا على أهل زمان موسى عليه السلام ، كانت معجزته

شبيهة بالسحر ، وإن كان مخالفا للسحر في الحقيقة. ولما كان الطب غالبا على أهل زمان عيسى

ج ٩ ، ص : ٤٢

عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزته القرآن أبلغ الكلام من جنس الفصاحة.

٨- دل قوله : وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا ... على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا ، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام. ودل أيضا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان أو الأشياء ، فلم يتمكنوا من قلب الحبال والعصي حيات فعلية ، كما لم يتمكنوا من قلب التراب ذهبا ، وأن يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ، ولو كانوا قادرين على ذلك لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون.

والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق ، وألا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب.

٩- قوله : وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله ، من قولهم : نَكُونَ وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل وهو نَحْنُ وتعريف الخبر وهو الْمُلْقِينَ بقصد كسب الشهرة واجتذاب أنظار الناس.

وقد جاراهم موسى في رغبتهم ازدراء لشأنهم وقلة المبالاة بهم ، وثقته بالتأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها شي ء.

١٠- دل قوله تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ على أن السحر محض التمويه. ولو كان السحر حقا ، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم. وكل ما في الأمر أنهم تخيلوا أحوالا عجيبة ، مع أن الأمر في الحقيقة خلاف ذلك. ودل قوله : وَاسْتَرْهَبُوهُمْ على أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصي.

ج ٩ ، ص : ٤٣

ج ٩ ، ص : ٤٣

و أما خوف موسى فليس كخوف العوام ، وإنما لعله خاف من وقوع التأخير في ظهور حجته على سحرهم.

١١- السحر كما دلت الآية مجرد خيال وتمويه لا حقيقة فيه ، لذا يسمى بالشّعوذة والدجل ، وهو إما أن يعتمد على بعض خواص المادة كتمدد الزئبق الذي وضعه سحرة فرعون في حبالهم وعصيهم ، وإما أن يستعان فيه بخفة اليد في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعضها ، وإما أن يلجأ فيه إلى تأثير النفس

القوية في إرادة النفس الضعيفة ، وقد يستعان حينئذ بأرواح الشياطين ، ومنه ما يسمى في عصرنا بالتنويم المغناطيسي.

١٢- الفرق بين السحر والمعجزة : أن المعجزة حقيقة تظهر على يد مدعي النبوة ، والسحر خيال يحدث على يد رجل فاسق.

لذا أخطأ من زعم أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم سحر ، وأن السحر أثّر فيه ، حتى قال : « إنه يخيّل إلي أني أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وإن امرأة يهودية سحرته في وعاء طلع النخل ووضعته تحت الحجر الذي يقف عليه المستقي من البئر ، حتى أتاه جبريل فأخبره بذلك ، فاستخرج وزال عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم. وهذا كله من وضع الملحدين الذين يحاولون العبث بالنبوة وإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام.

وهذا ينافي قوله تعالى : وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى . وجائز أن تفعل المرأة اليهودية ذلك بجهلها ، ثم أطلع اللّه نبيه على فعلها ، لا أن ذلك ضره وخلط عليه أمره.

ج ٩ ، ص : ٤٤

إيمان السّحرة بربّ العالمين [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١٧ الى ١٢٢]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١)

رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (١٢٢)

الإعراب :

أَنْ أَلْقِ عَصاكَ أَنْ : إما مصدرية في موضع نصب ، وتقديره : بأن ألق عصاك ، فحذف حرف الجر فاتّصل الفعل بها ، وإما أن تكون مفسّرة بمعنى أي ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، كقوله تعالى : وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا [ص ٣٨/ ٦] أي : امشوا.

ما يَأْفِكُونَ ما : موصولة ، أي : زال وذهب الذي عملوا به السّحر ، أو مصدرية بتقدير :

فإذا هي تلقف إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك. صاغِرِينَ حال منصوب.

البلاغة :

فَوَقَعَ الْحَقُّ استعارة أستعير لوقع للثبوت والظهور والحدوث.

المفردات اللغوية :

تَلْقَفُ تتناول وتبتلع بسرعة. ما يَأْفِكُونَ يقلبون بتمويههم ، أو يكذبون ويموهون ، مأخوذ من الإفك : وهو قلب الشيء عن وجهه الأصلي ، وهو إما أن يكون بالقول الكاذب ، وإما أن يكون بالفعل كالسحر. والمأفوك : المصروف عن وجهته الأصلية ، قال تعالى :

أَنَّى يُؤْفَكُونَ [المائدة ٥/ ٧٥ وموضع أخرى] أي يصرفون عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل ، ومنه سمّيت الرياح المعدولة عن مهبها مؤتفكة ، كما قال تعالى : وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ [الحاقة ٦٩/ ٩] أي أهل تلك القرى. وهي قرى قوم لوط.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون ، وهو موقفه من

ج ٩ ، ص : ٤٥

السّحرة. وهو إخبار من اللّه تعالى إلى رسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق فيه بين الحق والباطل ، ومضمون الإخبار : إلقاء ما في يمينه وهي عصاه.

أوحى اللّه إلى موسى وأمر بإلقاء عصاه ، التي تحولت إلى ثعبان عظيم ، فإذا هي تبتلع ما ألقوه ، وموّهوا به أنه حق وهو باطل ، أو ما يقلبونه من الحقّ إلى الباطل ويزوّرونه. قال ابن عباس : فجعلت لا تمرّ بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته ، فعرفت السّحرة أن هذا شيء من السّماء ، ليس بسحر ، فخرّوا سجّدا ، وقالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ.

وكانوا قد جعلوا الحبال مجوّفة محشوّة بالزئبق ، وقد تحرّكت بتأثير الحرارة :

إما بحرارة الشّمس حين أصابتها ، وإما بنار أعدت لها.

فَوَقَعَ الْحَقُّ .. أي فثبت الحقّ وظهر كالشّمس ، وفسد ما كان السّحرة يعملون من الحيل والتّخييل ، وذهب تأثيره ، وأدركوا أن فعل موسى فوق السّحر.

وغلب السّحرة في ذلك الجمع العظيم بأمر اللّه وقدرته ، وانقلب فرعون وقومه معه صاغرين أذلّة ، بما لحقهم من عار الهزيمة والخيبة والخذلان ، لكن السّحرة آمنوا.

وألقي السّحرة عند ذلك وعند معاينة المعجزة سجّدا لربّهم لأنّ الحق بهرهم وحملهم على السجود ، وقالوا : صدّقنا وآمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، أي ربّ جميع الأشياء والخلائق من الإنس والجنّ.

وكان هؤلاء منسجمين مع أنفسهم ، منطقيين في تصرّفهم ، فلم يكابروا ، وإنما كانوا صادقين مع

نفوسهم ، بدليل أن فرعون قبل المبارزة دعا رؤساء السّحرة

ج ٩ ، ص : ٤٦

و معلميهم ، فقال لهم : ما صنعتم ؟ قالوا : قد عملنا سحرا لا يطيقه سحرة أهل الأرض ، إلا أن يكون أمرا من السّماء ، فإنه لا طاقة لنا به.

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات إظهار واضح لقدرة اللّه تعالى بإعدام الحبال والعصي وإذهابها من الوجود ، مما يدلّ على وجود الإله القادر المختار ، وعلى المعجز العظيم لموسى عليه السّلام ، والحسم القاطع بين الحقّ والباطل.

ولكن المشكلة تكمن في مواقف البشر ، فالمعاندون وهم فرعون وقومه ، بالرغم من عار الهزيمة والخذلان ، ظلّوا على وضعهم من الكفر والعناد والتكذيب ، وهو طيش وخفّة عقل ومكابرة للحقّ. وأما السّحرة البسطاء في الظاهر ، والعقلاء في الحقيقة والواقع ، فإنهم عرفوا أن فعل موسى ليس من قبيل السّحر ، وإنما هو معجزة سماوية إلهية ، فلم يتمالكوا أنفسهم ، وخرّوا ساجدين لربّهم ، خاضعين لإله الكون.

فما أحرى الناس بتقليد هؤلاء ونبذ أولئك!! ذلك لأنّ السّحرة كانوا مهرة في علم السّحر ، متقنين لفنونه وأنواعه ، ولأجل مهارتهم وإتقانهم وكمال علمهم بالسّحر انتقلوا من الكفر إلى الإيمان.

واحتجّ أهل السّنّة بقوله تعالى : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ على أن غيرهم ألقاهم ساجدين ، وما ذاك إلا الله رب العالمين. وهذا يدلّ على أن فعل العبد من خلق اللّه تعالى ، فهو سبحانه هو خالق الميل إلى الإيمان في قلوبهم.

ولما ظفروا بمعرفة اللّه تعالى في الحال ، جعلوا سجودهم شكرا للّه تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان ، وعلامة أيضا على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان ، وإظهار الخضوع والتّذلل للّه تعالى.

ج ٩ ، ص : ٤٧

و لما قالوا : وَهارُونَ زالت الشّبهة في أن المقصود ليس فرعون مربّي موسى ، وإنما المقصود هو إله السّماء ، وإعلان الكفر بفرعون إذ أنهم لما قالوا :

آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ قال لهم فرعون : إياي تعنون ؟ فلما قالوا : رَبِّ مُوسى قال : إياي تعنون لأني أنا الذي ربّيت موسى ، فلما قالوا :

وَهارُونَ زالت الشّبهة وعرف الكلّ أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السّماء.

تهديد فرعون للسّحرة وإصرارهم على الإيمان باللّه [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٣ الى ١٢٦]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

المفردات اللغوية :

آمَنْتُمْ استفهام معناه الإنكار والاستبعاد لمكر ، المكر : صرف الإنسان غيره عما يريده بحيلة ، والمعنى : إن هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر ، قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط ، وتسكنوها بني إسرائيل. وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس ، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ما ينالكم منّي. لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أي يد كلّ واحد اليمني ورجله اليسرى وبالعكس ، والصّلب : الشدّ على خشبة ونحوها. مُنْقَلِبُونَ راجعون في الآخرة. تَنْقِمُ تنكر. أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أفض علينا صبرا يغمرنا كغمرة الماء ، أي هب لنا صبرا واسعا ، عند فعل ما توعدنا به فرعون ، لئلا نرجع كفارا. وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ثابتين على الإسلام.

ج ٩ ، ص : ٤٨

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل السادس من قصّة موسى مع فرعون ، فيه يخبر اللّه تعالى عمّا توعّد به فرعون السّحرة لما آمنوا بموسى عليه السّلام ، وبما ردّوا به عليه من تسليم أمرهم للّه لأن مصيرهم إليه في الآخرة.

و معنى آمَنْتُمْ على أنه إخبار بخبر : صدقتم ، ويراد به التّوبيخ ، وعلى أنه استفهام يراد به الإنكار والاستبعاد ، أي آمنتم بموسى واتبعتموه في رسالته قبل أن آذن لكم بذلك.

إن صنعكم هذا وغلبته لكم في هذا اليوم ، إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك ، كقوله في الآية الأخرى : إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ [طه ٢٠/ ٧١]. إنكم دبّرتم هذه المؤامرة في هذه المدينة لتخرجوا المصريين منها بسحركم ، وتسكنوا فيها مع بني إسرائيل ، فسوف تعلمون ما أصنع بكم من العذاب والنّكال على هذا المكر.

وهذا القول من فرعون مجرّد تمويه وتدليس وتغطية للهزيمة ، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان ، كما قال

تعالى : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ [الزّخرف ٤٣/ ٥٤] إذ إنه يعلم أن هذا قول باطل ، فهو الذي أرسل جنوده في مدائن مملكته ، لجمع السّحرة المتفرّقين من سائر الأقاليم بمصر ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، وموسى عليه السّلام لا يعرف أحدا منهم ، ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم بذلك.

وقد استفاد فرعون هذه الفكرة أي الاتّهام بالمكر والمؤامرة من مناقشة دارت بين موسى وكبير السّحرة قبل المبارزة ، روي أن موسى عليه السّلام قال لأمير السّحرة أو للسّاحر الأكبر : أتؤمن بي إن غلبتك ؟ قال : لآتين بسحر لا يغلبه سحر ، وإن غلبتني لأومننّ بك. وفرعون يسمع ذلك ، فلذلك قال ما قال.

ج ٩ ، ص : ٤٩

و بعد أن أجمل الوعيد السابق بقوله : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ فصله بقوله :

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ يعني قسما لأقطعنّ الأيدي والأرجل من خلاف ، ثم لأصلبنّ كل واحد على جذوع الشّجر ، كما قال : فِي جُذُوعِ النَّخْلِ [طه ٢٠/ ٧١] أي على الجذوع ، لتكونوا عبرة لمن يكيد لنا ويخرج عن سلطاننا ، قال ابن عباس : وكان أوّل من صلب ، وأوّل من قطّع الأيدي والأرجل من خلاف : فرعون.

(٤٥/٩)

فأجابه السّحرة على تهديده ووعيده : إنّنا لا نأبه بالقتل ولا نبالي بالموت لأننا قد تحقّقنا أنا إلى الله راجعون ، ففي الآخرة يوم الجزاء ، فيثيبنا على شدائد القطع والصّلب ، ونريد أن نفدي أنفسنا من عذاب الله ، فعذابه أشدّ من عذابك ، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا من السّحر ، أعظم من نكالك ، فلنصبرنّ اليوم على عذابك ، لنخلص من عذاب الله ، كما قال تعالى :

قالُوا : لا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء ٢٦/ ٥٠- ٥١].

ويحتمل- كما ذكر الزّمخشري- أن يكون المعنى : إنّا جميعا نحن وأنت يا فرعون ، سننقلب إلى اللّه ، فيحكم بيننا. وفي هذا إيماء إلى تكذيبه في ادّعاء الرّبوبيّة ، وإيثار ما عند اللّه على ما عنده من شهوات الدّنيا الفانية.

وما تعيب منّا إلا الإيمان بآيات اللّه ، الذي هو خير الأعمال ، وأصل المناقب والمفاخر كلها. وفي هذا إعلان لقرار لا رجعة فيه ، وكأنّهم يقولون : لا أمل لك في رجوعنا عن إيماننا.

ربنا هب لنا صبرا واسعا ، وعمّنا بالصبر على دينك والثّبات عليه ، واغمرنا به حتى يفيض علينا كما يغمر الماء الأشياء.

والظاهر أنّ فرعون نفّذ تهديده ووعيده فعلا ، بدليل قوله تعالى في بداية

ج ٩ ، ص : ٥٠

القصّة : فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أي فرعون وجماعته. قيل : إنّ فرعون أخذ السّحرة ، وقطعهم على شاطئ النهر ، وإنه آمن بموسى عند إيمان السّحرة ستمائة ألف.

(٤٦/٩)

وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ أي ثابتين على الإسلام ، متابعين لنبيّك موسى عليه السّلام ، وقالوا لفرعون : فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى . إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ ، فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى [طه ٢٠/ ٧٢- ٧٥].

قال ابن كثير نقلا عن ابن عباس وغيره : فكانوا في أوّل النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة.

فقه الحياة أو الأحكام :

حاول فرعون إنقاذ نفسه من عار الهزيمة ، فلما علم أن أمهر الناس بالسحر أقر بنبوّة موسى عليه السّلام أمام الخلق الكثير ، والحشد العظيم ، خاف أن يصير ذلك حجّة قويّة عند قومه على صحّة نبوّة موسى عليه السّلام ، فألقى في الحال نوعين من الشّبهة إلى إسماع العوام « ١ » :

الشّبهة الأولى :

قوله : إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أي إن إيمان هؤلاء بموسى عليه السّلام ليس لقوّة الدّليل ، بل لأجل التّواطؤ مع موسى على الإيمان به والإقرار بنبوّته.

---

(١) تفسير الرّازي : ١٤/ ٢٠٧- ٢٠٨.

ج ٩ ، ص : ٥١

و الشّبهة الثانية :

أنّ الهدف من التّواطؤ إخراج قوم فرعون من المدينة وإبطال ملكهم والاستيلاء على مصر. ولا شكّ أن مفارقة الوطن والنّعمة المألوفة من أصعب الأمور ، فجمع فرعون بين الشّبهتين ، لتغطية آثار الهزيمة ، وإبقاء التّماسك حوله.

(٤٧/٩)

ثم أتبع فرعون التّدليس والتّمويه بالتّهديد والوعيد للسّحرة ، وبالتّنكيل الشّديد بهم ، وتقطيع أطرافهم ، وصلبهم ، قال ابن العربي : هذا يدلّ على أنّ الصّلب وقطع اليد والرّجل من خلاف كان عقوبة متأصّلة عند الخلق ، تلقّفوها من شرع متقدّم ، فحرّفوها حتى أوضحها اللّه في ملّة الإسلام ، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الاجرام أي عقوبة المحاربين « ١ » .

ولكن غباء فرعون وجماعته وكلّ الكفار جعلهم لا يدركون ما الذي يفعله الإيمان الحقّ من الأعاجيب ، فلم يبالوا بالموت ، وطلبوا الثّبات على الإسلام ، والعون على إفراغ الصّبر عليهم عند القطع والصّلب.

وإذا كان الإيمان بالدّين الحقّ والصّبر على الشّدائد من خلق اللّه تعالى ، كما يقول أهل السّنة ، فإنّ اتّجاه إرادة الإنسان للأخذ بهما ، والاستعانة باللّه للثّبات على الإسلام ، دليل على استحقاق العبد الثّواب على ما اتّجهت إليه إرادته ، إذ لو كان الإيمان مجرّد منحة من اللّه ، لما كان هناك داع لإثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر.

وموقف السّحرة وإعلان إيمانهم بجرأة وصراحة يدلّ على أنّ الإنسان إذا تجرّد عن هواه ، وأذعن للعقل والفكر السّليم ، بادر إلى الإيمان عند ظهور الأدلّة عليه.

---

(١) أحكام القرآن : ٢/ ٧٧٩. [.....]

و صلابة السّحرة ومن تابعهم في إيمانهم أحد المظاهر التي تدلّ على أنّ الإيمان الرّاسخ في النّفس يكون أعزّ وأمنع من الجبال الرّاسيات.

وقد دلّت التّجارب وأثبت التاريخ قديما وحديثا أنّ أهل الإيمان بالله واليوم الآخر هم أشدّ الناس حزما ، وأكثرهم شجاعة وصبرا في أوقات الأزمات والمحن والحروب ، والأمثلة كثيرة في تاريخ الإسلام قديما في الفتوحات ، وحديثا في لقاء اليهود وأمثالهم في فلسطين والجزائر والهند وأفغانستان وغيرها.

تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه ونصيحة موسى لقومه وحوارهم معه [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

الإعراب :

وَيَذَرَكَ معطوف على : يفسدوا ، والواو عاطفة ، ويصحّ أن تكون حالية.

المفردات اللغوية :

الْمَلَأُ كما تقدّم : السّادة والأشراف. أَتَذَرُ أتترك. لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بالدّعوة إلى مخالفتك. وَيَذَرَكَ يتركك. وَآلِهَتَكَ كان صنع لهم أصناما صغارا يعبدونها ، وقال :

ج ٩ ، ص : ٥٣

أنا ربّكم وربّها ، ولذا قال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى . والواو في قوله وَيَذَرَكَ : قيل : إنّها حالية ، أي أتذروه وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك ؟ وقيل : هي عاطفة ، أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك.

سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ المولودين. وَنَسْتَحْيِي نستبقي. نِساءَهُمْ أحياء كما فعلنا بهم من قبل. وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ قادرون ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل. يُورِثُها يعطيها. وَالْعاقِبَةُ المصير المحمود. لِلْمُتَّقِينَ اللّه.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل السّابع من قصّة موسى مع فرعون ، يخبر فيه اللّه تعالى عن تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه ، وما أضمروه لهم من الأذى والبغضاء ، بعد إيمان السّحرة بموسى وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة.

والمعنى : وقال أشراف قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا ، فيتمكّنوا من إفساد رعيّتك ، بإدخالهم في دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم وقيادتهم ، ويدعوهم إلى عبادة ربّهم دونك ، ويتركك مع آلهتك فلا يعبدونك ولا يعبدونها كما قررت ؟ ! ومن المعروف في التّاريخ المصري القديم أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها (الشمس) ويسمّونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشّمس وابنها.

قال الحسن البصري : كان فرعون يعبد الأصنام ، فكان يعبد ويعبد. قال التّيمي : كان يعبد شيئا كان قد جعله في عنقه. فأجابهم فرعون : سنقتّل أبناء بني إسرائيل تقتيلا ، ونستبقي نساءهم أحياء ، كما كنّا نفعل من قبل ، فلا يتكاثرون حتى ينقرضوا ، وإنّا مستعلون عليهم ، قاهرون لهم ، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد في أرضنا ، ولا الخروج من سلطاننا.

وفي موقف آخر همّ فرعون بقتل موسى كما جاء في قوله تعالى : وَقالَ

ج ٩ ، ص : ٥٤

فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ

[غافر ٤٠/ ٢٦].

وحين قال فرعون : سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وسمع الإسرائيليّون ذلك ، فزعوا وجزعوا وتضجّروا ، فطمأنهم موسى ونصحهم وقال لهم : استعينوا باللّه وحده ، واطلبوا العون والتّأييد منه على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا ، فاللّه هو المعين على الشّدائد ، والصّبر سلاح المؤمن ومفتاح الفرج ، واعلموا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. وهذا وعد لهم بالنّصر ، وأنّ الدّار ستصير لهم.

و اللام في إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يجوز أن تكون للعهد ، ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله تعالى : وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ [الزّمر ٣٩/ ٧٤] ، ويجوز أن تكون للجنس ، فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض. ثمّ بشّرهم بحسن الخاتمة والعاقبة ، فقال :

واعلموا أن العاقبة الحسنى والخاتمة المحمودة لمن اتّقى اللّه ، والنّصر للمؤمنين ، لا كما يتوهّم فرعون وقومه.

ثم دار حوار بين بني إسرائيل وموسى ، وكأنّ الوصية لم تؤثّر فيهم ، ولشدّة فزعهم من فرعون وقومه ، فقالوا : أوذينا من قبل مجيئك وقبل ولادتك ، ومن بعد إرسالك ، وفعلوا بنا مثلما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك ، فقتلوا أولادنا ، وعذّبونا وأساؤوا لنا ، واليوم يتكرر ما كان في الماضي ، وتعود المأساة ، كما تسمع من الوعيد والتّهديد.

فأجابهم موسى مؤكّدا نصر اللّه لهم ، وما يصيرون إليه في المستقبل القريب ، وثقته باللّه تعالى ، ومبشّرا بهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر : أملي باللّه ورجائي بفضله ، واللّه محققه بمشيئته : أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ فرعون وقومه ،

ج ٩ ، ص : ٥٥

و يجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم ، فينظر عملكم الكائن منكم ، حسنه وقبيحه ، وشكر النّعمة وكفرانها ، وسيجازيكم على حسب ما يوجد منكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ.

وهذا حضّ لهم على العزم على الشكر عند حلول النّعمة ، وزوال النّقمة.

وعبّر بالرّجاء دون الجزم بذلك ، لتفويض المشيئة للّه تعالى ، ولئلا يتركوا العمل ويتّكلوا على ذلك. قال سيبويه : عسى : طمع وإشفاق. وقال الزّجاج : وما يطمع اللّه تعالى فيه فهو واجب.

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يختلف واقع التّاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل بالنّسبة للأقوياء والضّعفاء ، فإن صاحب القوّة والسّلطة يعتمد على سلطانه وبأسه ، فيشيع بين الناس الرّهبة والذّعر والخوف ، ويعلن الإنذار والتّهديد والوعيد.

المنتفعون من السّلطة لسان حالهم ومقالهم وفعلهم فعل تلك السّلطة ، لذلك حرّض السّادة والأشراف من قوم فرعون على موسى وبني إسرائيل.

وكانت استجابة فرعون الطاغية للتحريض فورية ، فجدّد تنكيله ببني إسرائيل وهو قتل أولادهم بعد الولادة ، وتشديد قبضة السّلطة عليهم ، ليظلّوا مقهورين أذلّاء خائفين خاضعين له.

أمّا موسى فكان فرعون كلما رآه خافه أشدّ الخوف ، لذا لم يتعرّض له ، مع أنّ قومه لم يعرفوا ذلك ، فحملوه على أخذه وحبسه ، ولكنه لم يحبسه لعدم الاهتمام به ، ولعدم خوفه في الظاهر منه.

وأمّا المستضعفون بقيادة موسى فلا أمل لهم إلا باللّه ، ولا ملجأ إلا إليه ، لذا طلب موسى من قومه أن يطلبوا العون والتّأييد من اللّه تعالى ، وأن يتذرّعوا

ج ٩ ، ص : ٥٦

بالصّبر ، فإن صدقوا في إيمانهم ، وصبروا على بلائهم ، حقّق اللّه لهم الغلبة والنّصر ، وجعل العاقبة الحسنة لهم لتقواهم.

أمرهم موسى بشيئين ، وبشّرهم بشيئين :

أمّا اللّذان أمر موسى عليه السّلام بهما : فهما الاستعانة باللّه تعالى ، والصّبر على بلاء اللّه. وإنّما أمرهم أوّلا بالاستعانة باللّه ، فلأن من عرف أنه لا مدبّر في العالم إلا اللّه تعالى ، انشرح صدره بنور معرفة اللّه تعالى ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنّه إنما حصل بقضاء اللّه تعالى وتقديره.

وأمّا اللّذان بشّر بهما ، فالأوّل : وراثة الأرض ، وهذا إطماع من موسى قومه في أن يورثهم اللّه تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث : وهو جعل الشيء للخلف بعد السّلف.

و الثّاني : قوله : وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أي العاقبة الحسنى والمصير الأفضل لكلّ من اتّقى اللّه تعالى وخافه ، سواء في الدنيا والآخرة ، أما في الدّنيا فهو الفتح والنّصر على الأعداء ، وأمّا في الآخرة فهو نعيم الجنة « ١ » .

ولكن النّفس البشرية تخاف عادة من تهديد صاحب السّلطة ، فخاف بنو إسرائيل لأنهم كانوا قبل مجيء موسى عليه السّلام مستضعفين في يد فرعون ، فكان يأخذ منهم الجزية ،

(١) تفسير الرّازي : ١٤/ ٢١٢.

ج ٩ ، ص : ٥٧

أمّا نبيّ اللّه موسى فأعلن بشارته بإهلاك فرعون ، وقوّى قلوبهم بما وعدهم من خلافة الأرض ، ليتمسّكوا بالصبر ، ويتركوا الضّجر والجزع المذموم ، ثم بيّن بقوله : فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ما يريده من حثّهم على التّمسّك بطاعة اللّه ، والاستعداد لشكر النّعمة ، وزوال النّقمة. وقد تحقّق الوعد بالإغراق وبأنواع العذاب الآتية في الآيات التّالية.

أنواع عذاب الدّنيا بآل فرعون [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٣]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣)

الآيات التّسع

الإعراب :

مَهْما تَأْتِنا مَهْما : اسم شرط ، والدّليل على أنه اسم عود الضمير إليه من قوله تعالى : تَأْتِنا بِهِ وهو منصوب بفعل : تَأْتِنا على قول من قال : زيدا ضربته ، ويجوز أن يكون في موضع رفع ، على قول من قال : زيد ضربته ، وتَأْتِنا : مجزوم بمهما لأنه شرط ، وجواب الشّرط قوله تعالى : فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ.

آياتٍ مُفَصَّلاتٍ حال منصوب مما قبله من الأشياء المذكورة في قوله تعالى : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ... والعامل : أرسلنا.

ج ٩ ، ص : ٥٨

البلاغة :

بين الْحَسَنَةُ وسَيِّئَةٌ طباق.

وبين طائِرُهُمْ ويَطَّيَّرُوا جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

وَلَقَدْ أَخَذْنا كثر استعمال الأخذ في العذاب ، كقوله : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ،

إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود ١١/ ١٠٢]. آلَ فِرْعَوْنَ قومه وخاصته ، وهم الملأ من قومه ، ولا يستعمل الآل إلا فيمن يختص بقرابة مثل : وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ [آل عمران ٣/ ٣٣] أو يختصّ بموالاة ومتابعة في الرّأي مثل : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ [غافر ٤٠/ ٤٦].

بِالسِّنِينَ جمع سنة وهي الحول ، لكن كثر استعمالها في حول الجدب والقحط ، كما هنا ، فيكون المراد منها القحط ، بدليل نقص الثّمرات يَذَّكَّرُونَ يتّعظون فيؤمنوا. الْحَسَنَةُ الخصب والنّماء والرّخاء. قالُوا : لَنا هذِهِ أي نستحقها ولم يشكروا عليها. سَيِّئَةٌ جدب أو بلاء في الأنفس والأرزاق. يَطَّيَّرُوا يتشاءموا ويتطايروا ، وأطلق التّطير على التّشاؤم أخذا بعادة العرب في زجر الطّير ، فكانوا يتأمّلون الخير إذا طار الطائر يمينا ويسمّونه (السّانح) ويتوقّعون الشّرّ إذا طار شمالا ، ويسمّونه (البارح). طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ما قضي لهم وقدّر ، والمراد به أن شؤمهم : هو عقابهم الموعود به في الآخرة. وعند اللّه : أي يأتيهم به وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ما يصيبهم به من عنده.

الطُّوفانَ هو ماء دخل بيوتهم ، ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيّام. الْجَرادَ طائر معروف يأكل النبات ، وقد أكل زرعهم وثمارهم أيضا. وَالْقُمَّلَ هو السّوس الذي ينخر الحنطة ، وقيل : هو الدّود أو القراد الذي يأكل الزرع ، ويتبع ما أكله الجراد. وَالضَّفادِعَ المعروفة ، فملأت بيوتهم وطعامهم. وَالدَّمَ هو الرّعاف ، وقيل : هو دمّ كان يحدث في مياه المصريين. مُفَصَّلاتٍ بيّنات. فَاسْتَكْبَرُوا عن الإيمان بها.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثّامن من قصّة موسى مع فرعون ، وهو فصل الجزاء والعقاب أو الآيات التي أنزلها اللّه على فرعون وقومه ، فبعد أن بشّر موسى عليه السّلام قومه بإنزال العذاب على فرعون وقومه بقوله : عَسى رَبُّكُمْ أَنْ

يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

ذكر هنا ألوان العذاب قبل حلول عذاب الاستئصال ، للتّحذير والزّجر وتنبيه السّامعين من خطر الكفر والتّكذيب. وأما عذاب الاستئصال فهو إغراق فرعون في اليمّ ونجاة بني إسرائيل.

و قد ذكر اللّه تعالى في سورة الإسراء أن الآيات أي آيات العقاب تسع ، بقوله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ... [١٠١].

وذكر هنا سبع آيات ، ويضاف إليها المذكور في سورة يونس ، وهو :

وَقالَ مُوسى : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [٨٨] ، والطّمس على الأموال : هو محقها وهلاكها.

وفسّر البيضاوي الآيات التّسع بأنها آيات أرسل بها موسى إلى بني إسرائيل ، وهي أحكام أمروا بالأخذ بها آيات عقاب ، عوقب بها فرعون وجنوده ، وهي :

العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وانفجار الماء من الحجر ، وفلق البحر ، ونتق الطّور على بني إسرائيل. وقيل : الطّوفان ، والسّنون ، ونقص الثّمرات مكان الثّلاث الأخيرة.

والواقع أنّ فلق البحر إنّما كان بعد تمام الآيات ، وانبجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون ، فلا يصحّ أن يكون آية لفرعون وقومه. وأمّا العصا واليد فهما معجزتان لموسى عليه السّلام ، وليستا آيتي عذاب. فيكون في تقديري مجموع الآيات هكذا : السّنون ، نقص الأموال ، نقص الأنفس ، نقص الثّمرات ، الطّوفان ، الجراد ، القمّل ، الضّفادع ، الدّم « ١ » . سبع منها مذكور هنا في سورة الأعراف ، وواحدة مذكورة في سورة يونس ، كما أبنت ، أمّا نقص الأنفس فهو

---

(١) قصص الأنبياء للنّجار : ص ١٩٨.

ج ٩ ، ص : ٦٠

ناجم عادة عن الجدب ، ونقص الثّمار ، والطّوفان ، قال مجاهد وعطاء :

الطّوفان : الموت.

و معنى الآيات هنا : ولقد اختبرنا آل فرعون وامتحنّاهم وابتليناهم بسنين الجوع بسبب قلّة الزّروع ، أي في البادية ، وبنقص الثّمرات ، أي في الأمطار ، قال رجاء بن حيوة : « كانت النّخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة » ، ثم قال تعالى :

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي ليتذكّروا ويتّعظوا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم لآيات اللّه وعن ظلمهم لبني إسرائيل ، ويؤمنوا باللّه ربّا ، ويستجيبوا لدعوة موسى عليه السّلام لأنّ من سنّته تعالى أن يرسل الزّواجر تنبيهات ، ودلّت التّجارب على أنّ الشّدائد تليّن النّفوس ، فتكون المصائب والآفات ونقص الثّمرات سببا في

رجوع الناس إلى اللّه تعالى ، فإن عادوا إلى ربّهم واهتدوا كان الخير والرّخاء ، وإن أعرضوا كان القحط والجدب والهلاك المحتوم ، وقد أعرض آل فرعون عن الاستجابة لدعوة موسى بعد أن أنذرهم ، فكانوا من الهالكين.

ثم بيّن اللّه تعالى أنّ المصائب زادت آل فرعون عتوّا وبغيا ، فقال : فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ... أي إذا جاءهم الخصب والرّزق وزيادة الثّمار والمواشي قالوا :

لنا هذه ، يعني هذا لنا بما نستحقّه من العمل والمعرفة والتّفوّق ، وإن أصابتهم سيئة ، أي جدب وقحط ، تشاءموا بموسى ومن معه ، وقالوا : هذا بسببهم وما جاؤوا به ، وغفلوا عن واجب شكر نعمة اللّه ، وعن سيئاتهم وفساد أعمالهم وشرور أنفسهم ، كما قال تعالى في حقّ النّبي صلى اللّه عليه وآله وسلم : وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [النساء ٤/ ٧٨].

ثمّ ردّ اللّه عليهم بقوله : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي إن كلّ ما يصيبهم من خير أو شرّ ، فهو بقضاء اللّه وقدره ، فاللّه جعل الخير ابتلاء ليعرف الشاكر

من الجاحد ، وجعل الشّر ابتلاء أيضا ليعرف الصابر من الساخط ، وليرجع أهل الغي والفساد عن غيّهم وفسادهم ، ويقلعوا عن طغيانهم وضلالهم. واللّه تعالى أيضا جعل أعمال العباد سببا لما ينزل بهم من خير وشرّ غالبا. قال الزّمخشري في تفسير طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ : أي سبب خيرهم وشرّهم عند اللّه ، وهو حكمه ومشيئته ، واللّه هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسّيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى : قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند اللّه ، وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوؤهم لأجله ، ويعاقبون عليه بعد موتهم بما وعدهم اللّه في قوله سبحانه : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها [غافر ٤٠/ ٤٦]. « ١ »

ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة اللّه في تصريف الكون ، ولا يعلمون كيفية ارتباط الأسباب بالمسببات ، ولا أن الأمور تجري بالمقادير ، وأنّ كل شيء عنده بمقدار ، فليس الشؤم بسبب موسى وقومه ، وإنما بسبب سوء العمل ، وبمقتضى النظام الإلهي في قانون السّببية المذكور.

وفضلا عن أن كلّا من الحسنات والسيئات لم تذكّرهم بما يجب عليهم نحو ربّهم ، فإنهم تمرّدوا وعتوا ، وعاندوا الحق ، وأصرّوا على الباطل بقولهم لموسى : إن أي آية جئتنا بها ، وأي حجّة ودلالة أظهرتها لنا ، وأثبتها لإقناعنا وصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، رددناها ولم نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما

جئت به ، ولا نصدّق برسالتك وقولك أبدا.
لذا عاقبهم اللّه على كفرهم وتكذيبهم وجرائمهم ، فأرسل عليهم الطّوفان :
وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار ، كما قال ابن عباس ، فالطّوفان :
ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل.

---

(١) الكشاف : ١/ ٥٦٨- ٥٦٩.

و أرسل عليهم الجراد ، فأكلت كلّ زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء ، حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام. خرج موسى عليه السّلام إلى الفضاء ، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النّواحي التي جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركي ديننا.
فأقاموا شهرا ، فسلّط عليهم القمّل : وهو كبار القراد ، أو السّوس ، فأكل ما أبقاه الجراد ، ولحس الأرض ، أو صغار الذّباب أو البراغيث أو القمل المعروف الذي يلدغ ويمصّ الدّم ، أي أنّه سلّط عليهم بعد الجراد من الآفات الزراعية من صغار الذّر كالدودة ، فأكلت الزّروع واستأصلت كلّ شيء أخضر.
ثم فزعوا إلى موسى فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.
فأرسل اللّه الضّفادع ، فدخلت بيوتهم ، وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلّم وثبت الضفدع إلى فمه ، وامتلأت منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرّقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فشكوا إلى موسى ، وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ، ولا نعود ، فأخذ عليهم العهود ، ودعا فكشف اللّه عنهم ، ثم نقضوا العهد.
فأرسل اللّه عليهم الدّم ، أي تحوّلت مياههم إلى دم ، فكانوا إذا ما استقوا من الأنهار والآبار ، وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون ، فقال : إنه قد سحركم ، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد ، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء ، وما يلي القبطي دما.
كلّ ذلك آيات مفصّلات أي واضحات بيّنات ظاهرات ، لا يشكل على عاقل أنها من عند الله ، ولا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة ونقمة على كفرهم ، وهي دالّة

ج ٩ ، ص : ٦٣

على صدق موسى ، إذ قد توعّدهم بوقوع كلّ واحدة منها تفصيلا.

(٥٩/٩)

أما فرعون وقومه فظلّوا على عنادهم وكبريائهم فاستكبروا عن عبادة اللّه ، ولم يتّعظوا ، وكانوا قوما مجرمين في حقّ أنفسهم وغيرهم ، مصرّين على الجرم والذّنب.

فقه الحياة أو الأحكام :

ترشد الآيات في الجملة إلى قانون السّببيّة : وهو ربط الأسباب بالمسبّبات والنتائج على حسب مشيئته تعالى ، وإلى أن ما يتعرّض له الناس من آفات زراعية ومصائب فهو بسبب أعمالهم.

وأما تفصيلا فدلّت الآيات على أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار ، لأجل أن يتركوا العناد والتّمرد ، ويرجعوا إلى الانقياد والعبودية للّه ، لأن أحوال الشدّة ترقّق القلب ، وترغّب فيما عند الله ، كما قال تعالى : وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء ١٧/ ٦٧] ، وقال : وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ [فصلت ٤١/ ٥١].

وقوله تعالى : لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي ليتّعظوا وترقّ قلوبهم ، يدلّ على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكّروا ، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.

وأول آية على فرعون وقومه من آيات العقاب : السّنين أي الجدوب ، يقال : أصابتهم سنة أي جدب ، و

في الحديث الثابت : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنّي يوسف » .

يروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام ، وقيل :

شهر ، وقيل : أربعون يوما.

والثانية : نقص محصول الثّمار وغلاته نقصا شديدا مريعا ، لا يكفي أحدا.

ج ٩ ، ص : ٦٤

و هذان عقابان ، كلّ منهما أخفّ من أنواع العقاب الأخرى ، بدءا بالتّدرج في العذاب لعلّهم ينزجروا ، ولكن القوم عند نزول تلك المحن عليهم لم يتّعظوا ولم يرعووا ، وإنما أقدموا على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم ، فقال تعالى : فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ الآية.

(٦٠/٩)

فهم ينسبون الخير من الخصب والثّمار وسعة الرّزق والعافية والسّلامة والمواشي إلى أنفسهم ، مدّعين أنهم جديرون بذلك ، مستحقّون للإكرام والإنعام ، لتفوّقهم وذكائهم ، وعملهم ومعرفتهم. أمّا الشّر من الجدب والقحط والمرض والضّر والبلاء فهو بسبب موسى وقومه وشؤمهم.

والحقّ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عزّ وجلّ بذنوبهم ، لا من عند موسى وقومه ، ولكنّهم قوم يجهلون هذا المعنى ، فطائرهم عند اللّه ، أي ما قدّر لهم وعليهم.

أمّا التّطيّر والتّشاؤم فجاء الإسلام بالنّهي عنه عند سماع صوت طائر ما كان ، وعلى أي حال كان ، لأن الواحد من أهل الجاهلية كان كثيرا إذا أراد الحاجة أتى الطّير في وكرها فنفّرها ، فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته ، وهذا هو السّانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع ، وهذا هو البارح عندهم ،

فنهي النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم عن هذا بقوله فيما رواه أبو داود والحاكم عن أم كرز : « أقرّوا الطّير على مكناتها »

أي بيضها أو على تمكنها فلا تنفّروها. وقال عكرمة : كنت عند ابن عباس ، فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شرّ. و

قال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر : « لا طيرة ولا هام » .

قال العلماء : وأما أقوال الطّير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه ، ولا لها علم

ج ٩ ، ص : ٦٥

بكائن ، فضلا عن مستقبل فتخبر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطّير ، إلا ما كان اللّه تعالى خصّ به سليمان صلّى اللّه عليه وآله وسلم من ذلك ، فالتحق الطّير بجملة الباطل « ١ » .

وروى أبو داود عن عبد اللّه بن مسعود عن النّبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال : « الطّيرة شرك- ثلاثا- وما منّا إلا « ٢ » ، ولكن اللّه يذهبه بالتّوكل » .

و اشتدّ تمادى قوم فرعون في عنادهم ، فقالوا لموسى : مهما تأتنا من آية لتصرفنا عما نحن عليه ، فلن نصدق بك. ففي الآية الأولى : فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ أسندوا حوادث هذا العالم ، لا إلى قضاء اللّه تعالى وقدره ، ثم وقعوا بجهالة وضلالة أخرى في الآية الثانية : وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ وهي أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السّحر ، وجعلوا جملة الآيات الدّالة على صدق موسى مثل انقلاب العصا حيّة من باب السّحر منهم ، وقالوا لموسى : إنّا لا نقبل شيئا منها البتة.

قال ابن عباس : إن القوم لما قالوا لموسى : مهما أتيتنا بآية من ربك ، فهي عندنا من باب السّحر ،

ونحن لا نؤمن بها البتة ، وكان موسى عليه السّلام رجلا حديدا ، فعند ذلك دعا عليهم ، فاستجاب اللّه له ، فأرسل عليهم الطّوفان الدّائم ليلا ونهارا ، سبتا إلى سبت ، ثم ذكر بقية الآيات الخمسة ، وهي : الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

أمّا الطّوفان : فهو المطر الشّديد حتى عاموا فيه ، وأمّا الجراد فأكل النّبات ، وأما القمّل فلم يبق في أرضهم عودا أخضر. إلا أكلته ، وأما الضّفادع فخرج من

---

(١) تفسير القرطبي : ٧/ ٢٢٦.

(٢) قال ابن الأثير : هكذا جاء في الحديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى ، أي إلا وقد يعتريه التّطيّر ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ، فحذف اختصارا واعتمادا على فهم السّامع. و

قوله : « و لكن اللّه يذهبه بالتّوكل »

: معناه أنه إذا خطر له عارض التّطيّر ، فتوكل على اللّه وسلّم إليه ، ولم يعمل بذلك الخاطر ، غفره اللّه له ولم يؤاخذه به.

ج ٩ ، ص : ٦٦

البحر مثل الليل الدّامس ووقع في الثّياب والأطعمة ، فكان الرّجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضّفادع ، وأما الدّم فجرت أنهارهم دما ، فلم يقدروا على الماء العذب. وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطّيّب.

فاشتكوا إلى موسى وفرعون ، فقال فرعون لموسى : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ .. إلى آخر الآية الآتي بيانها.

وتلك الآيات البيّنات لا يخفي على عاقل أنها من آيات اللّه التي لا يقدر عليها غيره. ومع ذلك استكبروا عن عباده اللّه وعن الإيمان به وكانوا قوما مجرمين أي مصرّين على الجرم والذّنب.

واختلف العلماء في قتل الجراد إذا حلّ بأرض فأفسد ، فقيل : لا يقتل ، وقال أكثر الفقهاء : يقتل.

احتجّ الأوّلون : بأنه خلق عظيم من خلق اللّه ، يأكل من رزق اللّه ولا يجري عليه القلم ، أي لا تبعة عليه ، و

بما روى الطبراني والبيهقي عن أبي زهير ، وهو ضعيف : « لا تقتلوا الجراد فإنه من جند اللّه الأعظم » .

واحتجّ الجمهور : بأن في ترك الجراد فساد الأموال ، وقد رخّص النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم بقتال

المسلم إذا أراد أخذ ماله ، فالجراد إذا أرادت فساد الأموال ، كانت أولى أن يجوز قتلها. و
روى ابن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم كان إذ دعا على الجراد قال : « اللهم أهلك كباره ، واقتل صغاره ، وأفسد بيضه ، واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء » ، قال رجل :
يا رسول اللّه ، كيف تدعو على جند من أجناد اللّه بقطع دابره ؟ قال : « إن الجراد نثرة « ١ » الحوت في البحر » .

---

(١) النّثرة : شبه العطسة.

ج ٩ ، ص : ٦٧

و أما أكله فجائز في السّنّة ، ثبت
في صحيح مسلم عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم سبع غزوات ، كنّا نأكل الجراد معه.
وأكله جائز باتّفاق الأمة ، وأنه إذا أخذ حيّا وقطعت رأسه أنه حلال بالاتّفاق ، وذلك بمنزلة الذّكاة (الذّبح). واختلفوا هل يحتاج إلى اصطياد ؟ فقال الجمهور : لا يحتاج إلى ذلك ، ويؤكل كيفما مات ، كالحيتان ،